

تنويه برواية (الطريق)

«أول تحفة روائية عن جيل الاحتباس الحراري. (الطريق) رواية أمريكية كلاسيكية جعلت مكارثي على الفور مرشحا لنيل جائزة نوبل للأدب».

أندرو أوهاجان

راديو بي بي سي

«يستحضر مكارثي من هذا الهروب الصعب معجزة الإنسانية التي لا تلبث ولا تستكين. الرواية مؤثرة ومثيرة إلى حد لا يصدق».

كريس كليف

صندي تايمز

«إحدى أكثر الروايات التي قرأتها إثارة لمشاعر الصدمة والرعب، دون أن تتخلى عن مهمتها الإنقاذية/الخلاصية. (الطريق) قصة حميمية مكثفة، إنذار يحذر من مغبة الآتي».

كريستي وارنك

كتاب الأوبزرفر في العالم

«يصعب عليك تجاهل عمل يمثل هذا الجمال المروع. (الطريق) رواية تحبس الأنفاس فعلاً».

توم غاتي

التايمز

«سوف تتابع القراءة وأنت في حالة من الاقتناع الكامل، والانبهار الشامل، والإثارة المطلقة. كل ما تستطيع الرواية الحديثة فعله موجود هنا».

الن وارنر

الغارديان

«تحفة روائية تعدد من الكلاسيكيات الأدبية العظيمة».

هيرالد

«يثبت مكارثي أنه واحد من أعظم الأدباء الأمريكيين الأحياء».

الملحق الأدبي للتايمز

«رواية تتسم بالدقة البالغة المتناهية ... بسيطة، يكتنفها الغموض، شفاقة كالبور، ومبهمة كاللغز في آنٍ معاً. رواية لا تمنح طوقاً للنجاة، ولا تمد يد العون، بيد أنها تتطوي على حكمة شجاعة أكثر رسوخاً وأبقى أثراً».

نيويورك تايمز

«لا يوجد كاتب أمريكي آخر منذ عهد فوكنر خاض بمحض إرادته في الأعمال الأدبية التي تتطوي على وحشية تنزع إلى الشر... مكارثي عزف معزوفة الفالس الأخيرة، ورقص على موسيقاها بما يكفي من الأناقة والروعة؛ كي يجذب الانتباه إلى المهم والجوهري».

بوسطن غلوب

«الإلحاح المتجدد في كل صفحة، والجازبية العاطفية الخالصة، يجعلان (الطريق) واحداً من أكثر الكتب فاجعية. يكاد يكون مستحيلاً عليك أن تغلق الكتاب متى فتحته؛ كما لو أن عليك الاستمرار في القراءة كي تبقى شخصيات الرواية حية ترزق... الطريق عمل أدبي من وحي الخيال العميق، عمل فاجعي مهما كانت آراؤك الفكرية وميولك السياسية».

بوك فورم

«نكتشف هذا العالم العنيف المغاير لكل ما هو طبيعي عبر إيقاعات سوداوية رائعة، هي -أيضاً- موصولة بالكتاب المقدس. قليل من الكتب يمكن أن يقدم أكثر، وقليلة تلك التي أنتجت أثراً أدبياً أفضل. لا بد من قراءة هذا الكتاب».

روكي ماونت نيزو

«كتاب مظلم لكنه متوهج بفضل موهبة مكارثي اللغوية الفائقة. لماذا نقرأ هذا الكتاب؟... لأنه سبر الأغوار السحيقة لليأس وطوعها كي تناسب اللغة، تماماً كما يفعل الصائغ الماهر بجواهره وأحجاره الكريمة. الكتاب يعلن انتصار اللغة على العدم».

شيكاغو تريبيون

«حالة الحب القائمة بين الأب والابن هي واحدة من أقوى العلاقات التي كتب عنها مكارثي».

كريستيان ساينس مونيتور

«كتاب مؤثر ومقلق واقتحامي، يكشف أعماق الحقيقة السوداء الكامنة وراء الحزن والرعب كليهما. لا يمكن لرواية أخرى أن تتفوق على الطريق في استشعار الكارثة حقاً وفعلاً على المستويين المادي والروحي».

التايم

«الذروة المنطقية لكل ما كتب مكارثي».

نيوزويك

«من الصعب تصور قصة رؤيوية انتظم عقدها بمثل هذه الدقة وبمثل هذا الجمال. يملك مكارثي ذخيرة هائلة من المفردات المستقاة من الكتاب المقدس، أطلق العنان لها بأسلوب خُلف أثراً فنياً. الطريق تأخذه إلى مستوى جديد كلياً. فهي تستحوذ حتى على القلب الإنساني الأكثر برودة».

ستار - لدجر (نيويورك)

«مكارثي قصاص متمكن لكنه عاصف كالإعصار... كتاباته رائعة كلها وعظيمة إلى حد استثنائي».

شيكاغو صن - تايمز

«مدمرة.. ساحقة.. لم يبدُ مكارثي في حياته أوسع اطلاعاً وأكثر فصاحة وأشد بلاغة، ويتصرف بحرية كما لو كان في بيته، مما هو عليه

في الطريق؛ ذاك العمل الأدبي الذي ينتمي إلى فضاء (ما بعد الرؤية) الذي تدور أحداثه فوق أرض ذابرة زاوية خاوية مضرجة بالدماء... أثر فني من الطراز الرفيع... رائعة أدبية استثنائية محببة إلى النفس ومحزنة للقلب».

إنترتينمنت ويكلي

«.. الرواية الأسيرة، الأسهل منالاً والأشد إثارة للمشاعر منذ أن كتب (كل الجياد الجميلة) ... لقد أمسك مكارثي السكين التي يتعذر الإمساك بها من نصلها الحاد في خضم عالم عدائي، وسط هذا الانكشاف الكئيب الذي يشبه (في انتظار غودو). اشترك مكارثي وأسهم في أمر حيوي راسخ يتعلق بروح الولد وحب الوالد وبطبيعة الشجاعة ذاتها».

يو إس إيه توداي.



obeikandi.com

الطريق

(رواية)

كورماك مكارثي

نقله إلى العربية

هيثم جودت نشواتي

و

معين الإمام



مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم
MOHAMMED BIN RASHID
AL MAKTOUM FOUNDATION

العبدان
Obékan

Original Title

THE ROAD

Cormac McCarthy

Copyright © M-71, Ltd. 2006

ISBN: 0-330-44753-X

All rights reserved. Authorized translation from the English language edition

First Published in Great Britain 2006 by PICADOR, an imprint of Pan Macmillan Ltd, Pan

Macmillan, 20 New Wharf Road, London N1 9RR. U.K.

حقوق الطبعة العربية محفوظة للبيكان بالتعاقد بيكادور - ماكميلان - المملكة المتحدة.

© **البيكان** 2009 _ 1430

ISBN 1 - 910 - 54 - 9960 - 978

الطبعة العربية الثانية 1431هـ - 2010م

الناشر **البيكان** للنشر

المملكة العربية السعودية - شارع العليا العام - جنوب برج المملكة - عمارة الموسى للمكاتب

هاتف: 2937581/2937574، فاكس: 2937588 ص.ب: 67622 الرياض 11517

٢ مكتبة البيكان، 1429هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

مكارثي، كورماك

الطريق./ كورماك مكارثي؛ هيثم جودت. ط2 - الرياض 1429هـ

ص: 21 + 14 نسـم

ردمك: 1 - 910 - 54 - 9960 - 978

1 - القصة الإنجليزية - الولايات المتحدة أ. جودت، هيثم (مترجم) ب. العنوان

1430 / 7375

ديوي: 823.540953

رقم الإيداع: 1430 / 7375

ردمك: 1 - 910 - 54 - 9960 - 978



مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم
MOHAMMED BIN RASHID
AL MAKTOUM FOUNDATION

و **البيكان**

صدرت هذه الطبعة باتفاقية نشر خاصة بين الناشر

مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم غير مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وتعتبر الآراء الواردة في هذا الكتاب عن وجهة نظر المؤلف وليس بالضرورة عن رأي المؤسسة؟

امتياز التوزيع شركة مكتبة **البيكان**

المملكة العربية السعودية - العليا - تقاطع طريق الملك فهد مع شارع العروبة

هاتف 4160018 - 4654424 فاكس 4650129 ص.ب 62807 الرمز 11595

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو نقله في أي شكل أو واسطة، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك التصوير بالنسخ «فوتوكوبي» أو التسجيل، أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي من الناشر.



obeikandi.com

عندما استيقظ في الغابة كان البرد وعمته الليل يلفانه. مد يده ليتحسس الطفل النائم بجانبه. الليالي غارقة في ظلام دامس، والأيام كل منها أكثر رمادية وضبابية من اليوم الذي سبقه، وكأنك تراه بعينين مصابتين بالزرق؛ فيبدو لك العالم معتماً مكفهرًا. كانت يده تلوثم تسبل برفق متساوقة مع حركة النفس. أزاح الغطاء البلاستيكي ثم نهض مدثرًا بثيابه النتنة وبالبطانيات، يمم وجهه شطر الشرق؛ بحثًا عن بصيص من نور، ولكن عبثًا كان يفعل. رأى في الحلم الذي أفاق منه لتوه أنه كان يهيم في كهف، يتقدمه الطفل ممسكاً بيده وضوء المصباح يداعب الجدران الحجرية الرطبة، كما الحجاج في الأسطورة تبتلعهم وتضيعهم المكونات الداخلية لحيوان غرانيطي. مسارب حجرية عميقة، حيث الماء يتسرب مترقرقًا. من خلال الصمت يسمع نبض الأرض؛ دقائق الدقائق والساعات والأيام والسنين. إيقاع لا نهاية له. إلى أن توقفنا بغرفة حجرية ضخمة، حيث تقبع بحيرة أزلية سوداء اللون، على ضفتها البعيدة ثمة مخلوق فمه منغمس في بركة ماء والماء يقطر منه. ثم حدق في الضوء بعيون بيضاء عمياء كأنها بيض العناكب. هز رأسه قريباً من صفحة الماء؛ عساه يدرك بالششم ما لم يستطع أن يراه. جثا المخلوق حيث هو شاحباً، عارياً ونصف شفاف، ارتسمت ظلال عظامه المرمرية على الصخور من خلفه، وكذا ظل أحشائه وقلبه النابض ودماعه. هز رأسه ذات اليمين وذات الشمال وأنَّ أنيباً خافتاً، ثم استدار فترنح ووثب وابتلعتة العتمة بصمت.

نهض مع خيوط الفجر الأولى الرمادية اللون، تاركاً الصبي نائماً. ثم مضى متجهاً إلى الطريق، فجلس القرفصاء وأخذ يتفحص الريف الممتد جهة الجنوب. وجده قاحلاً، خامداً، صامتاً وكأنه من عالم مهجور. ظن

أن هذا الشهر هو شهر أكتوبر، لكنه لم يكن متأكداً؛ فهو لم يحتفظ بتقويم منذ سنوات. الحياة في هذا المكان لن تكون ممكنة في الشتاء القادم.

عندما أصبح الضوء كافياً بدأ ينظر إلى الوادي أسفل منه من خلال المنظار، فبدت له الأشياء شاحبة، باهتة، تسبح في الظلام. أما على إسفلت الطريق فتمة دوامات من الرماد الناعم. تفحص ما أمكنته الرؤية أن يفعل؛ ومر بناظريه على أجزاء من الطريق تبدت له من خلال الأشجار الميتة. كان يبحث عن أي شيء له لون، عن حركة ما، عن أي أثر لدخان تفتته نار مضرمة. أخفض المنظار، أطم اللثام القطني عن وجهه، فرك أنفه بطرف معصمه ثم أخذ ينظر إلى الريف من جديد. جلس في مكانه وأمسك المنظار ثانية مجيلاً النظر بضوء النهار المثقل بالرماد وقد تحجر فوق الأرض. إنه الآن لا يعرف إلا شيئاً واحداً وهو أن الصبي هو ما لديه من الضمان. قال:

عندما قفل عائداً كان الصبي ما يزال نائماً، سحب عنه الغطاء البلاستيكي الأزرق، طواه وحمله إلى عربة المتاع، ثم عاد ومعه صحن وكيس من البلاستيك يحتوي على بعض رقائق الذرة وعبوة بلاستيكية فيها حساء. مد على الأرض قطعة صغيرة من المشمع تستعمل بديلاً عن الطاولة، ثم جعل عليها كل الأشياء التي أحضرها، وجلس ينظر إلى الصبي وهو نائم. كان الصبي قد نزع عن وجهه القناع ليلاً، وهو مطمور الآن في مكان ما بين البطانيات. نظر إلى الصبي ثم مد نظره بين الأشجار وصولاً إلى الطريق. هذا المكان ليس آمناً؛ يمكن رؤيتهما من الطريق، فالوقت الآن أضحى نهاراً. تقلب الصبي تحت البطانيات ثم فتح عينيه وقال: مرحباً يا أبي.

رد الأب: أنا هنا.

قال الصبي: أعرف ذلك.

بعد ساعة من الزمن كانا على الطريق، الأب يدفع العربة وكلاهما يحمل على ظهره حقيبة تحتوي على الأشياء الضرورية، فربما يضطران إلى التخلي عن العربة لسبب يدعو إلى الهرب. ثبتت على مقبض العربة امرأة دراجة نارية من الكروم؛ كي ينظر من خلالها إلى الطريق خلفهما. حرك ظهره دافعاً الحقيبة إلى الأعلى نحو كتفيه وأجال الطَّرْف في الريف الخرب. كان الطريق مقفراً، وهناك نحو الأسفل في قاع الوادي الصغير يلتف مجرى نهر مكسو باللون الرمادي، ساكن لا حراك فيه، وعلى طول ضفته تنتشر أدغال من القصب الميت.

قال: هل أنت بخير؟ فأوماً الصبي بحركة من رأسه إيجاباً. ثم شرعا يسيران فوق الطريق المزفت، يجران أقدامهما عبر الرماد. كل واحد منهما هو العالم كله للآخر.

اجتازا النهر عبر جسر إسمنتي قديم، وبعد أن قطعاً أميالاً وصلوا إلى محطة بنزين على جانب الطريق، وقفا على الطريق يتفحصانه. قال الرجل للصبي: علينا أن نتفحص المكان، ألق نظرة. غاصت ثيابهما بالغبار، جازا الزفت المتكسر، فوجدا خزان الوقود الذي يغذي مضخات البنزين: كان الخزان منزوع الغطاء، انحنى الرجل متكئاً على مرفقيه؛ ليشم الخرطوم لكن رائحة البنزين كانت مجرد إشاعة باهتة وثقيلة الظل. استقام الرجل ونظر إلى مبنى المحطة، فوجد مضخات البنزين منتصبه في أمكنتها، والنوافذ لم تصب بأضرار، وكان باب قسم الخدمة مفتوحاً فدخل إليه،

ووجد صندوق عدة معدنية معلقاً على الجدار. فتش الأدراج لكنه لم يحظ بشيء ذي نفع؛ كل ما وجدته مفاتيح براغي نصف إنش صالحة للاستعمال، إضافة إلى ترس مغلاق. انتصب واقفاً وألقى نظرة على مرآب السيارات. هنالك برميل معدني مليء بالنفايات. دلف إلى المكتب فوجده يعج بالغبار والرماد - بقي الصبي واقفاً عند الباب - مكتب معدني وماكينة لتسجيل المدفوعات النقدية، إضافة إلى عدة قديمة لخدمة السيارات لكنها مشبعة بالماء والرطوبة. فراش الأرض كان ملطخاً، ملوثاً ومتجعداً، وذلك بفعل رشح المياه من السقف. مشى نحو المكتب المعدني حيث توقف وأمسك سماعة الهاتف وطلب رقم هاتف منزل والده القديم العهد. نظر الصبي إليه وقال: ماذا تفعل؟

بعد أن قطعاً مسافة ربع الميل مشياً على الطريق، توقف ثم التفت إلى الوراء وقال: إننا لم نحسن التدبير ويجب علينا أن نعود. نحى العربة جانب الطريق وغطاها بغية إخفائها. تركا حقيبتيهما وقفلا عائدين إلى المحطة. دخل قسم الخدمة، سحب برميل النفايات المعدني ببطء، أماله ونبش ما بداخله، مخرجاً كل عبوات الزيت البلاستيكية. جلسا على الأرض وشرعا يفرغان عبوات الزيت من البقية الباقية فيها الواحدة تلو الأخرى وذلك بجعلها مقلوبة رأساً على عقب، بحيث يصب الزيت في وعاء معدني. إلى أن جمعا، أخيراً، ما مقداره نصف غالون من زيت السيارات. أحكم إغلاق الوعاء بغطاء بلاستيكي ثم مسحه بخرقة وحمله بيده. إنه الزيت اللازم لفانوسهما الصغير؛ كي يبدا به حلقة الليالي الطويلة، وأوقات الفجر الرمادية الظل التي تمر عليهما بطيئة وثقيلة الظل. قال الولد مخاطباً أباه: يمكنك أن تقرأ لي قصة. أليس كذلك؟

رد أبوه قائلاً: نعم يمكنني ذلك.

على الضفة الأخرى للنهر الذي يسلك الوادي ثمة آثار لحريق هائل خُلف لونهاً أسود دلالة على شدة الاحتراق. وعلى كلتا ضفتي النهر تنتشر جذوع متفحمة لأشجار مقطوعة الأغصان، ممزقة الأوصال وتمتد بعيداً. على الطريق يتحرك الرماد وتتدلى من سواربي الأضواء السوداء اللون حزم من أسلاك الكهرباء المتقطعة تعصف بها الرياح فتصدر طنيناً خافتاً. ثمة بيت محترق وسط أرض جرداء مقطوعة الشجر تمتد خلفه مروج مقفرة رمادية اللون وضفة موحلة جرداء حمراء اللون كانت ميداناً لأعمال طرق، وهي مهجورة الآن والعمل متوقف فيها. تنتصب وراءها لوحات طرقية تعلن عن وجود موتيلات؛ جميعها باهتة خابطة بفعل العوامل الجوية. وسط الرياح الباردة وعلى قمة الهضبة توقفاً يلتقطان أنفاسهما. نظر الرجل إلى الصبي. قال له: أنا على ما يرام، ثم وضع الرجل يده على كتف الصبي وأشار إلى الريف المنحدر أمامهما. التقط الرجل المنظار من العربة وتوقف في الشارع وأخذ ينظر إلى السهول الممتدة أمامه فترأت له ظلال مدينة متشحة باللون الرمادي وكأنها لوحة لأرض مقفرة خربة ومرسومة بالفحم. ليس ثمة ما يرى، لا يوجد دخان.

قال الصبي: هل أستطيع أن أنظر؟ أجابه الرجل: نعم بالطبع لك ذلك. اتكأ الصبي على العربة وعدل العدسة وضبطها. قال له الرجل: ماذا ترى؟ رد الصبي: لا شيء. أخفض المنظار وقال: إنها تمطر. قال الرجل: نعم، أعرف ذلك.

تركا العربة في أخدود، غطياها بغطاء من المشمع وشقا طريقهما عبر منحدر تحيط بهما جذوع أشجار دكناء، حيث وقعت عيناه على مجموعة

من الصخور متصل بعضها ببعض. جلسا تحت صخرة ناتئة ينظران إلى زخات المطر الرمادية وهي تهب على الوادي. كان الجو شديد البرودة. جلسا متجاورين متلاصقين وقد لبس كل منهما سترته والتحف ببطانية. بعد زمن قصير توقف انهماار المطر ولم يبق سوى صوت القطرات وهي تسيل على جذوع الأشجار.

عندما صفت السماء وخلت من الغيوم ذهبنا إلى العربة وأزاحا عنها غطاء المشمع ثم أخذنا البطانيات وما يحتاجانه من أشياء في أثناء الليل. بعد ذلك عادا ثانية إلى الهضبة وضربا مخيمهما فوق الأقدار الجافة تحت الصخور. جلس الرجل ولف ذراعيه حول الصبي؛ عله يبعث فيه الدفاء. مكثا ملتحفين بالبطانيات يلفهما ظلام الليل الرهيب الذي تعجز الكلمات عن وصفه. مع حلول الليل تلاشت ظلال المدينة الرمادية وكأنها شبح غاص في الظلام. أشعل الرجل الفانوس الصغير ووضعه في الخلف بعيداً عن الرياح. بعد ذلك خرج الرجل متوجهاً إلى الطريق ممسكاً بيد الصبي، ثم اعتليا قمة الهضبة، حيث بلغ الطريق ذروة ارتفاعه ومن حيث يستطيعان رؤية الريف المظلم جهة الجنوب. انتصبا هناك واقفين في مهب الريح، وقد ادثرا بالبطانيات يجيلان النظر؛ بحثا عن أي علامة تشير إلى نار أو إلى مصباح؛ ولكن عبثاً كانا يحاولان. كان ضوء الفانوس الذي تركاه بين الصخور ضعيفاً لدرجة لا يكاد يرى معها. بعد برهة من الزمن مشيا عائدين من حيث أتيا. كل شيء كان رطباً لدرجة لا يمكن معها أن تضرم فيه نار. أكلا وجبتيهما الفقيرتين باردتين واطرحا على فراشيهما يتوسطهما الفانوس. أحضر معه كتاب الصبي، لكن الأخير كان شديد التعب لدرجة لا يستطيع معها القراءة. سأله الصبي: هل لنا أن نبقى الفانوس مضاء إلى أن ننام؟ أجابه: طبعاً، يمكننا ذلك.

كان قد مضى على نومه وقت طويل، استدار بعد برهة ونظر إلى الرجل.
 بدا وجهه في ظل ضوء الفانوس الخافت ملطخاً باللون الأسود المتأتي من
 المطر وكأنه ممثل مسرحي آتٍ من الأزمنة الغابرة. قال له الصبي: هل لي
 أن أسألك عن شيء؟

- نعم طبعاً.

- هل سنموت؟

- يوماً ما، ليس الآن.

- أمازلنا متجهين جنوباً؟

- نعم.

- إذاً سوف ننعم بالدفء.

- نعم.

- حسناً.

- حسن، ماذا؟

- لا شيء. حسناً وكفى.

- اخلد إلى النوم.

- حسناً.

- سأطفئ الفانوس. ما رأيك؟

- لا بأس في ذلك. ولكن هل لي أن أسألك عن أمر في خضم الظلام؟

- نعم. تستطيع أن تسأل بكل تأكيد.

- ماذا ستفعل إذا مت؟

- إن أنت مت فسأتمنى أن أموت أنا أيضاً.

- وبذلك يكون بإمكانك أن تكون معي؟

- نعم، وبذلك يمكنني أن أكون معك.

- حسناً.

تمدد على الأرض يصغي إلى صوت الماء وهو يسيل على جذوع الأشجار. إن أعماق الحقيقة تتجلى بالبرد والصمت وبرماد العالم الحديث؛ رماد يحمله البرد الشديد والرياح العاتية جيئةً وذهاباً في دورة عبثية. رماد تجمعته الرياح، تبعثه ثم تجمعته من جديد. في كنف الهواء المثقل بالرماد كل شيء مقتلع من جذوره دونما داعم أو سند. كل الأشياء تافهة وزائلة. أتمنى لو كان قلبي حجراً.

استيقظ قبل بزوغ الفجر ليشهد صباح يوم يتشكل ببطء ويتنازعه الضوء والعممة. أفاق من نومه في حين ظل الصبي نائماً. انتعل حذاءه ولف حوله بطانية ثم مشى بين جذوع الأشجار. نزل إلى صدع بين الأحجار، جثا على ركبتيه، دافعاً رأسه إلى الأمام وإلى الأسفل. بدأ يسعل وتملكته نوبة السعال زمناً طويلاً، فأركعته على الرماد. ولى وجهه قبل الفجر الشاحب وهمس: هل أنت هناك؟ هل أستطيع أن أراك أخيراً؟ هل لك رقبة كي أختقك؟ هل لك قلب؟ لتحل عليك اللعنة الأبدية. هل لك روح؟ ثم همس: أه أيها الليل أه أيها الليل.

مرا بالمدينة ظهيرة اليوم اللاحق، وضع المسدس بين طيات غطاء المشمع، وجعل الغطاء على سطح العربة؛ كي يبقى المسدس بمتناول اليد. أما الصبي فأبقاه بجانبه وملاصقاً له. كان معظم المدينة محترقاً وليس

ثمة ما يشير إلى وجود حياة. السيارات في الشارع مغطاة بالرماد الذي جف وتيبس عليها، كل شيء مغطى بالرماد والغبار. ثمة جثة أضحت جيفة جافة ملقاة في مدخل، وآثار أقدام محفورة في الوحل الجاف. أدنى الصبي منه أكثر من ذي قبل وقال: تذكر فقط أن الأشياء التي تضعها في رأسك ستبقى فيه إلى الأبد. ربما تكون راغباً في التفكير بهذا الأمر، إنك تتسى بعض الأمور. أليس كذلك؟ أجل، إنك تتسى ما تريد أن تتذكره وتتذكر ما تريد نسيانه.

كان ثمة بحيرة تبعد مسافة الميل عن مزرعة عمه، وقد اعتاد الذهاب معه إليها في فصل الخريف؛ ليحتطبها حطباً من أجل التدفئة. كان يجلس في القسم الخلفي من مركب التجديف ممرراً يده على المياه الباردة عبر المجرى الذي يخلفه المركب وراءه وهو يبصر إلى الأمام، في حين كان عمه يتولى أمر المجدافين. قدما الرجل العجوز المنتعلتان حذاء أسود مشدودتان بشكل عمودي؛ قبعته المصنوعة من القش، غليونه بين أسنانه، وخيط رفيع من اللعاب يقطر من تجويف الغليون. استدار ليلقي نظرة على الشاطئ البعيد، أرخى المجدافين، أمسك الغليون بيده، أبعده عن فمه، ثم حك ذقنه بكفه. كان الشاطئ مزروعاً بشجر البتولا الذي انتصب واقفاً شاحباً ومن خلفه الحقول الخضراء توشحها عتمة الغروب. حافة البحيرة مرصوفة بجذول مفتولة من بقايا الشجر رمادية اللون، وقد فعلت بها عوامل الجو ما فعلت. بقايا الأشجار التي اقتلعتها الأعاصير في الأعوام الماضية. الأشجار نفسها قد تعرضت للنشر ونقلت أخشابها، كي تستعمل وقوداً للتدفئة. أدار عمه المركب ووضع المجدافين داخله وأخذت المياه الصافية تدفعهما باتجاه الشاطئ الرملي الضحل إلى أن وصل المركب إلى الرمال. يوجد في المياه الصافية فرخ سمك ميت منتفخ البطن وأوراق نباتات مصفرة اللون. تركا

حذاء يهما على سطح المركب المطلي والدافئ وسحباه إلى الشاطئ. أخرجنا المرساة المربوطة إلى نهاية حبل من المركب، والمرساة هي مكعب إسمنتي في مركزه مسمار له عروة. سارا على طول الشاطئ، بينما أخذ العم يتفحص بقايا أخشاب الشجر وهو يعب الدخان من غليونه وينفثه بالهواء؛ وقد لف حول كتفه حبلأ مانيلياً متيناً. التقط إحدى قطع الأشجار وقلباها مستخدمين الجذور رافعة إلى أن تمكنا من إيصالها إلى الماء وجعلها نصف طافية على سطحه. كان كل منهما قد كف بنطاله حتى ركبتيه، لكن ذلك لم يمنع عنهما البلل. ربطا الحبل بممسك مثبت بمؤخرة السفينة ثم جدفا عائدتين عبر البحيرة، وقطعة الشجر التي احتطباها ترتج ببطء خلفهما. عندها كان قد هبط المساء. لا توجد إلا صفحة الماء المظلمة، وأضواء النوافذ تظهر على طول الشاطئ وصوت مذياع يسعى إليهما من مكان ما. لم ينبس أحدهما ببنت شفة. ذلك كان اليوم المثالي في طفولته؛ إنه اليوم النموذجي الذي يجب أن تتشكل الأيام على شاكلته.

ظلا يشقان طريقهما جنوباً على مدى الأيام والأسابيع اللاحقة. متلازمين وخدمهما يرتحلان عبر هضاب وتلال في ريف قاسٍ. بيوت من الألمنيوم. كانا يتمكنان أحياناً من رؤية امتدادات طرق سريعة تربط بين المدن. الجو بارد ويزداد برودة. ثمة فجوة كبيرة بين الجبال، وقفا خلفها مباشرة ينظران - جنوباً - إلى الخليج الكبير وقد بدا الريف لهما على مد النظر محترقاً. الصخور الموجودة في المياه الضحلة قرب شاطئ الخليج بعيدة عن الأمواج بدت هياكلها متفحمة يكسوها الرماد الذي يهب أيضاً عبر الأراضي المقفرة ليملاً الريف. أما الشمس فقد حجبتها الظلمات ولا تكاد ترى ظلالها الكثيية وهي تتحرك.

بقيا أياً ما يخوضان غمار هذه الأرض المحمومة. وجد الصبي بعض أقلام الرسم فرسم لثام وجهه وجعل عليه أنياباً، وثابر على المشي مجهداً ولكن دونما شكوى. إحدى عجرتي العربة الأماميتين أصابها عطل فتقلقت. ما العمل بشأنها؟ لا شيء. حيث إن كل الأشياء احترقت قبل وصولهما متحولة إلى رماد، لم يكن ممكناً إضرام نار. وهكذا مرت عليهما الليالي ثقيلة بطيئة ومظلمة، وقد خبرا فيها برداً يفوق الخيال والقدرة على الاحتمال. البرد الذي يفلع الحجر هو أقدر على قتل الإنسان. كان الصبي يرتعش برداً فضمه إلى صدره وأخذ يعد أنفاسه الضعيفة تحت جنح الظلام.

استيقظ على وقع صوت صاعقة قادم من مكان بعيد فاستوى قاعداً. ترافق صوت الصاعقة مع انتشار ضوء باهت متكسر لا يمكن تحديد مصدره، فقد امتص المطر الأسود المحمل بالرماد ضوء الصاعقة. سحب الغطاء عليهما وتمدد على الفراش وظل يقظاً، مصغياً ومتربصاً، زمناً طويلاً. إنهما تعرضا للبلبل فلن يكون بمقدورهما إضرام نار يتجفان بدفئتها، وربما أدى ذلك بهما إلى الموت.

كان يصحو في تلك الليالي وقد اشتد ظلامها؛ ظلام لا سبيل لاختراقه، ظلمة تحمل المرء على الإصغاء، إصغاء يجرح الأذنين. كان عليه أن يصحو مراراً، لا صوت إلا هزيز الريح يعصف بين الأشجار المتفحمة والعارية. استيقظ، نهض ووقف فترنح وسط ظلام دامس وبرد قارس يبعثان على التوحد والاسترسال في التخيل هرباً من الواقع. لف ذراعيه بطريقة تعينه على التوازن، بينما بدأت ترهات عقله تخرج مكنوناتها؛ إنها رحلة استرجاع للأحداث الماضية؛ بحثاً عن الاستقامة. لا سقوط إلا ويسبقه

انحدار. لقد خطا خطوات عظيمة في طريق العدم، وراح يحصي الخطى ضد الرجوع. عينان مفلقتان وذراعان تجذبان. استقامة بالنسبة، لماذا؟ إنها أمر لا معنى له في الليل؛ مجاز مائي أو قالب، يُعدّ هو مع النجمات قمرهما الاعتيادي. كما البندول العظيم تحت قبته يدون تحركات اليوم الطويل للكون الذي يمكنك أن تقول: إنه لا يدرك شيئاً، مع ذلك فإنك تعرف أن عليه أن يدرك.

استغرق عبور أراضي الرماد المقفرة مسير يومين. الطريق خلفهما يمر عبر قمم سلسلة جبال، والغابة القاحلة المقفرة كانت تتلاشى شيئاً فشيئاً على جانبي الطريق كلما تقدما بالمسير. قال الصبي: الثلج ينهمر. نظر إلى السماء واعترض بكفه رقاقة ثلج رمادية، نظر إليها وهي تخمد في كفه كأنها آخر مضيف للعالم المسيحي.

تابعا السير معاً وقد وضعا غطاء على رأسهما. رقايات الثلج الرمادية الرطبة تتمايل وتسقط على الأرض، وعلى جانب الطريق تجمع وحل رقيق القوام. مياه سوداء اللون تجري من تحت كتل الرماد المتراكمة. لم تبق نيران موقدة على قمم الجبال البعيدة ابتهاجاً. دار في خلد أنه لم يعد لطوائف عشاق الدماء وجود ولا بد أن يكونوا قد التهم بعضهم بعضاً. لم يسلك أحد هذه الطريق؛ لا يوجد هنا قاطعو طريق ولا عصابات سلب ونهب. بعد مدة وجيزة وصلا إلى مرآب للسيارات ودخلا عبر باب مفتوح، حيث توقفا ومن هناك أخذوا ينظران إلى الثلج المختلط بالرماد وهو يسيل نصف متجمد من أعالي الريف.

جمعا بعض العلب القديمة وأوقدا ناراً على الأرض، ثم وجد بعض العدد، فأفرغ العربة وجلس يصلح عجلتها. سحب المسمار المولب وثقب

الطوق المعدني بمثقاب يدوي وأعاد تجليبه بشريحة من ماسورة معدنية قصها وفق الطول المطلوب، مستخدماً منشاراً يدوياً. ثم أعاد العجلة إلى مكانها وثبتها بمسمار ملولب، بعد ذلك سوَّى العربة على عجلاتها ودفعتها على الأرض فدارت كما ينبغي. كان الصبي جالساً يشاهد كل شيء.

استأنفا مسيرهما في الصباح. ريف مهجور، مخبأً خنازير قرب باب مستودع للحبوب؛ النظر إليه يثير الاشمئزاز. قطعة رفيعة من ذيل. داخل المستودع توجد ثلاث جثث معلقة على عوارض خشبية، وقد بدت الجثث من خلال خيوط الضوء الباهتة والشاحبة جافة ومغطاة بالغبار. قال الصبي: قد نجد شيئاً هنا؛ قد نجد ذرة أو شيئاً ما. قال الرجل: دعنا نذهب.

أكثر ما كان يثير قلقه أذيتهم إضافة إلى الطعام؛ دائماً الطعام. في معمل قديم لتدخين اللحوم والأسماك وجداً فخذاً من اللحم معلقاً على قضيب في ركن مرتفع، يوحي منظره بأنه مستخرج من قبر. الفخذ جاف إلى درجة كبيرة وهو متجمد. أدخل سكينه فيه فإذا لونه أحمر قاتم من الداخل ومذاقه مالح، لكنه دسم وصالح للأكل. في ذلك المساء قطعاه شرائح سمكية، وبعد القلي أضافا الشرائح إلى حبات من الفاصوليا؛ بغية طبخها معاً. في وقت لاحق من تلك الليلة أفاق من نومه وظن أنه كان قد سمع قرعاً على طبول ضخمة تتناهى إلى مسامعه من مكان ما من الهضاب المحيطة المظلمة والمنخفضة. أخيراً هدأت الريح وأمسى الصمت سيد الموقف.

كان يرى في الأحلام عروسه الشاحبة وقد أتت إليه من ظلة خضراء مورقة. صدرها مبيض ونظيف وهي متشحة باللون الأبيض وقد لبست ثوباً رقيقاً شفافاً وزين شعرها بأمشاط من العاج وأخرى مصدفة. كان يرى في

المنام ابتسامتها وعينيها الهدلاوين. في الصباح عاد الثلج ليسقط من جديد.
كريات صغيرة من الجليد الرمادي تشكلت على أسلاك الإنارة العالية.

لم يكن يتق بكل ذلك. قال: إن الأحلام الحقيقية لرجل معرض للخطر هي تلك التي تنذر بالخطر وكل ما عداها لا يعدو كونه دعوة للضنى والموت.
نام وقتاً قصيراً ولم يكن مرتاحاً في نومه. حلم أنه والصبي يمسيان في غابة مزهرة و الطيور ترفرف أمامهما تحت سماء زرقاء. إلا أنه تعلم كيف يوقظ نفسه من أحلام عالم الأساطير التي تقود صاحبها إلى الهلاك.
مستلقياً حيث هو في الظلام يتذوق حبة دراق سعت إليه من بستان فاكهة؛ فكر لو امتد به العمر زمناً كافياً فلسوف يشهد العالم وقد أمسى ضائعاً ومضيعة في النهاية. كما العالم الذي يحتضر كذلك الإنسان الذي فقد بصره حديثاً، كلاهما يخبو من الذاكرة ويضمحل رويداً رويداً.

بات يمشي متاقلاً تحت وطأة أحلام اليقظة التي لا سبيل للاستيقاظ منها. كان باستطاعته أن يتذكر كل شيء منها باستثناء رائحتها. لقد تذكر كيف كان جالساً معها في المسرح وهي إلى جانبه منحنية قليلاً إلى الأمام تصغي إلى الموسيقى.

زخرفة لولبية مذهبة، مصابيح معلقة على الجدران وستائر عمودية طويلة ومثنية على جانبي خشبة المسرح. أمسكت يده، وضعتها على ثوبها الصيفي الرقيق، فاستطاع أن يتحسس نهايتي جوربيها من الأعلى. جمد هذا الإطار الآن وارجع إلى البرد والظلام ولتحل عليك اللعنة.

كان قد وجد مكنستين فشكّل منهما مقشات وربطها بالعربة، وذلك كي يمهد الطريق أمام العجلتين الأماميتين. وضع الصبي في السلة ووقف

على العارضة الخلفية محاكياً وضع المزلجة التي تجرها الكلاب. وشرعاً يتزلجان باتجاه المنحدرات. عند المنعطفات كانا يوجهان العربة بجسديهما كما يفعل المتزلجون. إنها المرة الأولى التي يرى فيها الصبي مشاهد كهذه، مما دعاه إلى الابتسام مدة طويلة.

على قمة الهضبة وجدا منعطفاً ومخرجاً يفضي إلى ممر في طريق وعرة بين الأشجار. تركا العربة وسارا على الطريق إلى أن وجدا مقعداً فجلسا عليه ينظران إلى الوادي. لم يستطيعا رؤية الأرض بسبب كثافة الضباب المغبر. ثمة بحيرة في الأسفل. الجو بارد ومثقل ورمادي اللون في هذا الوادي.

- ما هذا يا أبي؟

- إنه سد.

- وما الفائدة منه؟

- إنه سبب تشكل البحيرة، فقبل بنائه كان مكانه نهر يجري ليس إلا يستخدم السد المياه التي تتجمع فيه لتدور مراوح ضخمة تسمى التربينات أو العنفات وهي بدورها تولد الكهرباء.

- وذلك من أجل إنارة المصاييح.

- نعم من أجل إنارة المصاييح.

- هل نستطيع أن نذهب إلى هناك؛ كي نراها؟

- أعتقد أن الطريق بعيدة جداً.

- هل سيبقى السد في مكانه زمناً طويلاً؟

— أعتقد ذلك. إنه مصنوع من الخرسانة. من المحتمل أن يبقى مئات السنين، وربما آلاف السنين.

— هل تعتقد أنه يوجد أسماك في البحيرة؟

— لا. لا يوجد شيء في البحيرة.

منذ زمن بعيد ومن مكان ما قريب جداً من هذا المكان، كان قد شاهد صقراً يهبط من أعلى الجبل وسط مجموعة من الطيور المائية من فصيلة الكركيات، ثم يجهز على إحداها ويسحبها نحو النهر، ويجرجرها، حتى تطاير ريشها في هواء الخريف.

إن مذاق الهواء المغبر لا يمكن أن يغادر فمك. وقفنا تحت المطر كأنهما من حيوانات المزارع، ثم تابعا المسير وقد جعلنا الغطاء فوقهما، فالسماء تمطر رذاذاً. تبللت أقدامهما فشعر بالبرد وتخربت أحذيتهما.

على أطراف التلال انتشرت بقايا حيوانات ميتة، وعلى مداها ثمة أشجار عارية صبغتها الأمطار بلون أسود. أما الأحلام فهي غنية جداً بالألوان.

هل توجد طريقة أخرى يمكن للموت أن يستدعيك من خلالها؟

عندما استيقظ في الفجر البارد وجد كل شيء قد تحول فوراً إلى رماد. تماماً كما لو أنك نبشت قبراً وأخرجت منه لوحات جدارية مصنوعة من الجص ومغرفة في القدم ثم عرضتها مباشرة إلى ضوء النهار.

تغير الجو فتوقف الهطول وتراجع البرد. وأخيراً بلغا الوادي الذي يمر فيه نهر في الأراضي المنخفضة. كل شيء كان ميتاً من جذوره في

هذا الوادي القاحل. كانا يدفعان العربية أمامهما وهما يسيران على زفت الطريق بين بيوت خشبية عالية الجدران ومغطاة بسقوف معدنية ملفوفة آلياً. في حقل على جانب الطريق يوجد مستودع لجذوع الأشجار المعدة للنشر، وضعت على سقفه المائل لوحة إعلانية مساحتها عشرة أقدام كتب عليها: شاهدوا مدينة الصخر.

حزام الأشجار الأخضر على طول الطريق أضحى صفوفاً من نبات العليق الشائك المتحجم. لا يوجد ما يشير إلى وجود حياة هنا. طلب من الولد أن يمسك بالمسدس وأبقاه على الطريق، بينما اعتلى هو درجات سلم قديم مصنوع من حجر كلسي. نزل ودلف عبر رواق إلى بيت مبني في مزرعة مظلالاً عينيه ومحدقا بالنوافذ. دخل إلى المطبخ؛ الأرض مغطاة بالقمامة تتوسطها مطبوعة إخبارية قديمة، وعلى الجدار أكواب شراب معلقة من مقابضها. دخل عبر الرواق ووقف عند باب غرفة الاستقبال. يوجد عند إحدى الزوايا أرغن عتيق وجهاز تلفاز. أما الأثاث فهو من النوع الرخيص ومعه غطاء من الحرير يدوي الصنع بلون الكرز. رقى الدرج ودلف إلى غرفة النوم. كل شيء مغطى بالرماد، وعلى عتبة النافذة يوجد كلب محنط ينظر إلى الحديقة. فتش الخزائن، تفحص الأسرة فوجد بطانيتين صوفيتين صالحتين للاستعمال ثم عاد أدراجه من حيث أتى. دخل حجرة المؤن فوجد فيها مرطبات معبأة منزلياً، تحتوي على حبات طماطم. أزاح الغبار عن أغطيتها وتفحصها، يبدو أن شخصاً ما قد مر بها وقرر أن لا رجاء منها. في نهاية الأمر قرر هو أيضاً أن يحذو حذوه. خرج من المنزل واضعاً على كتفيه البطانيتين واستأنفا مسيرهما على الطريق من جديد.

مرا بالقرب من متجر في ضواحي المدينة. يوجد عدد قليل من السيارات القديمة في موقف أضحى مستودعاً للقمامة المبعثرة. تركا العربة خارجاً ودخلا إلى متجر عبر جزر من الركام المبعثر والفضلات. وجدا في المستودع بعض حبات الفاصوليا وبعض حبات يوحى منظرها أنها كانت في يوم من الأيام مشمشاً وهي جافة إلى حد بعيد. تبعه الصبي، خرجا من الباب الخلفي وجازا مجازاً ضيقاً فوجدا بعض عربات التسوق؛ عربات صدئة أكل الدهر عليها وشرب. عادا إلى المستودع من جديد؛ بحثاً عن عربة أفضل دون جدوى. يوجد عند الباب ماكينتان للمشروبات الخفيفة، كانتا مقلوبتين على الأرض وأبوابهما مخلوطة بقضيب معدني. قطع من العملة المعدنية مبعثرة في كل مكان يغطيها الرماد. جلس على الأرض وبدأ يبحث مستخدماً يديه في كل مكان داخل الماكينتين. في الماكينة الثانية قبضت يده على أسطوانة معدنية باردة، أخرج يده ببطء فإذا هي علبة كوكا كولا.

- ما هذه يا أبي؟

- شراب لك، تفضل.

- ما هي؟

- اجلس. خذ.

حرر الحقيبة من ظهر الصبي، وضعها على الأرض خلفه، جعل ظفر إبهامه تحت السدادة وفتح العلبة. أدنى أنفه من الفقاعات الخفيفة التي تقور في العلبة ثم ناولها للصبي. تناولها الصبي وقال: فقاعات! إنها تقور.

قال الرجل: هي لك.

نظر إلى أبيه ثم أمال العلبة وشرب. جلس يتأمل وقال: إنها حقاً طيبة المذاق.

- نعم. إن مذاقها طيب.

- أريدك أن تشربها.

- هل بقي بها شيء؟

أخذ العلبة، رشف رشفة وأعادها للصبى، وقال: اشربها ودعنا نجلس هنا.

قال الصبى: أشربها؛ لأنى لن أتمكن من شرب علبة ثانية أبداً.

رد الأب: ليس أبداً ولكن لوقت طويل ربما.

قال الصبى: حسناً.

كانا في المدينة عند غروب اليوم اللاحق. قطع الإسفلت الكبيرة المتقلعة من تقاطعات الطرق السريعة حولت الأمكنة إلى خرائب يلغها الظلام. حمل المسدس، وضعه في حزامه، لبس سترة ذات قلنسوة. الموتى في كل مكان، لحومها متشقة على طول العظام، أربطتها جافة ومشدودة كأنها أسلاك، زاوية ومتغضنة. وجوه الجثث محروقة، أفواهها مفتوحة وأسنانها صفراء شاحبة. أصحاب الجثث كانوا جميعاً حفاة، حيث إن كل أحذيتهم كانت قد سرقت منذ أمد بعيد.

تابع مسيرهما وهويراقب الطريق خلفهما بشكل مستمر من خلال المرأة. الشيء الوحيد الذي كان يتحرك في الشوارع هو الرماد العاصف. اجتازا الجسر الإسمنتي العالي فوق النهر. يوجد تحتها قارب صغير نصفه غارق بالمياه الرمادية. عند النهر ثمة أكداس من الركام مغطاة بالرماد وقاتمة اللون.

في اليوم اللاحق، وعلى بضعة أميال جهة جنوب المدينة وصلا إلى منعطف في الطريق ضاعت معالمة من كثرة مخلفات الأشجار الميتة. وصلا عند نهاية المنعطف إلى بيت ضمن مزرعة؛ جداره من الحجر وسقفه جملوني الشكل وتخرج منه مداخن. توقف الرجل ودفع العربة باتجاه الطريق الواصل بين الشارع والبيت.

- ما هذا المكان يا أبي؟

- إنه البيت الذي ترعرعت فيه.

وقف الصبي ينظر إلى البيت، فرأى أن الألواح الخشبية التي تغطي المنزل من الخارج لجهة جدرانها السفلى قد اقتلعت لتكون حطباً للتدفئة. وقد ظهرت من خلفها العوارض الخشبية ومواد العزل. السقط العفن والمتسخ المتساقط من الرواق الخلفي تكدس على المصطبة الإسمنتية.

- هل سندخل؟

- لم لا؟

- أنا خائف.

- ألا تحب أن ترى المكان الذي نشأت فيه؟

- لا.

- حسناً.

- هل يحتمل وجود أحد هنا؟

- لا أظن.

- لنفترض أن ثمة أحدا هنا.

وقف ينظر من خلال الجملون إلى غرفته القديمة. نظر إلى الصبي،
وقال:

- هل تريد أن تنتظرنى هنا؟

- كلا. أنت دائماً تقول ذلك.

- أنا آسف.

- أعرف. لكنك تفعل.

خلعا عن ظهر يهما حقيبتهما، وضعاهما على المصطبة وشقا عبر
النفائيات مروراً بالرواق ثم دخلا إلى المطبخ. ظل الصبي ممسكاً بيد
أبيه. وجد كل شيء في الواقع قريباً جداً مما هو بداكرته. فالغرف فارغة.
في غرفة صغيرة متصلة بغرفة الطعام يوجد سرير طفل معدني قابل
للطي ولا فراش عليه. ها هو موقد الفحم الصغير المصنوع من الحديد
المسبوك. ألواح خشب الصنوبر التي كانت تغطي الجدران لم تعد موجودة،
وقد خلفت وراءها طبقة من الطلاء المتقشر. وقف هناك وتلمس بإبهامه
الخشب المطلي على الجدار والثقوب الصغيرة التي خلفتها المسامير التي
كانت تسمر الخشب والتي مضى على تثبيتها أربعون عاماً. عندما كنت
صبياً اعتدنا على الاحتفال بأعياد الميلاد في هذا المكان. استدار ونظر
إلى فناء المنزل المليء بالنفائيات فوقعت عيناه على زهرة ليلى مية، وعلى
سياج المزرعة المشجر الذي أمسى أثراً بعد عين. قال: في ليالي الشتاء
الباردة وعندما كان ينقطع التيار الكهربائي بسبب العواصف كنا نتعلق
أنا وأخواتي حول الموقد نكتب وظائفنا المدرسية. نظر الصبي إلى الرجل
وقال له: يجب أن نذهب يا أبي. قال الرجل: نعم لكنه لم يتحرك.

دخلنا إلى غرفة الطعام فوجدنا الآجر الحار يمحافظاً على لونه الأصفر الذي كان عليه يوم ركب في الموقد؛ لأن أمه لم تكن تتحمل رؤيته مسوداً. أما الأرض فقد تفضنت وتجدت بسبب مياه الأمطار. وفي غرفة المعيشة وجدنا عظام حيوان صغير منفصلة عن بعضها، وقد تجمعت في كومة. ربما كانت عظاماً لقطعة. وعند الباب يوجد بهلوان زجاجي. أحكم الصبي قبضة يده.

اعتلينا السلم، ثم انعطفا ونزلنا إلى الرواق فشاهدنا أكوازا صغيرة مصنوعة من الجص وموضوعة على الأرض، والشرائح الخشبية في السقف مكشوفة. وقف عند مدخل غرفته ورأى فجوة صغيرة تحت النتوء الذي يعتلي باب الغرفة. هنا كنت أنام، وكان سريري المعدني الصغير موضوعاً قبالة الجدار. في الليالي يحلم الأطفال آلاف الأحلام ينسجونها من الخيال، تكون العوالم فيها غنية أو مخيفة. هكذا تتبدى للحالمين. لكنها ليست أبداً تلك التي تتحقق في الواقع. اندفع جهة الخزانة، فتح بابها ولكنه لم يكن أكيدا من أنه سيجد الأشياء التي كانت له أيام طفولته. انسل ضوء النهار إلى الغرفة عبر السقف بارداً وضعيفاً. وكان الضوء رمادياً كئيباً، تماماً كما هو قلبه.

- علينا أن نرحل يا أبي، ألا نستطيع الذهاب؟

- بلى، هذا ممكن.

- إني خائف.

- أعرف ذلك. أنا أسف.

- أنا خائف حقاً.

- حسناً، ما كان ينبغي لنا أن نأتي.

بعد مضي ثلاث ليال كانا فوق أحد التلال الواقعة على سفوح الجبال الشرقية. أفاق وسط الظلام ليسمع شيئاً قادماً.

تربص مكانه ويدها على جانبيه. كانت الأرض تهتز وترتعد. شيء قادم نحوهما.

- قال الصبي: أبي! أبي!

- اسكت. ستكون الأمور على ما يرام.

- ما هذا يا أبي؟

اقترب الصوت منهما أكثر وأصبح مدوياً، كل شيء يرتجف، ثم مضى دونهما وكأنه صوت قطار يسير تحت الأرض فغاص في ظلمة الليل ورحل. التصق الصبي بالرجل وهو مجهش بالبكاء ووضع وجهه على صدره.

- حسناً. اهدأ.

- أنا خائف جداً.

- أعرف ذلك. ولكن انتهى الأمر.

- يا أبي، ما الذي حدث؟

- إنه كان زلزالاً. وانتهى الأمر الآن ونحن بخير. اصمت.

في تلك السنوات الأولى كانت الطرقات مأهولة بلاجئين ملتفين بأثوابهم يرتدون أقتعة ويضعون على عيونهم نظارات تقيهم من أشعة الشمس والغبار. يتجمعون على جانب الطريق، يفترشون الأرض على أسمال بالية مثلهم في ذلك مثل الملاحين المفلسين. عرباتهم مملأى بأكداس من الركام والألبسة البالية؛ كأنها نفايات فوق قبر قديم. كانوا يجرون عربات كبيرة

وأخرى صغيرة. عيونهم تلمع في جماجمهم. رجال متوقعون لا عقيدة لهم، كانوا يمشون في ممرات مرتفعة وطرق معبدة يتمايلون مترنحين كأنهم مهاجرون في بلاد محمولة. لقد انكشفت الأمور جميعها أخيراً، فالقضايا والمسائل المقلقة والقديمة تم حلها، فتبددت وألت إلى الظلام والعدم. آخر مثال لشيء يأخذ الطبقة معه، يطفئ النور ويرحل. «أبدأ» تعني وقتاً طويلاً. لكن الصبي يتوقف إدراكه عند حدود معرفته فـ «الأبد» بالنسبة له يعني لا يوجد وقت على الإطلاق.

جلس إلى نافذة رمادية في ظل كئيب في بيت مهجور يقرأ صحفاً قديمة، بينما كان الولد نائماً وقت الأصيل. الأخبار المثيرة اللافتة؛ الشؤون الطريفة لغرابتها عند الساعة الثامنة تغلق زهرة الربيع. راقب الصبي وهو نائم. هل تستطيع أن تفعلها عندما يحين الوقت؟ هل تستطيع؟

جلسا القرفصاء على ناصية الطريق وأكلا أرزا وفاصوليا باردين كانا قد طهماهما منذ عدة أيام. في ذلك الوقت كان الغضب قد بدأ يملكهما؛ فليس ثمة مكان خفي يضرمان به نارا، بحيث تتعذر رؤيتهما. ناما متلاصقين ملتفين بأغطية ننتة وسط برد قارس وظلام دامس. ضم الصبي إليه - إنه نحيل جداً - وقال: قلبي. قلبي... لكنه كان يدرك أنه لو كان أبا صالحا لكان الحال كما قالت: أي أن الصبي هو الحاجز الوحيد الذي يقف حائلا بينه وبين الموت. عندما شارفت السنة على نهايتها أمسى صعبا عليه تحديد الشهر الذي هو فيه. كان يعتقد أن لدهما من الزاد ما يكفيهما مدة عبورهما الجبال، ولكن لا سبيل لتأكيد ذلك. يبلغ طول الممر عند مستجمع مياه الأمطار خمسة آلاف قدم والمنطقة شديدة البرودة. قال: إن كل شيء يعتمد على الوصول إلى الشاطئ. مع ذلك، عندما أفاق

من نومه ليلاً بات يدرك أن كل ذلك كان هراء فارغاً عديم الجدوى. لقد توافرت لهما فرصة جيدة لكي يموتا في الجبال. وليس ثمة ما يمكن فعله أفضل من ذلك.

عبرا إحدى البلدات التي تحولت إلى خرائب وسلكا طريقا يتجه جنوبا. غابات محترقة على طول المنحدرات تمتد أميالا وبدأ انهيار الثلوج أسرع مما كان يتوقع. لا توجد آثار أقدام على الطرقات. لا أثر لوجود أحياء في أي مكان. الصخور الجلاميد الضخمة المنتشرة على السفوح الجرداء تشبه أشكال الدببة. وقف على جسر حجري، حيث كانت تتساقط المياه الموحلة في بركة ماء وتتحول شيئاً فشيئاً إلى رغوة رمادية اللون. حيث كان يراقب مرة أسماك السلمون المرقطة تتمايل في مجرى مائي وهي تتبع ظلالها الجميلة على الأحجار من تحتها.

تابعا المسير، كان الصبي يمشي مجهدا ومتكئاً على العربة، يدفعها إلى الأمام ببطء ويوجهها وجهة الطرق الجبلية كيفما تعرجت. كانت ما تزال ترى نيران مشتعلة في أعالي الجبال، وكانا يستطيعان رؤية الضياء المنبعثة منها ليلاً بلون برتقالي قائم داكن يخالطه سواد. كان البرد يزداد شدة، إلا أنهما أضرمنا نارا، حيث ضربا مخيمهما وظلت متقدمة طوال الليل قد خلفاها كذلك بعد أن استأنفا الترحال في الصباح. لف على أقدامهما قطعاً من الخيش وربطها بحبال. كانت سماكة الثلج لا تتعدى بضعة إنشات، وهو يعرف أنه لو زادت سماكة الثلج لتعين عليهما ترك العربة. أخيراً أضحي الاستمرار صعباً فتوقف طلباً للراحة. شق طريقه وسط الثلج الموحل بصعوبة، وقد أدار ظهره للصبي حيث وقف منحنيًا ويداه على ركبتيه. انتابته نوبة سعال ثم نهض فإذا عيناه دامعتان وإذا الثلج الرمادي قد

غشته بقعة دم. ضربا مخيمهما عند صخرة كبيرة مستديرة وجعل فوقهما غطاء ثبته على أعمدة. أوقد نارا، تحلقا حولها وهما يسحبان كومة كبيرة من الحطب لإبقاء النار مشتعلة طوال الليل.

جمعا بعضا من النباتات الميتة، جعلا منها حصيرا، مداها فوق الثلج، التفا بدثاريهما وهما ينظران إلى النار ويشربان ما تبقى من علبة الكوكا التي كانا قد فتحها لأسابيع خلت. عاود الثلج الهطول، رقاقات ناعمة تتهادى على الأرض؛ على أرض لونها الأسود. غالبه النعاس في جو من الدفء الرائع. كان ظل الصبي يتخطاه وهو يحمل ملء ذراعيه حطبا. شاهد الصبي وهو يحتجز رقاقات الثلج ويجمعها. إنها نار التين المقدسة. يتطاير الشرر من النار ثم يموت في الظلام الذي تخلت عنه النجوم. ليس كل الكلام الذي يموت كلاما محقا، وإن انحراف هذه الرحمة عن محورها لا يجعلها أقل واقعية.

استيقظ أول الصباح، وقد غدا فحما ثم مشى نحو الطريق. كل شيء كان مشتعلا كما لو أن الشمس المفقودة قد عاودت أخيرا. الثلج يتميل وهو برتقالي اللون. شق الحريق طريقه عبر سلسلة التلال والجبال التي تحيط بهما سريعا كأنه هشيم النار. السنة للهب تتماوج وتتوهج وتخرق العتمة في لوحة تشبه الأضواء الشمالية. مشى إلى الطريق وحين صار إليه توقف عليه زمنا طويلا في جو حافظ على برودته. إن اللون في تلك المدة قد أوقف في ذهنه ذاكرة كان قد طواها النسيان منذ زمن: املا كتابك، اتل نشيدك وتذكر.

أصبح البرد أكثر حدة. لم يتحرك شيء في ذاك العالم المرتفع. رائحة حريق الأشجار النفاذة تشبثت فوق الطريق. كان يدفع العربة عبر الثلوج

قاطعاً أميالاً قليلة كل يوم؛ وليس لديه فكرة تقديرية عن المسافة التي تفصل بينه، حيث هو وبين القمة. حيث إنهما لم يكونا يأكلان ما يسد الرمق بما فيه الكفاية، فقد لازمهما الجوع طوال الوقت.

وقف يستطلع الريف أمامه، دونهما نهر سحيق. ترى إلى أي مدى وصلنا؟ رأى في حلمه أنها كانت مريضة وأنه قد اعتنى بها. الحلم مذهب التضحية، لكن تفكيره نحا منحى آخر: هولم يعتن بها فماتت في مكان ما وحيدة وسط الظلام، وما من حلم آخر، وليس ثمة عالم يقظة مختلف وليس ثم حكاية أخرى.

لا يوجد أناس على هذه الطريق يحملون كلمة الله. لقد رحلوا وأخذوا العالم معهم وهجروني. سؤال: كيف تختلف كلمة «أبداً» الآن عما كانت عليه هذه الكلمة فيما مضى؟

تكاد الليالي الآن تكون أقل اسوداداً والقمر أخفاه الظلام. أما خلال ساعات النهار فترى الشمس الطريدة تطوف على الأرض كأنها حزينة تحمل مصباحاً.

أناس مرميون على قارعة الطريق فجراً، بين الموت والحياة والدخان يتصاعد من ثيابهم. مثلهم في ذلك مثل متعصب فاشل ينتحر. وآخرون يهرعون لنجدتهم. خلال عام شبت حرائق على قمم الجبال والتلال وعلت أصوات ترانيم مشوشة ومجنونة وتعالت صرخات الضحايا الهستيرية. هذا كان فجراً، أما في أثناء النهار فقد نصبت جثث القتلى على طول الطريق. ترى ماذا جنت أيديهم. فكر أن العقاب في تاريخ البشرية كان أشد وطأة من الجريمة، وقد منحه هذا التفكير شيئاً من الراحة.

أصبح الهواء أكثر رقة، فقدر أن القمة لم تعد بعيدة، ربما كان الوصول غداً؛ جاء الغد وانقضى. لم يعاود الثلج انهمازه، لكن الثلج المتكدس على الطريق بلغت سماكته ستة إنشات مما جعل من دفع العربة عملاً منهكاً مضمياً. فكر أنه ربما كان عليهما التخلي عن العربة، ولكن كم من الأشياء يمكنهما أن يحملها حملاً. توقف ونظر إلى المنحدرات القاحلة الجرداء، لقد طغى الرماد على الثلج حتى لم يعد يرى من اللون إلا أسوده.

عند كل منعطف كان يبدو أن المجاز بات قريباً جداً. إلى أن توقف ذات مساء ونظر حوله فتعرف المكان له. فك إبزيم سترته عند الرقبة، أسدل قننسوته ووقف منصتاً فإذا الريح تعصف بين الأغصان السوداء فيشتد هزيزها. ذلك هو موقف السيارات وهو شاغر. كان الصبي واقفاً إلى جانبه. حيث كان هو واقفاً مع أبيه منذ زمن بعيد. قال الولد:

- ما هذا يا أبي؟

- إنه الممر الجبلي. هذا هو.

في الصباح كان أحدهما شديد القرب من الآخر، إن الجو كان بارداً جداً. لقد بدأ الثلج يتساقط من جديد عند الظهر، فضرباً مخيماً في وقت مبكر وجلسا تحت الغطاء ينظران إلى الثلج وهو يسقط في النار. عند الصباح كانت قد تراكمت على الأرض طبقة جديدة من الثلج سماكتها عدة إنشات. ثم توقف الهطل فساد صمت رهيب لدرجة أنهما صارا يسمعان دقات قلوبهما. كُوم حطبا فوق الفحم ثم نفخ في النار كي تدب بها الحياة من جديد. خرج إلى العربة، فرز الأطعمة المعلبة التي كانت فيها، عاد وجلس قرب النار ثم أكلا آخر ما تبقى معهما من بسكويت، بالإضافة

إلى محتوى علبة سجق. لقد وجد في أحد جيوب حقيبته نصف عبوة من الكاكو. حَضَّر كوباً من الكاكو للصبّي وآخر له وذلك بصب المياه الحارة في الكوبين. وجلس ينفخ في الإطار.

- قال الصبي: لقد وعدت ألا تفعل ذلك يا أبي.

- ماذا.

- أنت تعلم ماذا يا أبي.

- صب الماء الحار في الوعاء الذي سخنه فيه، وأخذ كوب الصبي وصب منه شيئاً من الكاكو، ثم أعاده له.

- قال الصبي: علي أن أراقبك طيلة الوقت

- أعرف ذلك.

- إذا حنث بالوعود الصغيرة فإنك ستحنث بالكبيرة. أنت من قال لي ذلك.

- أعرف، لكنني لن أحنث بالوعود.

على مدى يوم شقا طريقهما بصعوبة نزولاً على المنحدر المقابل لمستجمع المياه والأمطار جهة الجنوب. وقت اشتداد هبوب الرياح لا تستطيع العربة أن تتقدم أبداً فيصبح لزاماً عليه أن يجرها بيده جراً من خلفه، وهو يجرجر نفسه بصعوبة بالغة حتى ليكاد يلامس الأرض. لو كانا في أي مكان آخر غير الجبال لعثرا على شيء يمكن استعماله بديلاً عن المزلجة. فلوحة معدنية قديمة كانت تنفع أو لوح تسقيف كان يفي بالغرض. نفذت المياه عبر اللفائف التي لفهاها على أقدامهما فتبللت وبردت وقد عانيا من البلل والبرد طيلة اليوم. اتكأ على العربة؛ كي يلتقط أنفاسه، بينما كان الصبي ينتظر. صدر صوت حاد من مكان ما من الجبل لشيء يتصدع أو

ينقلع، تبعه صوت آخر. قال: إنها شجرة تسقط. هذا كل ما في الأمر ولا ضير من ذلك. كان الصبي ينظر إلى الأشجار الميتة المنتشرة على جانب الطريق. قال الأب: حسناً، كل أشجار العالم سوف تسقط عاجلاً أم آجلاً لكنها لن تتساقط علينا.

- أنى لك أن تعلم؟

- أعرف وكفى.

ما انفكا يصلان إلى أماكن تعترض فيها الأشجار الطريق. الأمر الذي يفرض عليهما تفريغ العربة وحمل كل الأشياء من فوق جذوع الأشجار وإعادة تحميلها من جديد من الجهة البعيدة. في أثناء تفريغ العربة وجد الصبي ألعاباً كان قد نسي أنها بحوزته؛ احتفظ منها بسيارة صفراء اللون ووضعها على العربة ثم استأنفا المسير.

نصبا خيمتهما فوق قطعة أرض على الطرف الآخر من نهر صغير متجمد. كانت الرياح تهب على الرماد الذي يغطي الجليد. وكان الجليد متشحا باللون الأسود، فبدأ النهر كأنه مجاز بازلتي يشق طريقه بين الأشجار متلوياً. احتطب حطباً؛ كي يوقد ناراً، جمعاها من الجهة الشمالية للمنحدر، حيث كان هناك أقل رطوبة. دفعا أشجاراً كاملة وجرجراها إلى الخيمة. أضرمنا ناراً، بسطا قريباها الغطاء ونشرا ثيابهما المبللة على قوائم؛ كي تتبخر. ثم جلسا عاريين ملتفين بأغطية وقد جعل الرجل قدمي الصبي على معدته؛ كي يبعث فيهما الدفء.

استيقظ الصبي ليلاً وهو يئن فضمه الرجل إليه قائلاً له: اهدأ،

أنت بخير.

- حلمت حلماً مزعجاً.

- أعرف.

- هل أقص عليك قصة الحلم؟

- إن شئت فافعل.

- حلمت بذلك البطريق الذي سببت له الخوف والفرع. رأيتَه يتمايل في مشيته ويصفق بجناحيه، وكنا في ذلك البيت الذي اعتدنا العيش فيه؛ فجاء البطريق وكان قريباً من الزاوية. لم يحاول أحد ترويعه، لكنه كان خائفاً حقاً.

- حسناً، ماذا بعد؟

- كان أشد فزعاً في الحلم.

- أعرف، فالأحلام يمكن أن تكون مخيفة حقاً.

- لماذا حلمت هذا الحلم المخيف؟

- لا أعلم، ولكن أنت بخير الآن. سوف أضع بعض الحطب في النار. ولتعد أنت إلى النوم.

لم يجب الصبي بشيء. ثم قال: اللفاف لم يكن يدور.

استغرق المسير بين الثلوج وفوق الجليد أربعة أيام أخرى. لكن مع ذلك ظلت تظهر بقع من الثلج تغطي تشققات الأرض. وظل الطريق بارداً وأسود اللون، وذلك بفضل ماء الثلج الذائب والجاري فوق سطح الأرض. وصلا إلى تخوم ممر ضيق وعميق، فأطلا منه على نهر يغشاه الظلام، فوقفا منصتين.

جروف عالية وشديدة التحدر من الصخور على الجهة الأخرى من وادٍ ضيق متحدر الجنبات ويجري في أدناه نهر. وأشجار نخيلة متحمة مصطفة قرب بعضها على الجروف. صوت النهر يخبث ثم يرتفع. الريح الباردة تهب على المكان قادمة من الريف. أمضيا اليوم كله على الطريق إلى النهر.

وضعا العربة في مكان مخصص للوقوف وسارا عبر الغابات. صوت هدير خفيف قادم من جهة النهر. إنها شلالات مياه تتساقط من بين مجموعة من الصخور ترتفع عن الأرض ثمانين قدماً. تتساقط المياه يلها ضباب خفيف رمادي اللون، فتتجمع في حوض. استطاعا أن يشما رائحة المياه وأن يستشعرا البرد الذي تخلفه حتى قبل أن يصلا إليها.

مقعد مبلى قرب النهر، وقف ونظر إلى الصبي. صاح الصبي مبتهجاً: واو، ولم يستطع أن يتوقف عن النظر.

جلس وغرف غرفة من الأحجار، شمها وتركها تتساقط وهي متصلل. أحجار ناعمة، مستديرة، صقيلة ولامعة كأنها رخام معرق ومقلم. وثمة أحجار من نوع الكوارتز الجميلة اللامعة. مشى الصبي ثم جلس وغسل المياه الدكنا.

كانت شلالات المياه تتساقط في مركز الحوض تقريباً محدثة دوائر رمادية اللون على سطحها فقاعات. وقفا جنباً إلى جنب ينادي أحدهما الآخر بصوت عالٍ وسط جلبة المياه.

- هل المياه باردة؟

- بل قل متجمدة.

- هل تريد أن تنزل إلى المياه؟

- لست أدري.

- بل ستنزل بالتأكيد.

- حسناً.

- هيا.

فك سحاب سترته وتركها تسقط على الحصى. وقف الصبي ثم تعرياً واندفعاً نحو الماء. الصبي نحيل جداً وشاحب كالأشباح وهو يرتجف. غاص في الماء مبتدئاً بوضع رأسه أولاً، رفع رأسه كي يتنفس وهو يلهث. ثم استدار ووقف، وهو يضرب بكلتا يديه.

صاح الصبي: هل هي فوقى؟

- لا، تعال.

استدار وسبح متجهاً نحو مركز تساقط المياه، جاعلاً الماء يتساقط عليه. كان الصبي واقفاً وسط الحوض والمياه تغمره حتى خصره، وقد لف يديه حول كتفيه وأخذ يعلو ويهبط في الماء. عاد الرجل، أمسك الصبي، ضمه وجعله يطفو فوق الماء. وكان الصبي يلهث ويضرب الماء بكلتا يديه. قال الرجل: نعم، هذا جيد. إنك تحسن التصرف.

لبسا ثيابهما وهما يرتجفان برداً، ثم سلكا طريقاً وعرّة باتجاه النهر العالي. مشيا بمحاذاة الصخور إلى حيث استطاعا أن يريا عن بعد نهاية النهر. احتضن الرجل الصبي، إذ كان عليه أن يغامر بالوصول إلى آخر سلسلة الصخور. من هناك شاهد كيف أن النهر يندفع إلى نهاية الصخور

ثم يسقط عند الحافة متجهاً إلى الحوض في الأسفل. النهر كله. تشبث الصبي بذراع الرجل.

- قال: إنه بعيد حقاً.

- إنه بعيد جداً.

- هل تموت إذا سقطت؟

- سوف تصاب بجروح. إنها مسافة بعيدة.

- إنها مخيفة حقاً.

سارا عبر الغابة. بدأ الضوء يخفت ففتبعاً مسطحات الأرض المحاذية للنهر العالي، وذلك من خلال الأشجار الضخمة الميتة. الغابة الجنوبية الغنية التي كانت تحتضن ثمار البودوفلون وأعشاب الببسوة والجنسينغ. الأغصان الميتة لنبته الرودودندرون الوردية باتت متشابكة وملفتة ومتفحمة. لقد توقف. يوجد شيء تحت المهاد والرماد، أزاح عنه الرماد كي يتبينه، فإذا هو مجموعة نباتات تنمو وتعيش معا. كانت منكمشة، جافة ومتجعدة. أخذ واحدة، رفعها، شمها عض قطعة من طرفها فمضغها.

- ما هذا يا أبي؟

- إنه فطر يمكن أكله.

- ما الفطر؟

- إنه نوع من المشروم.

- هل تستطيع أن تأكله؟

- نعم، خذ قطعة.

– هل هو طيب المذاق؟

– خذ قطعة.

شم الصبي المشروم وعض قطعة منه وأخذ يمضغها. نظر إلى أبيه وقال: إنه طيب جداً.

اقتلعا الفطور من الأرض؛ أشياء صغيرة غريبة الشكل وضعها في ستره الصبي. عادا بسرعة نحو الطريق وسارا على الطريق نزولاً إلى حيث كانا قد وضعا العربة. نصبوا خيمتهما إلى جانب حوض النهر قريباً من مكان تساقط مياه الشلال. غسل المشروم من التراب والرماد ونقعاه في وعاء فيه ماء. في تلك الأثناء أوقد النار وكان قد حل الظلام. قطع قدراً من المشروم إلى شرائح، مستخدماً جذع شجرة للتقطيع عليها. وضع المشروم في مقلاة وجعل عليه شيئاً من الشحم أحضره من علبة فاصوليا. ثم وضع المقلاة على الفحم؛ بغية طهي الطعام على نار هادئة. راقبه الصبي وقال: إنه مكان جيد يا أبي.

أكلا حبات المشروم القليلة ممزوجة بشيء من الفاصوليا، شربا شايًا وكانت حلواهما إجاباً معبأً. أضرم النار عند تجويف بالصخر وجعل الغطاء خلفهما؛ كي يعكس الدفء عليهما. جلسا في ملاذهما وشرع الرجل يقص على الصبي القصص. حكايات قديمة عن الشجاعة والعدالة وفق ما كانت مسجلة في ذاكرته؛ إلى أن غلب الصبي النعاس فنام ملتقاً بالأغطية. مد النار بالحطب واستلقى وهو ينعم بالدفء والشبع منصتاً إلى صوت تساقط المياه الخفيض الساعي إليه من الخلف وسط ظلام غابة خلعت ملابسها الرثة.

خرج في الصباح وسلك دربا متجهاً جهة مجرى النهر. لقد كان الصبي على حق، إنه مكان رائع. أراد أن يتحرى بحثاً عن أثر يدل على زائرين آخرين، لكنه لم يعثر على شيء. وقف يشاهد النهر كيف ينعطف ثم يتوانى لدى وصوله إلى البحيرة فيتابع جريانه متلولباً ومحدثاً دوامات في الماء. ألقى حجراً أبيض في المياه بيد أن الحجر اختفى فجأة كأنه ابتلع ابتلاعاً. كان قد وقف مرة عند نهر مماثل فيرى لمعان سمك السلمون المرقط بلون الشاي، ولا يمكن أن يرى السمك إلا عندما يتقلب على جانبه ليأكل. أما الشمس المشرقة من الخلف فينعكس ضياؤها وسط الظلام وكأنها وميض السكاكين في كهف مظلم.

قال: لا نستطيع أن نبقي هنا، فالبرد يزداد حدة كل يوم وشلال المياه جذاب بالنسبة للآخرين كما هو بالنسبة لنا. ليس لنا أن نعلم من هم أولئك الآخرون، إننا لا نستطيع أن نسمعهم حينما يأتون. المكان هنا ليس آمناً.

- نستطيع البقاء يوماً آخر.

- المكان ليس آمناً.

- حسناً، ربما نتمكن من إيجاد مكان آخر قرب النهر.

- علينا أن نستمر بالتحرك؛ يجب أن نتابع المسير جهة الجنوب.

- أو ليست وجهة النهر جنوبية؟

- لا، إنها ليست كذلك.

- هل أستطيع أن أراها على الخريطة؟

- نعم، دعني أحضرها.

— خريطة طرق شركة النفط الممزقة والمبعثرة كانت فيما مضى جيدة ينتظمها سلك. أما الآن فقد أضحت أوراقاً متفرقة مرقمة في زواياها بغية جمعها. فتش بين الأوراق وأخرج منها تلك التي تحدد الموقع.

سوف نجتاز جسراً هنا، يبدو أن المسافة تبلغ ثمانية أميال أو نحوها. هذا هو النهر؛ إنه يتجه شرقاً. سوف نسلك هذا الطريق من هنا على طول المنحدرات الشرقية للجبال. تلك هي طرقاتنا التي خطت بلون أسود على الخريطة؛ إنها طرق الولايات.

— لماذا هي طرق الولايات؟

— لأن هذه الطرق تتبع الولايات؛ ما جرت العادة على تسميتها ولايات.

— لكن لم يبقَ أي من الولايات الآن؟

— لا، لم يبق.

— ماذا حل بها؟

— لا أدري على وجه الدقة. هذا سؤال جيد.

— لكن الطرق ما تزال حيث كانت.

— نعم، ولكن مدة من الزمن.

— كم تدوم المدة؟

— لا أعلم لي، ربما مدة. لا يوجد شيء يقتلعهم؛ لذلك ربما تبقى هذه

الطرق بحالة جيدة مدة.

— لكن لن تسيّر عليها سيارات أو عربات نقل.

— لا.

- حسناً.

- هل أنت على استعداد.

- هز الصبي رأسه. حك أنفه بكمه، علق حقيبته الصغيرة على كتفيه. جمع

الرجل أجزاء الخريطة الممزقة، طواها، ثم نهض فتبعه الصبي. غادرا

المكان، سارا عبر الأشجار الرمادية الشاحبة، متجهين إلى الطريق.

عندما دخل الجسر مدى الرؤية شاهدوا فوقه عربة مقطورة إلى تراكتور

ومتوقفة على عرض الجسر وهي محشورة وعالقة ومحجوزة بالسياج.

انهمر المطر من جديد فتوقفا حيث هما بينما بدأت الأمطار تربت برفق

على الغطاء. كان ينظر إلى ما حوله من تحت الغطاء الأزرق المعتم.

- قال الصبي: هل نستطيع أن نبقى حوله؟

- لا أعتقد ذلك، ربما من الممكن أن نكون تحته. يحتمل أن نكون مضطرين

لتفريغ العربة.

الجسر ممتد فوق منحدرات النهر، حيث تتدفق المياه غزيرة وتتحدرد

بسرعة. عندما وصلا إلى منعطف الطريق باتت أصوات خريير المياه

مسموعة. هبت عليهما الريح عبر الممر الجبلي الضيق، فأخذا يدرأ أنها

عنهما بشد الغطاء فوقهما من زواياه، وفي الوقت عينه كانا يدفعان العربة

أمامهما فوق الجسر. صارت رؤية النهر ممكنة عبر الحديد المشغول.

يوجد تحت المنحدرات جسر لسكك حديدية قائم على دعائمات من الحجر

الكلسي. أحجار الدعائم كانت ملطخة بالكامل وعلى امتداد الجسر،

ابتداء من مساقط المياه العالية. أما مجرى النهر عند المنعطف فقد كان

مسدوداً بكم هائل من الأغصان الميتة وجذوع الأشجار المتفحمة التي

حملتها وركمتها الرياح.

يبدو أن الشاحنة موجودة على الجسر منذ سنين. عجلاتها مفرغة من الهواء ومتآكلة. مقدمة التراكاتور مثبتة بإحكام على سياج الجسر — العربة المقطورة مفصولة من المقدمة ومثبتة على الجزء المغطى من القاطرة. أما مؤخرة العربة المقطورة فهي متحررة من محورها ومتجهة نحو الجانب الآخر من الجسر وقد برز جزء منها بطول عدة أقدام خارج الجسر وأصبح معلقاً في الهواء فوق مجرى النهر. دفع العربة كي يمررها من تحت المقطورة فعلق مقبضها أسفل السيارة. كان عليهما أن يزلقاهما من الجوانب. تركها تحت المطر ووضع الغطاء عليها ومشيا مشية البطة تحت السيارة. ترك الصبي جاثياً تحتها في مكان جاف، بينما خرج هو واعتلى خزان البنزين. مسح زجاج الكبينة مزيلا عنه الماء وأنعم النظر من خلاله. نزل من مكانه، عاود الصعود، فتح الباب، دخل إلى الكبينة وأغلق الباب خلفه. جلس ينظر حوله. وجار كلب عتيق خلف المقاعد، أوراق مبعثرة على الأرض، علبة القفازات كانت مفتوحة وفارغة.

أخذ يبحث بين المقاعد وجد وسادة رطبة جداً فوق سرير مبيت وثلاجة صغيرة، بابها مفتوح إضافة إلى طاولة قابلة للطوي، ومجلات قديمة على الأرض. فتح الأدراج الخشبية فوجدها فارغة. يوجد أدراج تحت السرير فتحها وفتش فيها فلم يعثر إلا على نفايات. عاد إلى مقدمة الكبينة من جديد وجلس على مقعد السائق وأخذ ينظر إلى النهر عبر الزجاج ومن خلال خيوط رفيعة من مياه الأمطار تسيل عليه. المطر يربت برفق على السطح المعدني لكبينة السيارة. والظلام بهبط ببطيئاً فيغطي ويحجب كل الأشياء. باتا ليلتهما تلك بالشاحنة، وفي الصباح توقف هطل الأمطار ففرغا العربة ونقلوا ما كان فيها من تحت الشاحنة إلى الجهة الأخرى ثم وضعوا

الأشياء على العربة. على عمق نحو مئة قدم تحت الجسر يوجد بقايا عجلات سيارات متفحمة. نظر إلى الشاحنة وقال: ماذا يمكن أن يكون في داخلها؟
- لا أعرف.

- لم نكن أول القادمين إلى هذا المكان، لذلك من المحتمل أنها لا تحتوي شيئاً.

- ألا توجد طريقة للدخول إليها؟

وضع أذنه على جانب الشاحنة المغلقة ثم ضرب اللوح المعدني بباطن كفه ضربة قوية أحدثت صوتاً يوحي بأنها فارغة. قال الصبي: بإمكانك أن تلج إليها من الأعلى، لا بد أن أحدهم مر بها وفتح فيها فجوة.

- ماذا يمكن أن يكونوا قد استعملوا ليفتحوا الفجوة؟

- لا بد أنهم وجدوا شيئاً لهذا الغرض.

خلع عنه سترته، وضعها فوق العربة، ثم ارتقى رفر الشاحنة ومنه صعد إلى الأعلى، تسلق بجهد ومشقة حتى بلغ ظهر الكبينة. وقف، استدار ثم نظر إلى النهر في القاع، سرى البرد من السقف إلى قدميه. نظر إلى الصبي فبدأ قلقاً. استدار وأمسك طرف الشاحنة المغلقة بإحكام بكلتا يديه وسحب نفسه ببطء إلى أعلى. بذل قصارى جهده لكنه لم يستطع أن يرفع كامل جسده. رفع إحدى رجليه فوق الحافة وعلقها، أخذ قسطاً من الراحة ثم سحب نفسه عالياً واستدار فجلس منتصباً.

كان ضوء السماء كافياً كي يرى بعضاً من سقف الشاحنة، مشى جاثياً على ركبتيه. وجد الغطاء منزوعاً، انبعثت من الداخل رائحة خشب رطب وبتن. إنه كان قد خبر هذه الرائحة العفنة قبلاً. لديه مجلة في جيبه،

أخرجها ومزق منها بعض الأوراق وجعلها على شكل لفافة، أخرج قداحتة، أشعل اللفافة ورمها في العتمة. اندفع من الداخل دخان يحدث شعوراً بالإغماء، بدد الدخان ونظر من خلال الفتحة إلى داخل الشاحنة. بدت له بفعل النار الصغيرة المشتعلة داخلها وكأنها أكثر عمقا مما هي عليه. حجب عن وجهه وهج النار، عندها تمكن من رؤية قاع الشاحنة فإذا هو أمام جثث بشرية ممتدة باسطة أيديها وأرجلها بأوضاع مختلفة. جثث جافة منكمشة عليها ثياب متعفنة. الأوراق التي اشتعلت خبت نارها وقبل أن تموت تشكلت زهرة بل قل وردة تذوب، ثم أطبق الظلام من جديد.

خيما تلك الليلة في الغابة فوق جبل مطل على سهول شاسعة ممتدة على السفوح المتجهة جنوباً. أضرم ناراً في ظل صخرة؛ كي يعد طعاماً عليها، ثم أكلا ما تبقى عندهما من حبات المشروم والسبانخ المعلبة. هبت عاصفة عليهما ليلاً من أعالي الجبال المحيطة بهما، محدثة دويماً كأنه صوت المدافع وأصواتاً لأشياء تتصدع. كان البرق بين حين وآخر يطلق أنواراً تبهر الأبصار فيحيط اللثام عن عالم رمادي مقفر.

تشبث الصبي به، كان كل شيء قد انقضى وبقي صوت خفيف لبرد يتساقط، ثم انهمر مطر بارد ببطء.

عندما استيقظ من جديد كان الظلام ما يزال مخيماً، لكن المطر توقف. هناك في الوادي بزغ ضوء مغشى بالدخان. نهض وسار في المرتفعات. الدخان المتصاعد من النيران انتشر مسافة عدة أميال. جلس ينظر، رائحة الدخان تعشش في المكان. بلل إصبعه وعرضه للهواء. عندما نهض وقفل عائداً كان الغطاء مضاء من الداخل وكان الصبي قد استيقظ،

فبدا ظلّه الأزرق الضئيل في ظل الضوء الباهت وكأنه ذروة مغامرة جديدة في آخر أصقاع الأرض. أمرٌ سمّه ما تشاء لكنه غير قابل للتفسير والتعليل. وهكذا كان.

استأنفا الترحال في اليوم اللاحق وسط أجواء سديمية ضبابية يغشاها دخان منبعث من حريق الغابات. يصعد الدخان من الأرض كأنه الضباب. أما الأشجار النحيلة المنقحة المنتشرة على سفوح الجبال ومنحدراتها فكأنها أعمدة علقت عليها قناديل وثنية. في وقت متأخر من النهار وصلا إلى مكان على الطريق كانت قد أتت عليه النار وعبرت. عند مرورهما كانت الحصباء ما تزال دافئة فسرت الحرارة إلى أقدامهما ثم ما لبثت أن اعتدلت. الصمغ الأسود الحار كان يتعشق بأحذيتهما، يتمطط خيوطا رقيقة من حذاءيهما كلما وضعاهما على الأرض ورفعاهما عنها. توقفا وقال: علينا أن ننتظر.

عادة من حيث أتيا وخيما فوق الطريق. عندما استأنفا سيرهما صباحا كانت حصباء الطريق قد بردت. شاهدا على جانب الطريق آثار أقدام مطبوعة على القار قد ظهرت فجأة. جلس وتفحصها. لا بد أن شخصا ما قد خرج من الغابة ليلا وتابع سيره على الطريق.

قال الصبي: ترى من هو؟

— لا أعرف من يكون، أي كان. فاجأه على حين غرة وهو يترنح متثاقلا فيجر إحدى رجليه ببطء ثم يقف من وقت لآخر فينحني وينهض ليمشي من جديد.

— ما الذي علينا فعله يا أبي؟

- لا بأس علينا. دعنا نتبعه ونشاهد فقط.

قال الصبي: ألق نظرة.

- نعم، ألق نظرة.

تبعاه مسافة طويلة، لكنهما خسرا جراء ذلك يوماً. أخيراً جلس على الطريق ولم ينهض بعدها. تعلق الصبي بمعطف أبيه. لم ينبس أحدهما ببنت شفة. بدا الشخص محروقاً كما الريف من حوله، ملابسه محروقة سوداء اللون. إحدى عينيه محروقة ومغمضة. شعره المستعار يعج بالقمل، والرماد يغطي جمجمته المتفحمة. طأطأ رأسه بينما كانا يمران به وكأنه قد ارتكب خطأ. حذاؤه مربوط بسلك ومغطى بقطران الطريق. جلس حيث هو صامتاً ومحنياً في أسمال بالية. ظل الصبي ملتفتاً إلى الوراء ينظر إليه، وهمس قائلاً:

- ما خطب هذا الرجل يا أبي؟

- أصابته الصاعقة.

- أفلا نستطيع مد يد العون له يا أبي؟

- كلا، لا نستطيع مساعدته.

ظل الصبي يسحب أباه من معطفه إلى الوراء.

- كف عن ذلك.

- أو لا نستطيع مساعدته يا أبي؟

- كلا لا نستطيع مساعدته. ليس بوسعنا أن نفعل شيئاً.

واظبا على المسير، بينما الطفل يبكي وينظر إلى الوراء. عندما وصلا إلى أسفل الهضبة توقف الرجل ونظر إلى الطريق خلفه. كان الرجل قد خر على الأرض ولم يعد ممكناً للمرء أن يتبينه من تلك المسافة. قال الرجل: أنا آسف لا نستطيع أن نصلح من أمره شيئاً. أنت تدرك ما أقول، أليس كذلك؟

وقف الصبي مطرقاً ثم واصلا سيرهما ولم يعد الصبي ينظر إلى الوراء. تلك الليلة أنار ضوء كبريتي باهت من مكان الحرائق. المياه الراكدة المتجمعة من الأمطار والثلوج الذائبة على جانب الطريق اصطبغت بلون أسود. الجبال محجوبة عن الرؤية. اجتازا جسراً إسمنتياً فوق نهر اختلطت مياهه بالطين والرماد، فتباطأ جريانه. قطع من الأشجار احترقت حتى تقحمت. أخيراً توقفا ثم استدارا وخيما تحت الجسر.

بقي محتفظاً بمحفظته في جيبه إلى أن أبلت قماش البنطال فأحدثت ثقباً فيه. ذات يوم أخرجها من جيبه بعد أن جلس بجانب الطريق وأخذ يدقق بمحتوياتها: بعض النقود، بطاقات ائتمان، إجازة قيادة سيارة، صورة لزوجته. بسط كل محتويات المحفظة على الطريق وانتصب واقفا ليواصل المسير.

جلس صباحاً ينظر إلى أعلى، رأى تحت الجسر أعشاشاً بنتها السنونوات بالطين وتوزعت على الزوايا. نظر إلى الصبي. أنحى ببصره عنه وجلس يحدق بالنهر. لم يكن بوسعنا فعل شيء. لم يجب.

- إنه ماضٍ إلى حتفه. لا نستطيع أن نشركه بما معنا. إن فعلت نمت معه.
- أعرف.

- إذا متى ستعود لمحدثي من جديد؟

- ها أنذا أتكلم الآن.

- أمتأكد أنت؟

- نعم.

- حسناً.

- حسناً.

وقفا على ضفة النهر الأخرى يدعوانه. المخلوقات المترنحة تهيم على وجهها في الأراضي المقفرة الخربة المدمرة، مترهلة بأثوابها الرثة. تشق طريقها بصعوبة فوق الأرض الجافة لبحر جامد، حيث تضطجع مخلبة كسيرة كأنها صحن سقط على الأرض. مجازات عبر نار متوحشة فوق رمال متخثرة. أشكال ضاعت معالمها في المدى. استيقظ واضطجع في الظلام.

توقف التوقيت عند الساعة 1.17. انقطع الضوء زمناً طويلاً قبل أن تتوالى سلسلة من الهزات الخفيفة. استيقظ ومشى نحو النافذة. قالت: ما هذا؟ لم يجب. دخل إلى الحمام وألقى المفتاح الكهربائي. لكن التيار كان قد انقطع فعلاً. توردت وردة باهتة في زجاج النافذة. جثا على إحدى ركبتيه، حرك الرافعة وفتح الحنفيتين حتى نهايتهما فوق حوض الاستحمام. كانت واقفة عند المدخل بثياب النوم ممسكة بعضادة الباب بقوة بيد وتهز بطنها باليد الأخرى. قالت:

- ما هذا؟ ما الذي يحدث؟

- لست أدري.

- لماذا تستحم؟

- إنني لا أفعل ذلك.

حدث مرة منذ سنوات بعيدة أن استيقظ وهو في غابة قاحلة، فجلس ينصت إلى أسراب من الطيور القواطع المهاجرة وهي تحلق فوقه في لجة الظلام الرهيب. طيور تقطع أميالاً في السماء تدور حول الأرض في رحلة فارغة لا معنى لها كأنها حشرات تندفع بأعداد كبيرة على حافة زبدية. تمنى لها رحلة موقفة إلى أن رحلت، ولم يعد يسمع أصواتها بعد ذلك.

لديه ورق لعب وجده في درج مكتب أحد البيوت. الورق مهترئ وينقصه ورقة الزوج الإسباني. مع ذلك كانا يلعبان الورق من حين لآخر على ضوء النار وهما ملتحفان بالبطانيات. حاول أن يتذكر قواعد ألعاب الطفولة، لعبة الخادمة العجوز أو لعبة الهويست وهما ضربان من ضروب ألعاب الورق. بيد أنه كان على يقين أنه تذكر الألعاب على نحو مغلوط فيه، فاخترع ألعاباً جديدة وابتدع لها أسماء مثل عصا الإشارة أو كات بارف. كان الصبي يسأله أحياناً أسئلة عن العالم الذي لا يعرف عنه شيئاً حتى في ذاكرته. كان يجهد فكره في كيفية الإجابة عن أسئلته، فليس ثمة ماضٍ ما الذي ترغب فيه؟ إلا أنه توقف عن اختراع الأجوبة، لأن أياً منها لم يكن صحيحاً ولأن الحديث عنها جعله يشعر بالاستياء. غير أن للصبي مخيلته الخاصة به عن الحال والهيئة التي يمكن أن تكون عليها الأشياء في الجنوب وعن الأطفال الآخرين. حاول أن يطلق العنان لخياله؛ كي يبحر في هذه الأشياء، ولكن قلبه لم يكن معلقاً بها. لمن سيكون؟

لا جداول لأعمال يجب تنفيذها. اليوم ينطوي على عناية إلهية كامنة في ذاته. الساعة. ليس ثمة زمن قادم؛ هذه الساعة هي الزمن القادم. كل

الأمر والأشياء هي من الرحمة والجمال، بحيث يجعل المرء قلبه مرتعاً لهما، أما العناية الإلهية العامة فلا تتجلى إلا في الألم، ومولد الأشياء قائم بين الحزن والرماد، همس متوجهاً إلى الصبي النائم: إذا أنت لي. فكر في الصورة التي تركها على الطريق وأنه كان عليه أن يحاول الاحتفاظ بها في حياتهما بشكل من الأشكال، لكنه لا يعرف كيف يكون ذلك. أيقظته نوبة سعال فذهب بعيداً؛ كي لا يوقظ الصبي. مشى في الظلام ملتحفاً ببطانيته ومحاذياً لجدار حجري. جثا على ركبتيه وسط الظلام كما يفعل النادم التائب وأخذ يسعل حتى أحس بطعم الدم في فمه ونطق باسمها بصوت عالٍ. ظن أنه ربما يكون قد ذكره في أثناء نومه. عندما رجع كان الصبي قد أفاق. قال له: أنا أسف.

- حسناً.

- اخلد إلى النوم.

- أتمنى لو كنت مع أمي.

- لم يجب.

جلس بجانب الصبي النحيل الضئيل الملتحف بالأغطية والبطانيات، ثم قال بعد برهة: تعني أنك تتمنى لو كنت ميتاً.

- نعم.

- لا ينبغي لك قول هذا.

- لكنني أفعل.

- لا تقلها. فبئس القول هي.

- لا أستطيع تجنب ذلك.

- أعرّف، لكن يجب عليك أن تتحاشى قولها.

- لكن، كيف؟

- لا علم لي.

قال لها عبر ضوء المصباح: إننا أحياء.

قالت: أحياء؟!

قال: نعم.

أسألك باسم الإله أن تخبرني عن أي شيء تتحدث؟

نحن لسنا بأحياء. بل نحن أموات يعيشون في فيلم رعب.

- إنني أتوسل إليك.

- لا يعنيني، ولا أبالي حتى بيكائك. كل هذا لا يعني لي شيئاً.

- أرجوك.

- كف عن هذا.

- إنني أتوسل إليك، سوف أفعل أي شيء تريدينه.

- مثل ماذا؟ كان علي أن أفعل ذلك منذ أمد بعيد. عندما كان المسدس

يحتوي على ثلاث طلقات بدلا من اثنتين؛ في ذلك الوقت كنت أحمق.

لقد كنا قادرين على تجنب كل ذلك. لم أسع للوصول إلى ما أنا فيه، بل

أكرهت عليه إكراها. أما الآن فلقد أسقط في يدي. فكرت في الامتناع

عن إخبارك، ربما كان ذلك أفضل.

- لديك طلقتان وماذا بعد؟ أنت أن تؤمن لنا الحماية. تقول: إنك على

استعداد للموت في سبيلنا، لكن ما نفع ذلك؟ كنت سأخذه معي لو لم

يكن كرمي لك. أنت تعلم أنني كنت سأفعل. إنه الصواب عينه.

- أنت تهذين.

- لا، بل أنا أقول الحقيقة. سوف يمسون بنا إن عاجلاً أو آجلاً، وسوف يقتلوننا. سيغتصبونني ويغتصبونه ثم يقتلوننا ويأكلوننا. أما أنت فلم تتصدّ لكل هذا، لا بل ستجلس منتظراً حدوثه. لكني لا أستطيع، لا أقدر على ذلك. جلست تدخن سيجارة طويلة من الكرمة الجافة كما لو أنها ضرب من سيجار الشيروت النادر. أمسكت السيجارة بأناقة بإحدى يديها ووضعت الأخرى على ركبتيها ورفعتها قليلاً. نظرت إليه في ظل ضوء لهب ضعيف وقالت له: لقد اعتدنا أن نتحدث عن الموت، لم نعد نفعل ذلك. لماذا؟

- لا أعرف.

- ذلك لأنه موجود هنا. لم يبقَ شيء نتحدث عنه.

- لن أدعك.

- لا يعني هذا. إنه عديم المعنى. يمكنك أن تعدني امرأة فاسقة قادرة وخائنة إن شئت. لقد اتخذت لنفسى حبيباً جديداً يستطيع أن يمنحني ما عجزت عنه.

- الموت ليس حبيباً.

- أوه، بل هو حبيب.

- أرجوك لا تفعلي.

- إنني أسفة.

- لا أستطيع أن أتدبر الأمر بمفردي.

- فلا تفعل إذاً. أنا لا أستطيع مساعدتك. يقال: إن النساء يحملن بالخطر المحقق بمن هم في رعايتهن، بينما الرجال يحملون بالخطر النازل بهم أنفسهم. أما أنا فلا أحلم أبداً. أو تقول: إنك لا تستطيع؟ لا تفعل إذاً، هذا كل ما في الأمر. أما أنا فقد أرهقني قلبي الفاسق وأهلكني، وأنا على هذه الحال منذ أمد طويل. أنت تتحدث عن اتخاذ موقف، لكن ليس ثمة موقف ليتخذ. لقد انضطر قلبي ليلة ولادته فلا تلتمس الحزن الآن لقد جفت ينابيعه. ربما تفلح أنت على هذا الصعيد، إنني أشك في ذلك؛ لكن من يدري. ما أستطيع أن أوكدك لك هو أنك لن تستطيع أن تحيا من أجل ذاتك. لم أذهب بفكري بعيداً إلى هذا الحد، لكن خير للإنسان الذي ليس لديه من يعيش من أجله أن يصنع لنفسه شبحاً وينفخ فيه الروح ثم يلاطفه ويتودد إليه بعبارات الحب. قدم له كل ما لديك من فئات الوهم والخيال وادراً عنه الأذى بجسدك. أما أنا، فألمي الوحيد المعقود على الموت الخالد، وإنني لأتوسل إليه من أعماق قلبي.

لم يجب.

- لم تجادلني في الأمر فليس لديك ما تقوله.

- هل ستقولين له وداعاً؟

- كلا، لن أفعل.

- فقط انتظري حتى الصباح، أرجوك.

- علي أن أرحل.

عندها كانت قد وقفت.

- أسألك يا امرأة، ماذا سأقول له؟

- لا أستطيع مساعدتك .

- إلى أين أنت ذاهبة؟ لا تستطيعين أن تدركي ذلك .

- ليس علي أن أفعل .

وقف وقال لها: إنني أرجوك .

- كلا ، لن أفعل فأنا لا أستطيع .

رحلت وكان برودها آخر هداياها . سوف تتعلها بواسطة رقاقة من زجاج بركاني أسود . هونفسه من علمها . إنه أكثر مضاء وحدة من الفولاذ ولا سماكة له مثل الذرة . ولقد كانت على حق فليس ثمة موضوع للجدال . الليالي المئة التي أطلالا السهر فيها يتناظران وهما يسوقان الحجج المؤيدة والأخرى المعارضة عن تدمير الذات بكل جدية الفلاسفة المصفيدين الموثقين إلى جدار مستشفى المجانين . في الصباح لم ينطق الصبي بكلمة . وبعد أن حزما أمتعتهما وأصبحا جاهزين للمسير التفت الصبي ونظر إلى المكان الذي خيما فيه وقال: لقد رحلت . ألم ترحل؟ وقال: نعم ، لقد رحلت .

كثير التروي دائما ، لا يكاد يدهشه ورود أكثر الأحداث غرائبية . تطورت الخليقة على نحو تام لتجابه موتها . جلسا على الشرفة بثويهما وتناولوا عشاء منتصف الليل على ضوء قنديل وهما يشاهدان المدن البعيدة تحترق . بعد ليالٍ قليلة وضعت وليدها فوق سريرهما على ضوء مصباح يعمل على البطارية . قفازان معدان للاستعمال في غسل الصحون . الظهور غير المتوقع لمقدمة الرأس الصغير . رأس صغير يكسوه شعر أسود سبط وملطخ بالدم . العقي الزنخ الخارج من الرحم مع المولود . البرد متجمهر

خلف النافذة مباشرة والحرائق تملأ الأفق. صراخها لم يعن له شيئاً. رفع الجسد الأحمر المهزول الغض عاليا وعاريا وقص الحبل بمقص مطبخ ثم لف ابنه بمنشفة.

- هل عندك أصدقاء؟

- نعم، لي أصدقاء.

- أكثرهم هم؟

- نعم.

- هل تتذكرهم؟

- نعم، أتذكرهم.

- ماذا حصل لهم؟

- ماتوا.

- جميعهم؟

- نعم، كلهم.

- هل تفتقدهم؟

- نعم. أفل.

- إلى أين نحن ذاهبان؟

- نحن متجهان جنوبا.

- حسنا.

أمضيا اليوم كله على الطريق الأسود الطويل. توقفنا بعد الظهر وأكلا شيئاً قليلاً من الطعام المحدود الذي بقي معهما. أخذ الصبي سيارته

الشاحنة الدمية من العربة وفتح طرقات بين الرماد بواسطة عصا. سارت السيارة بخط مستقيم إلى الأمام متباطئة ورافقاها الصبي بإصدار أصوات من فمه تشبه ضجيج السيارة. كان النهار دافئا بدرجة مرضية، فناما على أوراق النبات متوسدين حقيبتيهما.

شيء ما أيقظه، انقلب على جنبه وهجع منصتا. رفع رأسه ببطء والمسدس بيده. نظر إلى الصبي ثم التفت إلى الطريق فإذا أولهم يصبح في مرمى نظره. همس: يا إلهي، هرع إلى الصبي وهزه مبقيا عينيه على الطريق. قدموا يجرون أقدامهم وسط الرماد وهم يديرون رؤوسهم المغطاة بقلنسوات ذات اليمين وذات الشمال، وعلى وجوههم أقنعة. أدهم على ثيابه علامة الخطر. جميعهم ملطخون وقذرون. يجرجرون أنفسهم مترهلين وفي أيديهم عصي ووصلات أنابيب. ثم سمع صوتا قادما من خلفهم يشبه صوت سيارة شاحنة تعمل على الديزل. همس: بسرعة.. بسرعة. دفع بالمسدس تحت حزامه على عجل. أمسك بيد الصبي، دفع العربة، وضعها بين الأشجار وأخفاها بحيث تتعذر رؤيتها بسهولة. تجمد الصبي خوفا، شده إليه وقال: لا بأس علينا أن نركض. لا تنظر إلى الوراء، هيا. وضع حقيبتيهما فوق كتفه واندفعا بسرعة فوق العشب اليابس والأرض المتصدعة. كان الصبي مرتاعا. همس: اركض.. اركض. نظر إلى الخلف، سمع ضجيج السيارة الشاحنة ورأها. كان الرجال واقفين ينظرون حولهم. سقط الصبي فسحبه وقال: سنكون بخير، هيا.

لاحظ وجود ثغرة بين الأشجار، فظن أنها خندق أو مجاز. مروا فوق الأعشاب عبر طريق قديمة. تبدو أجزاء من الطريق المتصدعة المرصوفة بالحصى من خلال الغبار الذي ينبعث من الرماد. أخفض الصبي وجثيا

تحت منحدر منصتين وقد كتما نفسيهما. تمكنا من سماع صوت محرك الديزل على الطريق. عندما نهض ليلقي نظرة لم يستطع أن يرى إاقمة السيارة الشاحنة وهي تتحرك على طول الطريق، والرجال واقفون على متنها وبعضهم يحملون بناذق.

مرت السيارة ونفثت دخان الديزل الأسود فأخذ يلف في الغابة. تغير صوت المحرك؛ خفت صوته وارتفع ثم توقف.

هبط بجسده واضعا يده فوق رأسه وقال: يا إلهي. سمعا أصوات حركة وقععة، ثم توقفت الأصوات وساد الصمت. كان المسدس في يده، ولم يستطع أن يتذكر كيف انتقل المسدس من مكانه تحت الحزام إلى يده. استطاعا الاستماع إلى الرجال وهم يتحدثون، ثم من خلال الأصوات عرفا أنهم ينزعون عنهم قلسواتهم. جلس لأفأ ذراعه حول الصبي وقال له: اصمت.. اصمت. ما هي إابرهة حتى سمعا صوت السيارة الشاحنة وقد بدأ محركها بالدوران؛ فقعقت وصرّت صريرا كأنها سفينة. ليس لديهم من وسيلة لجعل محركها يدور إلا أن يدفعوها دفعا إلا أنها لم تحظ بالسرعة الكافية عند ذلك المنحدر. بعد بضع دقائق حشرجت ورجت ثم توقفت من جديد. رفع رأسه ليلقي نظرة، فإذا بأحدهم قادم بين الأعشاب وقد فك حزام بنطاله ولا يبعد عنهما سوى عشرين قدما. كلاهما تجمدا في مكانيهما.

لقم المسدس ووجهه إلى الرجل، وقف مخرجا إحدى يديه واضعا إياها إلى جانبه. كان قناعه المطلي المتجدد والقذر ينتفخ وينقبض. - تابع تقدمك إلى الأمام.

نظر إلى الطريق.

لا تنظر إلى الخلف. انظر إلي. إن تصرخ مستجدا تمت.

تقدم إلى الأمام ممسكا حزامه بإحدى يديه. الثقوب في الحزام تظهر تزايد هزال جسده، والجلد على أحد جانبيه بدأ وكأنه مطلي بمادة الورنيش، حيث اعتاد أن يشحن سكينه عليه. نزل إلى مجاز يتقاطع مع الطريق، نظر إلى المسدس وإلى الصبي، عيون تسمرت على أكواب من الأوساخ المتمكنة ثم غارت عميقا. مثل حيوان في جمجمة ينظر إلى الخارج عبر فتحتين أمام العينين. له لحية حددت في أسفلها على شكل مربع، وعلى رقبته وشم طير يظهر أن من نفذه لا يجيد الوشم. بدأ الرجل واهنا، هزيلا يلبس مئزرا قذرا أزرق اللون له كمان تتصل به قلنسوة سوداء على مقدمتها شعار منقوش لمؤسسة لم يعد لها وجود.

- إلى أين أنتم ماضون؟

- أنا ذاهب لقضاء حاجتي.

- إلى أين أنتم ذاهبون بالسيارة الشاحنة؟

- لا أعرف.

- ماذا تعني بقولك: لا أعرف؟ انزع عنك القناع.

نزع القناع ووقف وهو ممسك به ثم قال:

- قصدت أن أقول: إنني لا أعرف.

- لا تعلم إلى أين أنتم ذاهبون؟

- لا.

- علام يعمل محرك السيارة؟
- على وقود الديزل.
- كم لديكم منه؟
- يوجد على متن السيارة ثلاثة براميل؛ كل منها يتسع لخمسة وخمسين غالوناً.
- هل معكم ذخيرة لتلك المسدسات؟
- التفت إلى الوراى ونظر إلى الطريق.
- أمرتك بعدم الالتفات إلى الوراى؛ بغية النظر إلى الطريق.
- نعم، عندنا ذخيرة.
- من أين حصلتم عليها؟
- وجدناها.
- هذه كذبة. ماذا تأكلون؟
- ما نستطيع إيجاده.
- ما تستطيعون إيجاده؟!
- قال: أجل. نظر إلى الصبي وتابع قائلاً: إنك لا تريد إطلاق النار.
- هذا هو ظنك.
- ليس لديك سوى طلقتين، ربما واحدة فقط. ولسوف يسمعون صوت الطلقة.
- نعم، هم سيسمعون لكن ليس أنت.
- وكيف حكمت بهذا؟

— ذلك أن الرصاصة تنطلق بسرعة تفوق سرعة الصوت، وعليه فإنها ستستقر في رأسك قبل أن تسمع صوتها، أنت بحاجة إلى الفص الدماغى الأمامى ولأشياء أخرى كالمركز المسؤؤل عن السمع والبصر، إضافة إلى التلفيةة الصدغية. ولن يكون ممكنا لك أن تتمتع بهذه الأشياء، بل تكون كلها قد ذابت.

— هل أنت طبيب؟

— أنا لست أى شىء.

— بيننا رجل جريح، وهو جدير بأن تعطيه شيئاً من وقتك.

— هل أبدو لك معتوها؟

— لا أعرف كيف تبدو.

— لماذا تنظر إليه؟

— أستطيع أن أنظر أينما أشاء.

— لا. إنك لا تستطيع. إن تنظر إليه ثانية أطلق النار عليك.

كان الصبى جالساً، واضعاً يديه فوق رأسه وينظر إلى ما حوله من خلال ساعديه.

— إنى أراهن على أن ذاك الصبى جائع. لماذا لا تأتيان إلى الشاحنة وتحصلان على شىء تأكلانه. ليس ثمة ما يتطلب أن تكون شديد العناد. ليس لديكما ما تأكلانه، فلنذهب.

— نذهب إلى أين؟

— فلنذهب.

— لن أذهب إلى أى مكان.

- ألن تفعل؟

- كلا. لن أفعل.

- تظن أني لن أقتلك. أنت مخطئ. بل أفضل أن أقتادك على هذا الطريق مسافة ميل أو نحوه، ثم أطلقك. هذا كل ما نحتاجه، بعدها لن تجدنا ولن تتبين حتى أي مسار سلطنا.

- هل تعرف بماذا أفكر؟

- بماذا تفكر؟

- أفكر أنك مخلفات دجاج.

أقلت الحزام فسقط على الأرض، تدلت منه جعبة العدة وحافظة ماء ومحفظة جيب عسكرية قديمة وغمد سكين مصنوع من الجلد.

عندما رفع بصره كان الرجل يمسك سكيننا بيده. خطأ خطوتين فقط، فأصبح يتوسط المكان بين الصبي وأبيه وعلى مسافة متساوية منهما تقريبا.

ما تظن أنك فاعل بهذا؟

لم يجب، كان رجلا طويلا لكنه سريع الحركة. نزل إلى الأرض بحركة خاطفة، أمسك بالصبي، دار حول نفسه ونهض. شده إلى صدره ووضع السكين على حنجرته. كان الأب قد نزل إلى الأرض وأخذ يتحرك تبعا لتحركات الرجل. وجه المسدس وأطلق النار من وضعيتين مختلفتين وهو جاث على ركبتيه؛ كي يحقق التوازن المطلوب. أطلق النار من مسافة ستة أقدام. سقط الرجل إلى الوراء على الفور، بينما بدأ الدم يتدفق من

الفتحة التي خلفتها الرصاصة في جبهته. كان الصبي مضطجعا بردائه وقد تخلت التعابير عن وجهه تماما. أقحم المسدس تحت حزامه، رفع الحقيبة فوق كتفه، التقط الصبي، أداره، رفعه فوق رأسه ثم وضعه على كتفيه. توجه نحو الطريق القديم وهو يعدو بسرعة مضنية ويثبت الصبي من ركبتيه. أما الصبي فقد كان صامتا كأنه حجر وهو يضغط على جبهته المغطاة بدم متخثر.

وصلا إلى جسر حديدي قديم وسط الغابات. الطريق الذي تلاشى كان يعبر كل الأماكن باستثناء جدول متلاش. كان قد بدأ بالسعال مع أنه لا يكاد يجد نفساً يساعده على ذلك. ابتعد عن الطريق وجثا في الغابة. التفت ووقف لاهتأ وهو يحاول أن ينصت، لكنه لم يسمع شيئا.

قطع نصف ميل إضافيا أو مسافة قريبة من ذلك وهو يترنح، أخيرا جثا على ركبتيه ووضع الصبي على الأرض فوق الرماد وأوراق النبات. مسح الدم عن وجهه، ضمه إليه وقال: لا بأس سنكون بخير. عانق الصبي وجعله إلى جانبه. بلغت السعلة حنجرته، علقت بها ولم تغادرها. كان الصبي النحيل الضعيف يضع عليه معطفا وهو يرتعد مثل كلب. توقفت آثار الأقدام المطبوعة على أوراق النبات. ثم تابعا المسير. لا هما تكلما ولا نادى أحدهما الآخر. بلغ النحاس ذروته مع أفول النهار واستحكام العتمة، إذ أخذ الصبي يرتجف بشدة وترتعد أوصاله. اشتدت الظلمة وما بزغ القمر وليس ثمة مأوى يأويان إليه. وفي الحقيبة بطانية واحدة، أخرجها وغطى الصبي بها ثم فك سحابت سترته وضم الصبي إلى صدره. مكثا حيث هما زمناً طويلاً يفتريشان الأرض لكنهما تجمدا من شدة البرد، وأخيراً استوى قاعدا وقال: علينا أن نتحرك فنحن لا نستطيع أن نكتفي

بالجلوس هنا. نظر حوله فلم يرَ شيئاً. تلفظ وسط الظلمة بكلمات لا غوراً
سبّرت ولا بعداً بلغت.

أمسك الصبي من يده بإحدى يديه وهما يسيران في الغابة على غير
هدى، بينما مد الأخرى أمامه. لو أنه أغمض عينيه ما ساءت الرؤية عما
هي عليه وعيناه مفتوحتان. كان الصبي ملتقاً بالبطانية وطلب منه أبوه ألا
يسقطها على الأرض؛ لأنه إن فعل فلن يعثر عليها مرة أخرى. ود الصبي
لويحملة أبوه، لكن الرجل طلب منه أن يواظب على التحرك. كانا يمشيان
في الغابة مشية المضطرب، يسقطان على الأرض ثم يتابعان المسير. وكان
الليل طويلاً طويلاً. قبل بزوغ الفجر سقط الصبي أرضاً ولم ينهض من
جديد. لفه بسترته ثم غطاه بالبطانية، جلس وعانقه وما انفك يهزهزه.
بقي بالمسدس طلقة واحدة. لن يدرك الموت... لن يفعل.

في غمرة الضوء الضنين الذي هيمن ليوم كامل ألقى الصبي فوق أوراق
النبات وجلس يتفحص الغابة. عندما ازداد الضوء قليلاً نهض ومشى بعد
أن حدد موقع مخيمهم الذي لا خيمة فيه وأخذ يبحث عن إشارة ما.
بيد أنه لم يعثر إلا على آثار أقدامهما الضعيفة فوق الرماد. عاد، أجلس
الصبي وقال له: علينا أن نذهب. جلس الصبي متهاكاً، وجهه شاحب
ممتنع وملطخ بالأقذار التي جفت على شعره. قال له: تحدث إلي، لكنه
لم يفعل.

تحركا شرقاً عبر الأشجار التي ماتت منتصبه. مرا بيت قديم وعبرا
طريقاً قذرة. وشاهدا قطعة أرض جرداء، لا شجر فيها. ربما كانت يوماً
حديقة غناء. كانا يتوقفان من وقت لآخر منصتين. الشمس المحجوبة عن

الرؤية لم تلق ظلها. وصلا إلى الطريق على نحو غير متوقع. أوقف الصبي بإحدى يديه. جثما في خندق على جانب الطريق كالمنبوذين منصتين. الرياح ساكنة والصمت قاتل. بعد برهة نهض، خرج من الخندق ومشى على الطريق. نظر إلى الصبي خلفه وقال له: اتبعني. خرج الصبي. مسح الرجل آثار الأقدام التي خلفها على الرماد إلى أن زالت. وقف الصبي ينظر إلى الطريق وهو ملتحف بالبطانية.

ما من سبيل لمعرفة ما إذا تمكنوا من تشغيل محرك الشاحنة من جديد. ولا يوجد طريقة يعلم من خلالها المدة التي هم على استعداد للبقاء خلالها كامينين. أنزل الحقيبة على الأرض، جلس، فتحها وقال: نحن بحاجة لأن نأكل، ألسنت جائعا؟
هز الصبي رأسه.

طبعاً لا. أخرج زجاجة الماء، فك غطاءها وقدمها إلى الصبي الذي تناولها ووقف يشرب، أخفض الزجاجة؛ كي يلتقط أنفاسه. جلس على الطريق مصالبا ساقيه وشرب من جديد. أعاد الزجاجة فشرب الرجل وأعاد لها الغطاء. فتش الحقيبة وأخرج منها علبة فاصوليا بيضاء، تناولها بينهما إلى أن فرغت فرمى بها الرجل في الغابة ثم شرعا بالمسير على الطريق من جديد.

أصحاب الشاحنة كانوا قد نصبوا مخيمهم فوق الطريق عينه. حيث أضرمو نارا هناك وقد خلفوا وراءهم قطعاً من الحطب المتفحم ملتصقة بالقطران الذائب وممزوجة بالرماد والعظام. جثا على الأرض واضعا يده على القطران، لقد أحس بدفء خفيف ينبعث منه. وقف ونظر إلى

الطريق، ثم أخذ الصبي معه إلى الغابة وقال له: أريدك أن تنتظر هنا، وأنا لن أذهب بعيدا، وسوف أكون قادرا على سماعك إذا ما ناديتني.

قال الصبي: خذني معك. وبدا كما لو أنه قد هم بالبكاء.

- لا، فأنا أريد منك أن تنتظر هنا.

- أرجوك يا أبي.

- كف عن هذا. أريد منك أن تفعل ما أطلبه. خذ البندقية.

- أنا لا أريد البندقية.

- لم أسألك إن كنت تريدها أم لا. خذها.

مشى في الغابة وصولا إلى حيث كانا قد تركا العربة. كانت ما تزال موجودة في مكانها، لكنها تعرضت للنهب. الأشياء القليلة التي تركوها وجدها مبعثرة على أوراق النبات؛ بعض من الكتب والألعاب التي تخص الصبي. بين الأشياء أيضا حذاءه القديم وبعض ملابسه البالية. عدل وضعية العربة ووضع فيها أشياء الصبي ثم دفع بها إلى الطريق وقل عائدا. لم يكن يوجد شيء هناك؛ دم جاف قاتم اللون على أوراق النبات وحقيبة الصبي غير موجودة. في طريق عودته وجد العظام والجلد، وقد جعلوا كومة أهيلت عليها الصخور. جزء من الأمعاء والأحشاء. نبش العظام بمقدم حذائه؛ يبدو أن العظام قد سلقت وليس بينها قطع ألبسة. الظلام بدأ يهبط من جديد وأمسى البرد شديدا. عاد قاصدا المكان الذي ترك فيه الصبي. جثا على ركبتيه، طوق الصبي بذراعيه وضمه.

دفع العربة أمامهما بين الغابات حتى نهاية الطريق القديم، حيث تركاها. توجه جنوبا على طول الطريق مسرعين قبل هبوط الظلام. كان

الصبي يرتجف فقد أصابه الإعياء. حملته الرجل، وضعه فوق كتفيه وتابعا المسير. ما إن بلغا الجسر حتى كان الضوء قد أفل أو كاد. أنزل الصبي عن كتفيه ثم بدأ يتحسسان طريقيهما عند السد الحاجز. تحت الجسر أخرج ولاعته، أشعلها وشرع يكنس الأرض مستنيرا بضوء الولاة الذي كان يومض ثم يخبو. تم تنظيف المكان من الرماد والحصى. وضع الحقيبة على الأرض. أعاد الولاة إلى مكانها المعتاد ووضع يديه على كتفي الصبي. لم يكن يراه في غمرة الظلام الدامس، بل كان يتحسسه قال له: أريدك أن تنتظر هنا فأنا ذاهب؛ كي أحتطب إذ علينا أن نوقد ناراً.

— أنا خائف.

— أعرف ذلك، لن أذهب بعيدا بل سأكون على مسافة أستطيع أن أسمعك منها. إن شعرت بالخوف فنادني تجدني عندك فوراً.

— أنا خائف حقاً.

— إن أسرعرت في الذهاب فسأعجل بالعودة. سوف نضرم ناراً ولن تظل بعد ذلك خائفاً. لا تضطجع على الأرض، إن فعلت فستستغرق بالنوم ولن تجيبي حين أناديك. عندها لن أكون قادراً على إيجاد مكانك. أتفهم ذلك؟

لم يجب الصبي.

تملكه الغضب من الصبي وكاد يفقد صوابه إلا أنه أدرك تحت جنح الظلام أن الصبي كان يهز رأسه، فقال: حسناً، حسناً.

تسلق أكوام الركاب بصعوبة ثم دلف إلى الغابة ماذا يديه أمامه. الحطب متوافر في كل مكان؛ أغصان ميتة وأخرى متناثرة فوق الأرض.

كان يخلط الحطب كيفما اتفق ثم يركله بقدميه جاعلا منه كومة. ما إن جمع ما يستطيع حمله حتى نادى الصبي فأجاب النداء. ظل الصبي يكلمه وما انفك يتبع الصوت إلى أن وصل إلى الجسر. جلسا في الظلام بينما كان الرجل يكشط الأخشاب الكبيرة بالسكين ويكسر الأغصان الصغيرة بكلتا يديه جاعلا منها كومة. أخرج الولاة من جيبه، فتل بإبهامه زند القدح - كان يستعمل البنزين في تعبئة ولاعته - فأشعلت لهبا ضعيفا أزرق. انحنى وأشعل الأغصان الصغيرة وجلس يراقب النار وهي تتسلق لتشعل الأغصان الكبيرة. كوم مزيدا من الحطب، انحنى ونفخ نفخا لطيفا أسفل النار ورتب الحطب بيديه على الشكل الذي ينبغي أن يكون عليه.

جال جولتين آخرين جمعا للحطب. كان في كل مرة يجمع ما يستطيع حمله من الأغصان كبيرها وصغيرها فيحمل ما جمع إلى الجسر ثم يدفع بالحطب من جانب الجسر إلى الأسفل. كان يرى وهج النار من مسافة بعيدة، لكنه لا يعتقد أن رؤيتها ممكنة من الطريق الآخر. استطاع أن يبني تحت الجسر بركة معتمة من المياه الراكدة بين الصخور وجعل حوافها من الجليد الذي صنفه طبقات فوق بعضها. وقف فوق الجسر ودفع بأخر كومة من الحطب. تلون نفسه بلون أبيض وذلك عبر الوهج المنبعث من ضوء النار.

جلس فوق الرمال؛ كي يجرد محتويات الحقيبة: المنظار، زجاجة تتسع لنصف غالون من البنزين تكاد تكون ممتلئة، زجاجة الماء، زوج من الكماشات، ملعقتان. رتب كافة المحتويات في صف واحد. بقي معهما خمس علب صغيرة من الطعام. اختار منها واحدة تحتوي على السجق

وأخرى فيها ذرة. فتح العلبتين بمفتاح علب عسكري صغير ووضعهما على حافة النار. جلسا يراقبان الملتصقين المحيطين بالعلبتين من النار مستعينا بالكماشة. جلسا منحنيين فوق العلبتين وكل منهما ممسك بملقعة ثم بدأ يأكلان بيضاء. كان رأس الصبي ينحني إلى الأمام من شدة النعاس.

بعد أن انتهى من الطعام أخذ الصبي إلى حاجز من الحصى تحت الجسر. أزال طبقة الجليد الرقيقة بواسطة عصا. جثا كل منهما على ركبتيه، بينما شرع الرجل يغسل وجه الصبي وشعره. كان الماء شديد البرودة فأبكى الصبي. غاصا عميقا تحت الحصى سعيا وراء ماء عذب. غسل شعره ثانية قدر استطاعته ثم توقف أخيراً؛ لأن الصبي أصبح يئن من شدة برودة الماء. نشفه بالبطانية وجثا حيث هما. لاحت ظلال البناء تحت الجسر في وهج الضوء المنبعث من النار فكانت تتكسر عند ملاقاتها السياج المتشكل من جذوع الأشجار على طول الممر الضيق. قال: هذا هو طفلي. إني أغسل نخاع رجل ميت من شعره. وذلك هو عملي. لف الصبي بالبطانية وحمله ثم وضعه قريباً من النار.

جلس الصبي مترنحاً. أبقى الرجل عينه عليه؛ مخافة أن ينقلب فيقع فوق أسنة اللهب. حفر في الرمل تجاوزيف بقدمه؛ كي يجعل الصبي فيها كفتيه ووركه في أثناء النوم. جلس يضم الصبي ويجفف له شعره قريباً من النار. كل هذا يشبه طقس المسح بالزيت المغرق في القدم. كذا يكون انفخ الحياة في الأشكال. عندما لا يكون لديك شيء آخر تفعله انسج طقوسا وشعائر من الهواء وانفخ فيها نفسك.

أيقظه البرد ليلاً فنهض وانكب يكسر مزيداً من الحطب طعاماً للنار.

الأغصان الصغيرة تشتعل بين الفحم متوهجة بلون برتقالي. نفخ في السنة
اللهب منعشا فيها الحياة، مد النار بمزيد من الحطب وجلس مصالبا
ساقيه، مستندا إلى أحد أعمدة الجسر.

كتل ضخمة من الحجر الكلسي اصطفت متراكبة فوق بعضها دونما
ملاط فيما بينها. الحديد المشغول تحت الجسر وفوق رأسه صبغه الصدا
بلون بني وكذا المسامير المبرشمة المستطرفة العوارض والألواح الخشبية
المتعامدة. الرمال حيث كان يجلس دافئة لكن البرد في الليل بعيدا عن
النار كان قارسا. نهض وسحب خشبا طريا من تحت الجسر ووقف
منصتا. الصبي هاجع، جلس إلى جانبه، مسح شعره المتشابك الباهت
برفق. أرجوك لا تخبرني كيف تنتهي القصة. عندما نظر من جديد نحو
الظلام المهيم خلف الجسر كانت السماء تتلج.

كل ما تبقى لديهما من حطب معد للحريق كان صغير الحجم ولن
تصمد النار متقدة إلا زهاء ساعة أو أكثر بقليل. سحب الحطب المتبقي
تحت الجسر وكسره ثم كسر الأغصان الصغيرة إلى قطع. ظن أن الضجيج
سيوقف الصبي، لكنه لم يفعل. هسهس الحطب الندي بين السنة واللهب.
استمر هطل الثلج. سوف ينظران في الصباح إن كان ثمة آثار أقدام على
الطريق أم لا. باستثناء الصبي كان هذا أول كائن بشري يكلمه منذ أكثر
من سنة. وأخيرا أخي. الحسابات الزاحفة في العينين الباردتين القلقتين،
الأسنان النخرة الرمادية اللون. كتلة من اللحم البشري، الذي جعل من
العالم كذبة في كل كلمة. عندما استيقظ من جديد كان قد توقف هطل
الثلج. والفجر المبكر كان يشكل الأراضي العارية الجرداء خلف الجسر.
بدت الأشجار سوداء اللون في مقابل الثلج. كان يضطجع ملتفا حول نفسه

وقد جعل يديه بين ركبتيه. استوى جالساً، وجد النار مضرمة فوضع علبة شمندر بين الحجر. مكث الصبي متمدداً على الأرض يراقبه.

انتشر الثلج الذي هطل حديثاً في الغابة فغطى الأغصان اليابسة وتشكل أكواباً فوق أوراق النبات وقد اصطبغ بلون الرماد. مشياً إلى حيث كانا قد تركا العربية. رمى بالحقيبة على الطريق. لا يوجد آثار أقدام. وقفوا يصغيان وسط الصمت المطبق ثم شرعاً يسيران فوق الوحل الرمادي. مشى الصبي إلى جانبه واضعاً يديه في جيبه.

سارا مجهدين طوال النهار بينما كان الصبي لائذاً بالصمت. بعد الظهر ذاب الثلج المختلط بالوحل وما إن حل المساء حتى كان الطريق قد جف. ولم يتوقفاً. كم ميلاً قطعاً؟ عشرة، اثني عشر. اعتادا أن يلعبا على الطريق لعبة اسمها التعادل بواسطة أربع ماسحات من الفولاذ كانا قد وجداها في مخزن لبيع الخردوات. بيد أنها نهبته مع ما سرق من العربية. خيما تلك الليلة في وادٍ صغير ضيق شديد الانحدار وأضرما نارا خلف صخرة عريضة مسطحة الجانب. ثم أكلا علبة طعام كانت بحوزتهما. أبقاها حتى النهاية؛ لأنها تحتوي على أكلة الصبي المفضلة؛ اللحم مع الفاصوليا. راقباها وهي تبقيق ببطء وأناة فوق الجمر. استعاد العلبة من بين الجمر مستعينا بالكماشة وأكلا صامتين.

شطف العلبة الفارغة بالماء وأعطاها إلى الصبي؛ حتى يشرب ولم يكن ممكناً فعل ما هو أفضل مما حصل.

قال: علي أن أكون أكثر اهتماماً.

لم يجب الصبي.

- عليك أن تحادثني.

- حسناً.

كنت تود أن تعرف ماذا تشبه عصابة الأشرار. ها أنت ذا قد عرفت الآن. ربما يحدث الأمر ثانية. إن واجبي هو أن أعتني بك. لقد أوكل إلي الإله هذه المهمة. سوف أقتل أي شخص يمسك كائنا من كان. هل تفهم؟
- نعم.

جلس في مكانه ملتفاً بالبطانية جاعلاً منها قلنسوة. بعد برهة رفع بصره، وقال:

- أمازلنا شخصين صالحين؟

- نعم لا تزال خيرين.

- وسوف تكون دائماً كذلك.

- نعم سنبقى دائماً كذلك.

- حسناً.

في الصباح غادرا الوادي وذهبا إلى الطريق مجدداً. كان قد صنع للصبى آلة فلوت موسيقية تعمل بواسطة النفخ، وذلك من قطعة قصب وجدها على جانب الطريق. أخرجها من جيبه وأعطاهها للصبى. أخذها الصبى صامتاً. بعد برهة تراجع الصبى عن أبيه ثم ما لبث الرجل أن سمع الصبى يعزف للزمن القادم موسيقى غير معهودة أو ربما هي آخر معزوفة موسيقية تعزف على وجه الأرض وتأتي من بين الرماد والخرائب.

التفت الرجل ونظر إلى الصبى. كان مستغرقاً في التفكير. دار في خلد الرجل أن الصبى يشبه طفلاً مستبدلاً بآخر سراً منذ زمن الطفولة، ميلاً

إلى العزلة يبدو حزيناً إلى حد ما وهو يعلن وصول فرقة مسرح جوال إلى مقاطعة وقرية. بيد أنه لا يدري أن الممثلين خلفه قد اختطفتهم الذئاب.

جلس على أوراق النبات مشابكا ساقيه فوق قمة سلسلة جبال ونظر إلى الوادي من خلال المنظار. شكل نهر مازال يجري. طاحونة ذات مداخن قرميديّة ذات لون أدكن. سقوف مبنية من الصخر الأردوازي وبرج ماء خشبي قديم محاط بأطواق من الحديد. لا يوجد دخان أو حركة تدل على وجود حياة. أخفض المنظار وجلس يراقب.

قال الصبي: ماذا ترى؟

- لا شيء.

مرر المنظار للصبي فأخذه وعلق شريطه حول عنقه. وضع المنظار على عينيه وأدار العدسات لضبط الرؤية. كل ما حولهما كان ساكناً.

قال: إني أرى دخانا.

- أين؟

- وراء تلك الأبنية.

- أي أبنية؟

أعاد الصبي المنظار فعدّل الرجل العدسات وقال وهو ينظر: إنه دخان

ينبعث ملتفاً. نعم إني أراه.

- ماذا علينا أن نفعل يا أبي؟

- أعتقد أنه علينا أن نلقي نظرة. ويجب أن نكون حذرين.

إن كانت بلدة صغيرة فسيكون عندهم حواجز ومطارييس. لكن من المحتمل أن يكونوا مجرد لاجئين.

- مثلنا.

- نعم مثلنا.

- ماذا لو أنهم كانوا عصابة أشرار؟

- علينا أن نجازف؛ لأننا بحاجة لإيجاد شيء نأكله.

تركا العربية في الغابة واجتازا خط السكة الحديدية. انحدرنا من جرف عالٍ شديد الانحدار عبر شجر لبلاب متفحم وميت.

قال للصبي: ابق قريبا مني فضل. تحركا عبر الطرقات مثل خبيرين بوضع الألفام وتعطيلها. كانا يجتازان مبنى في كل تحرك. رائحة دخان الحطب المنتشرة بالجوتسبب الدوار وتبعث على الإغماء. انتظرا في متجر وراقبا الطريق؛ ما من شيء يتحرك. مشيا عبر النفايات وأكوام من الحجارة المتكسرة. أدراج خزانة مفتوحة ومرمية على الأرض إضافة إلى أوراق وعلب كرتونية منتقخة. لم يعثرا على شيء، فقد تم نهب المحال التجارية جميعها منذ سنوات. زجاج النوافذ معظمه محطم. الظلام مستحكم داخل المتجر لدرجة تتعذر الرؤية معها. اعتليا درجات حديدية مضلعة لسلم دوار. الصبي ممسك يد الرجل بيده. بضع بدلات يغطيها الغبار معلقة على حامل. بحثا عن أحذية فلم يجدا منها شيئا. سارا يجران أقدامهما جرا عبر النفايات لكنهما لم يعثرا على أي شيء ذي نفع لهما. عندما رجعا أخذ بعض الستر المعلقة على الحامل، نفص عنها الغبار، طواها، وضعها على ذراعه وقال: لنذهب.

فكر أنه ربما يكون قد مر بشيء فاته الانتباه إليه لكنه لم يجد شيئاً. في متجر للأغذية جالا على أكوام النفايات المتراكمة على الأرض؛ بحثا عن شيء يكون ذا نفع لهما. لم يعثرا إلا على مواد تعبئة قديمة وبعض الأوراق إضافة إلى الرماد السرمدي. طاف على الأرفف مسرعاً؛ بحثاً عن فيتامينات. فتح باب غرفة تبريد كبيرة فانتشرت منها تحت الظلام رائحة زنخة ننته عنفة منبعثة من موتى داخل الغرفة. أغلق الباب بسرعة. وقفنا على الطريق ونظر إلى السماء. دخان خانق يقطع النفس. التعب الشديد أنك الصبي فأمسكه من يده قائلاً: لا بد أن نفتش أكثر، يجب أن نستمر في البحث.

البيوت الموجودة في طرف البلدة لم تحتو إلا على القليل الزائد عما توافر في المحال التجارية. اعتليا السلم الخلفي ودخلا مطبخاً. أبواب الخزائن كلها كانت مفتوحة. وجد علبة خميرة فوقف ينظر إليها. دخلا غرفة الطعام وبحثا في أدراج بوفيه موجودة فيها. وصلا إلى غرفة الجلوس. لفائف من ورق الجدران ساقطة على الأرض كأنها وثائق من مخلفات الأزمنة الغابرة. ترك الصبي جالسا على درجات السلم حاملا المعاطف وتابع البحث.

رائحة الرطوبة العفنة معششة في كل الأشياء. في غرفة النوم الأولى توجد جثة جافة مغطاة عند الرقبة. آثار شعر متبقية على الوسادة. أمسك البطانية من حاشيتها السفلى، سحبها عن السرير، نفضها، طواها ثم حملها تحت ذراعه. فتش المكاتب والخزائن فوجد رداء صيفيا معلقا. لا يوجد شيء. عاد أدراجه من حيث أتى. بدأ الظلام يخيم. أمسك الصبي من يده وخرجا إلى الشارع عبر الباب الأمامي.

عند قمة الهضبة استدار وتفحص البلدة. حل الظلام سريعاً. برد وعمته. وضع معطفين على كتفي الصبي وغمره بالسترة وبكل شيء.

- أنا جائع حقاً يا أبي.

- أعرف.

- هل سنتمكن من العثور على طعامنا وشرابنا؟

- نعم. فأنا أعرف مكانهما.

- ماذا لو أن أحداً وجدتهما؟

- لن يجدوهما.

- أرجو ألا يتمكنوا من ذلك.

- لن يستطيعوا. هيا.

- ماذا كان هذا؟

- لم أسمع شيئاً.

- أنصت.

- لا أسمع شيئاً.

أصغياً. ثم سمع نباح كلب من مسافة بعيدة. استدار ونظر نحو البلدة الغارقة في الظلام، وقال: إنه كلب.

- كلب؟!

- نعم.

- من أين أتى؟

- لا أعرف.

- لن نقتله. أليس كذلك يا أبي؟

- كلا، لن نقتله.

نظر إلى الصبي الذي كان يرتجف برغم المعاطف التي تدثر بها.
انحنى وطبع قبلة على حاجبه وقال: لن نؤذي الكلب. إنني أعدك بذلك.

ناما في سيارة متوقفة قرب معبر مرتفع وقد كوما المعاطف والبطانية
غطاء فوقهما. في غمرة الظلام والصمت استطاع أن يرى بعض الأضواء
الخافتة والمبعثرة على نحو عشوائي. الأدوار العليا من الأبنية كلها تسبح في
الظلام. عليك أن تحمل ماء إلى الأعلى. من المحتمل أن يجبرك الدخان
على الخروج ماذا يأكلون؟ الله أعلم.

جلسا وقد ادثرا بالمعاطف وهما ينظران إلى المحيط عبر النافذة.

- من هم يا أبي؟

- لا أعرف.

أفاق ليلا فاضطجع منصتا. لم يستطع أن يتذكر أين هو موجود.
دغدغته الفكرة فابتسم.

قال: أين نحن؟

- ما هذا يا أبي؟

- لا شيء. اخلد إلى النوم. فنحن بخير.

- سوف نكون على ما يرام. أليس كذلك يا أبي؟

- نعم.

- ولن يمسننا سوء.

- هذا صحيح.

- لأننا نحمل النار.

- نعم لأننا نحمل النار.

في الصباح كان المطر ينهمر باردا وينصب على السيارة شديدا. وصل إلى ما تحت المعبر العالي وكان يتراقص خلف السيارة على الطريق. جلسا يشاهدان الماء وهو يسيل على الزجاج. عندما ضعف تدفق الأمطار كان قد انقضى قسم كبير من النهار. تركا المعاطف والبطانية على أرض المقعد الخلفي وترجلا من السيارة إلى الطريق لتفتيش المزيد من البيوت. امتزج دخان حرائق الأشجار بالهواء الرطب. لم يعودا يسمعان نباح الكلب.

وجدا بعض الأواني المنزلية وقليلاً من قطع الملابس؛ بينها كنزة فضفاضة. وبعض البلاستيك الذي يحتاجه. لقد كان متأكدا أن ثمة من يراهما ويراقبهما لكنه لم ير أحدا. في حجرة لإعداد الطعام وحفظه وجدا جزءا من كيس يحتوي على دقيق الذرة وفيه ما يدل على أن الفئران قد مرت عليه منذ عهد بعيد. غربل الدقيق بواسطة قطعة من منخل مثبت على نافذة. فصل الدقيق من الروث الجاف الذي كان فيه. أضرم نارا فوق الإسمنت وتحت رواق المنزل. صنع كعكا من الدقيق وخبزه فوق قطعة من القصدير ثم جلسا يأكلان الكعك ببطء واحدة تلو الأخرى. غلف المتبقي بورقة ووضعها في الحقيبة.

كان الصبي جالسا على الدرج عندما رأى شيئا يتحرك من خلف المنزل عبر الطريق. وجه كان ينظر إليه؛ صبي في مثل سنه يلبس معطفا صوفيا فضفاضا أكبر حجما مما يناسبه وأكمامه مقلوبة إلى الوراء. وقف. ركض

عبر الشارع ثم دلف إلى مدخل بناء. لا أحد هناك. نظر إلى المنزل ثم ركض إلى وسط الفناء وعبر الأعشاب الميتة نحو جدول راكد أسود وصاح: ارجع لن ينالك مني أذى. كان واقفا هناك يصرخ حين وصل أبوه بسرعة فائقة، عبر الطريق وقبض على ذراعه. قال له مستهجنا:

- ماذا أنت فاعل؟ ما هذا الذي تفعله؟

- يوجد هناك ولد صغير يا أبي. ولد صغير.

- لا يوجد ولد صغير. ما الذي تركبه؟

- إنه موجود. لقد رأيته.

أخبرت أن تتسمر في مكانك وألا تبرحه. ألم أخبرك. والآن علينا أن نذهب. هيا.

فقط أردت أن أراه يا أبي. وددت لو أراه هذا كل ما في الأمر.

أمسك به الرجل من ذراعه وعادا عبر الفناء. لم يكف الصبي عن البكاء ولا هو توقف عن النظر إلى الوراء. قال الرجل:

- هيا. علينا أن نذهب.

- أريد أن أراه يا أبي.

- ليس من أحد تراه. هل ترغب في أن تموت؟ هل هذا ما تريده؟

قال الصبي وهو ينشج ويبيكي متنهدا: إني لا أبالي بالموت. نعم إنه لا يهمني توقف الأب فتوقف الصبي ثم جثم على الأرض فحمله وقال: أنا آسف. لا تقل ذلك. لا ينبغي لك قوله.

عادا عبر الشوارع الرطبة متجهين نحو الجسر. أخذوا المعاطف والبطانية من السيارة وتابعا السير نحو جسر السكك الحديدية حيث تسلقا الطريق ثم جازا دروبا ومجازات بين الغابات. أخذوا العربة واتجها نحو الطريق السريع.

قال الصبي:

- ماذا لو لم يكن للصبي الصغير من أحد يراعه؟ ماذا لو لم يكن له أب؟
- يوجد أناس هناك. إنهم مختبئون لكنهم موجودون.

دفع العربة وصولا إلى الطريق ثم توقف. استطاع أن يرى آثار الشاحنة فوق الرماد الرطب. آثار باهتة وممسوحة في محاولة لإخفائها لكنها موجودة.

أحس أنه استطاع أن يشم رائحتهم. كان الصبي يسحبه من معطفه إلى الوراء وقال:

- أبي.

- ماذا؟

- إنني متأسف لحال الصبي الصغير وخائف عليه.

- أعرف. لكنه سيكون بخير.

- علينا أن نعود؛ كي نصلحه يا أبي. نستطيع أن نعثر عليه وأن نأخذه معنا. يمكننا أن نصحبه وأن نأتي بالكلب. فالكلب يستطيع أن يصطاد شيئا يأكله.

- لا نستطيع.

- وسوف أشاطر الولد الصغير طعامي.

- كف عن هذا. إننا لا نستطيع.

عاد للبكاء ثانية. ماذا عن الولد الصغير؟ بكى متتهدا. ماذا عن الولد الصغير؟

عند الغسق؛ مع ظلمة أول الليل جلسا عند مفترق طرق. أخرج الخريطة الممزقة، فرد أجزاءها فوق الطريق وشرع يتفحصها. وضع إصبعه على نقطة فيها وقال: نحن هنا؛ تماما هنا. لم يلتفت الصبي. جلس يتفحص ويشير بإصبعه إلى الطرق المتوية والمطبوعة بالأحمر والأسود، ويحدد ما يعتقد أنه موقع تقاطع الطرق الذي هما عنده. كما لو أنه يرى الذات الصغيرة لكل منهما جاثية هناك. قال برقة: يمكننا أن نعود فالمكان ليس بعيدا جدا ولم يفتنا الوقت.

نصبا مخيما جافا في أرض حراجية قريبة من الطريق. لم يجدا مكانا مظلا يضرمان فيه نارا تتعذر رؤيتها فيه فعذلا عن الفكرة. أكل كل منهما قطعتين من كعك دقيق الذرة وناما على الأرض متجاورين بين البطانيات والمعاطف. ضم الصبي فهدأ ارتجافه بعد برهة ثم نام، إذ هدأ.

الكلب الذي يتذكره تبعنا على مدى يومين. حاولت أن ألافه؛ كي يأتي لكنه لم يأت. حاولت أن أنصب له شركا من الأسلاك؛ كي أوقعه فيه فأمسكه. كان في المسدس ثلاثة خراطيش لا يمكن الاستغناء عن أي منها. مشت على الطريق، ابتعدت، أتبعها الصبي ناظريه، ونظر إلي ثم ألقى نظرة على الكلب وشرع يبكي ويتوسل للإبقاء على حياة الكلب لقد وعدته ألا أمس الكلب بسوء. تعريشة للكلب مغطاة بجلد حيوان. في اليوم اللاحق كان قد رحل. هو ذاك الكلب الذي يتذكر لكنه لا يتذكر أولادا صفارا البتة.

كان قد وضع حفنة من الزبيب المجفف في قطعة من القماش ودسها في جيبه. جلسا فوق العشب الميت عند الظهيرة جانب الطريق وأكلا الزبيب.

نظر الصبي إليه وقال:

- هذا آخر ما تبقى. أليس كذلك؟

- نعم.

- هل أوشكنا أن نموت الآن؟

- لا.

- ماذا أنت فاعل الآن؟

- سنشرب شيئاً من الماء ثم نتابع المسير على الطريق.

- حسنا.

نزلا مساء في حقل محاولين إيجاد مكان يضرمان فيه نارا لا ترى من مكان آخر وهما يجرجران العربة على الأرض خلفهما. الأمل في إيجاد شيء في الريف ضعيف جدا. عليهما إيجاد شيء يأكلانه غدا. أدركهما الليل وهما خائضان في طريق موحل. توجهوا إلى حقل يجران أرجلهما جرا متناقلين وعبره إلى مجموعة من الأشجار العارية التي بدت سوداء مقارنة بما خلفها من العالم المرئي. ما إن وصلا هناك حتى كان قد هبط ظلام الليل. أمسك يد الصبي وجمع بقدمه حطبا كبيرا وأغصانا صغيرة ثم أشعل نارا. كان الحطب رطبا لكنه نزع عنه اللحاء الميت بالسكين ثم كومه عيدانا وأغصانا؛ كي يتجفف بالحرارة. ثم مدّ قطعة البلاستيك على الأرض جاعلا منها ملاءة.

أحضر من العربية المعاطف والبطانيات وخلع عنه وعن الصبي أحذيتهما الرطبة والموحلة. جلسا صامتين وقد مدا أيديهما صوب أسنة اللهب؛ طلبا للدفع. حاول أن يفكر في شيء يقوله إلا أنه لم يستطع. لقد انتابه هذا الشعور من قبل جراء البرد الذي يفقد المرء صوابه واليأس الذي يتبدل معه الحس. أسماء الأشياء تتبع الأشياء ذاتها إلى عالم النسيان. ألوان، أسماء الطيور، الأشياء التي تؤكل. وأخيرا أسماء الأشياء التي يعتقد المرء أنها حقيقية.

كلها أكثر هشاشة وأسرع زوالا مما يظن؛ كم قد زال منها فعلا؟ لغة المفاهيم الاصطلاحية المكرسة للعبادة والتقديس المجردة من مرجعياتها ومن حقيقتها أسدل الستار عليها مثلها في ذلك مثل شيء يحاول الاحتفاظ بالحرارة، وسوف تنطفئ وتنتهي إلى الأبد إن عاجلا أم آجلا.

نأما طوال الليل فقد أنهكهما تعب شديد. في الصباح كانت النار قد خمدت وتفتحت على الأرض. انتعل حذاءه الموحد وذهب ليجمع حطباً وهو ينفخ في يديه المتجمدتين على شكل كوبين طلباً للدفع، فالبرد شديد بل هو زمهرير. ربما يكون هذا الشهر شهر نوفمبر أو ما بعده. أوقد ناراً ومشى إلى طرف الأرض الحراجية، ثم توقف ليستطلع الريف حوله: حقول ممتدة ومخزن حبوب على مسافة بعيدة عنه.

رحلا من جديد ودائماً سيرا على الأقدام عبر طريق قذرة وعلى طول هضبة حيث يقبع بيت كان يوماً عامراً. لقد أتى عليه الحريق منذ أمد بعيد. هيكل صدئ لفرن مرمي في قبو للمؤن تغمره مياه سوداء. ألواح أسقف معدنية متفحمة منهارة ومفتتة، متناثرة في الحقول والرياح تعصف

بها. عثرا في مستودع الحبوب على مقدار ضئيل من الحبوب المتناثرة على فوهة مطحنة. لم يستطيعا تمييزها من كثرة الغبار الذي يغطيها فأكلاها بغبارها وبكل ما عليها. بعد ذلك توجها إلى الطريق عبر الحقول.

سارا بمحاذاة جدار حجري يخترق أطلال بستان فاكهة. الأشجار المنتظمة في صفوف تشوهت وتفحمت. أما أغصانها التي تساقطت على الأرض فقد تكدست أكواما. توقف ونظر عبر الحقول. الرياح شرقية والرماد الناعم يتحرك في الحقول. يتوقف ثم يمشي من جديد. إن كل ما يشاهده الآن كان قد رآه من قبل. بقع من الدماء الجافة فوق مخلفات الأعشاب وبقايا لفات من الأحشاء والأمعاء رمادية اللون. المقتولون ذبحا سحبوا ونقلوا بعيدا. علقت على نتوءات الجدار رؤوس بشرية متشابهة الوجوه؛ وجوه جافة ومكشرة وعيونها منقبضة وغائرة. آذانهم متدللية عند شحمتها ومقرقطة بأقراط من الذهب. الرياح تعبث بشعورهم الشعث فتلفها حول جماجمهم. الأسنان في تجاويها تشبه قوالب الأسنان. عليهم وشوم غير متقنة الصنع صباغها الأزرق مستخرج من نبتة الوسم الأوروبية، وقد أضيف له شيء من الشراب الكحولي المحضر منزليا. وشوم بدت شاحبة في ظل ضوء الشمس الشحيح. عناكب، سيوف وتروس، تين، شعارات حربية وعقائد مغلوط في كتابتها وتهجيتها. آثار ندوب بجراح وحروق قديمة ورسوم مخططة من جوانبها. الرؤوس التي لم تتشوه جراء ضربها بالهراوات والعصي سلخ جلدها عن عظمها. الجماجم التي سلخ عنها جلدها لونت وطبعت على جباهها سمات أقرب ما تكون إلى الخربشة. إحدى الجماجم كانت عظامها بيضاء اللون رسم عند ملتقى عظامها بعظام الرقبة رسم دقيق بالحبر الأزرق المستعمل بالطباعة. نظر

إلى الصبي الواقف إلى جانب العربة في مهب الريح. نظر إلى العشب المتيبس ومد بصره على امتداده. نظر إلى الأشجار المتقحمة المتلوية المنتظمة في صفوف. مزق وقطع قليلة من الثياب جمعتها الريح خلف الجدار. كل شيء يكسوه الرماد. مشى بمحاذاة الجدار ملقيا نظرة أخيرة على الوجوه التي غدت أقتعة ثم رقى عبر الجدار وذهب إلى حيث كان الصبي منتظرا. وضع ذراعه حول كتفه وقال: حسنا، دعنا نذهب.

كان ينتهي إلى فهم رسالة من كل حادثة وقعت مؤخرًا. يرى فيها رسالة وتحذيرا. وكذا كان الحال مع مشهد المقتولين ذبحا والفرائس التي تم التهامها. أفاق صباحا وتقلب تحت بطانيته، ثم نظر خلفه إلى الطريق التي أتيا منها فإذا به يرى أربعة مشاة يسرون جنبا إلى جنب. ألبستهم مختلفة الأشكال، بيد أن كلا منهم قد تلفح حول رقبتة بشال أحمر أو برتقالي اللون. يبدو أنهم حاولوا جاهدين أن تكون الألوان قريبة من الأحمر. وضع يده على رأس الصبي وقال: اسكت.

- ما هذا يا أبي؟

- أناس على الطريق. أخفض رأسك ولا تنظر.

النار قد انطفأت ولا دخان ينبعث منها والعربة لا يمكن رؤية أي شيء منها. انبطح على الأرض وأخذ ينظر من تحت ساعده. جيش ينتعل أفراده أحذية لاعبي التنس يحملون مواشير بطول ثلاثة أقدام لكل منها مع أغطية من الجلد الطبيعي. معاصمهم مطوقة بشارات من الحبال. بعض المواشير ينتظمها سلك على شكل سلسلة وهي مزودة عند نهاياتها بالهراوات. مروا مقععين مصلصلين، ساروا مترنحين كأنهم ألعاب

مهاجرة. ملتحون ومقنعون. زفراهم تتلون بالهواء بلون الدخان. قال:
 اسكت.. اصمت. الكتيبة المنظمة يتقدمها حملة الحراب وحملة الرماح
 مزدانين بشرابات ومنتشجين بالأوشحة. تمدد الصبي مذعورا مواريا
 وجهه بين ذراعيه. مروا وابتعدوا مسافة مئتي قدم. الأرض تهتز اهتزازا
 خفيفا من وقع أقدامهم. ثم مرت بعدهم عربات يجرها عبيد مزودون
 بعدة الحرب، وقد حملت العربات بأكداس من العتاد الحربي. عبرت
 بعدهم النساء؛ ربما كان عددهن اثنتي عشرة امرأة وبعضهن حوامل.
 وأخيرا مر غلامان يتخذان لأغراض جنسية شاذة في ثياب رثة لا تقي من
 البرد وقد طوق عنقاها بطوقين محكمين وشد كل منهما إلى الآخر بنير.
 مر الجميع وهما هاجعان ينصتان.

- هل رحلوا يا أبي؟

- نعم، لقد رحلوا.

- أرايتهم؟

- نعم.

- أهؤلاء هم عصبة الأشرار؟

- أولئك هم عصبة الأشرار.

- أهم كثيرون؟

- نعم، هم كثيرون، لكنهم رحلوا.

نهضا ونفضا عن ثيابهما ما علق بها وهما يصغيان إلى الصمت الذي

وسع المدى.

- إلى أين هم ذاهبون يا أبي؟

- لا أعرف. لكنهم في حالة تقدم وتنقل وهذا ليس مؤشرا جيدا.

- لماذا؟

- هو ليس مؤشرا جيدا وكفى. نحن بحاجة لإلقاء نظرة على الخريطة.

سحبها العربية من الدغل الذي كانا قد أخفياها فيه. سحبها عاليا وكوم عليها البطانيات والمعاطف ودفعاها نحو الطريق. وقفا ينظران إلى حيث كان آخر أفراد أولئك الشعث؛ ليقدر ما إذا كان ما يزال يشكل تهديدا لهما معتمدين في ذلك على إحساسهم البصري بعد أن تعذرت الرؤية في الجو المضطرب.

بدأ الثلج يهطل من جديد بعد الظهر. وقفا يشاهدان رقاقت الثلج الرمادية الشاحبة وهي تنخل وسط الظلمة الكئيبة. استأنفا سيرهما مجهدين. الثلج يتشكل هشاً رقيقاً فوق سطح الطريق. ما انفك الصبي يسقط على الأرض متخلفاً عن أبيه وما برح الأب يتوقف منتظراً. قال له:

- ابق إلى جانبي.

- إنك تسيير بسرعة كبيرة جدا.

- سوف أبطئ الخطى.

تابع المسير.

- إنك لم تعد تتكلم.

- بل أنا أتكلم.

- أتريد التوقف؟

- أنا دائماً أريد أن أتوقف.

- علينا أن نكون أكثر حذرا. علي أنا أن أكون أكثر حذرا.

- أعرف.

- سوف نتوقف. أيناسيك ذلك؟

- نعم.

- حالما نجد مكاناً.

- حسناً.

الثلج المنهمر يحول بينهما وبين رؤية ما حولهما. لا سبيل لرؤية أي شيء على جانبي الطريق. انتابه السعال مجدداً، أما الصبي فكان يرتجف من شدة البرد. كلاهما يسيران جنباً إلى جنب وقد جعلاً فوقهما الغطاء البلاستيكي وأمامهما العربة يدفعانها عبر الثلوج. توقف أخيراً. الصبي يرتجف إلى حد يتعذر ضبطه أو التحكم فيه. قال:

- علينا أن نتوقف.

- الجو بارد حقاً.

- أعرف.

- أين نحن؟

- أتسأل أين نحن؟

- نعم.

- أنا لا أعرف.

- هل لك أن تخبرني إذا كنا قد أوشكنا أن نموت؟

- لا أعلم. ليس الموت وشيكاً.

تركا العربية مقلوبة في حقل فيه نبات البردي. لف البطانيات والمعاطف بالغطاء البلاستيكي وأخذها واتجه صوب سياج، قائلاً للصبي: تمسك بمعطفي ولا تقلته من يدك. وصلا إلى السياج وحاولا أن يرقياه بواسطة سلك معدني، أخذ كل منهما يثبته للآخر بكلتا يديه. كان السلك باردا فأخذت وصلاته تصر صريراً من شدة البرد.

كان الظلام يهبط سريعاً. تابعا المسير. وصلا إلى غابة أرز؛ أشجارها ميتة ومتفحمة. لكن مع ذلك فإن أغصانها ما تزال قادرة على احتضان الثلج. وكانت تحيط بكل شجرة دائرة من الأرض المتفحمة تغطيها طبقة من المواد العضوية المتعفنة.

وقع اختيارهما على شجرة؛ لبيبتا تحتها. كوما البطانيات والمعاطف على الأرض ولف الصبي بإحدى البطانيات. ثم عكف على جمع النباتات اليابسة إبرية الشكل جاعلاً منها كومة. فرغ مكانا من الثلج؛ كي يوقد فيه النار فوراً وبدأت عيدانها تطلق. أدرك أنها لن تعمر طويلاً. نظر إلى الصبي وقال: علي أن أذهب لأحتطب المزيد، سوف أبقى قريباً. هل توافق؟

– أين تعني بقولك قريباً؟

– ما أعنيه هو أنني لن أذهب بعيداً.

– حسناً. تكدس الثلج على الأرض وبلغ ارتفاعه حتى الآن نصف قدم. تنقل متخبطاً بين الأشجار وهو يسحب الأغصان المتساقطة بين الأشجار ومن تحت الثلوج المتراكمة. وقد جمع حتى الآن ما يمكنه حمله وشق طريقه راجعاً إلى حيث أوقد النار التي سرعان ما تحولت إلى جمرات تهتز في قاع المكان الذي أضمرت فيه.

قذف الأغصان في النار وعاد ليجمع حطباً من جديد. يصعب البقاء قرب النار فالحطب أخذ يتفحم بسرعة ووهج النار لا يقوى على الانتشار. سرعة الحركة تولد عنده شعوراً بالإغماء. التفت إلى الوراء فرأى الصبي يغوص بالثلج، يجمع الأغصان ويكومها فوق ذراعيه.

لم يكن هطل الثلوج غزيراً لكنه لم يتوقف عن الانهمار. أمضى الليلة دون أن يغمض له جفن بل كان ينهض طوال الليل ويعتني بالنار؛ كي يبقى عليها متقدة. فرد الغطاء وثبت طرفه إلى دعامة قرب الشجرة وذلك كي يحبس ويعكس الحرارة المنبعثة من النار. نظر إلى وجه الصبي النائم وقد انعكس عليه وهج النار البرتقالي. وجنتاه الغائرتان ملطختان باللون الأسود. كظم غيظه ولكن دون جدوى، فهو لا يظن أن الصبي قادر على الترحال أكثر مما فعل. حتى وإن توقف الهطل فلن يكون الطريق سالكا وسوف يتعذر المرور عبره.

الثلج يتهاذى هامساً في أذن السكينة والشرر يتطاير ثم يخبوقبل أن يموت لينتهي إلى عالم الظلمة السرمدية.

كان النوم واليقظة حين سمع دويًا قويا لشيء ما يتحطم في الغابات ويرتطم ثم تبعه آخر. جلس منتصباً. النار المضرمة تحولت إلى ألسنة لهب ضعيفة مبعثرة بين الجمر. أنصت فإذا هناك صوت تصدع طويل وجاف لأغصان تتهاوى، تبعه تصدع آخر محدثاً ضجة شديدة. مديه إلى الصبي وهزه قائلاً: انهض. علينا أن نرحل.

أزال النوم عن عينيه بمسحهما بظهر كفيه. قال:

– ما هذا يا أبي؟ ما هذا؟

- علينا أن نتحرك. هيا.

- ماذا في الأمر؟

- إنها الأشجار. الأشجار تتساقط على الأرض.

جلس الصبي ينظر حوله مستسلما للحزن. قال للرجل:

- سنكون بخير. هيا، علينا أن نسرع.

غرف البطانيات غرفا، طواها ولف الغطاء حولها. رفع بصره فلامس الثلج عينيه. كادت النار تكون فحما ولم يبقَ لها وهج يضيء وكان الحطب قد نفذ تقريبا. الأشجار تتهاوى من حولهما دون أن يرياها فالظلام دامس. تشبث الصبي به. تحركا دونما توقف. حاول أن يجد مكانا خاليا تحت جناح الظلام لكنه أخيرا وضع الغطاء على الأرض، جلسا فوقه مباشرة، سحبوا البطانيات فوقهما وقرب الصبي منه. أصوات ارتطام الأشجار المتهاوية بالأرض مع الصوت الخفيض لأحمال الثلوج كانت تحدث ما يشبه الانفجار فتجعل الغابات ترتعد. ضم الصبي وأخبره بأن الوضع سيتحسن وأن كل شيء سيتوقف قريبا. بعد برهة من الوقت كان كل شيء قد توقف. المجنون الكئيب يموت بعيدا وأيضا مرتحلا وحده وبعيدا جدا. ومن ثم إلى العدم. قال: هناك، أعتقد أنها تلك. حضر نفقا تحت إحدى الشجرات المتساقطة. انكب يغرف الثلج بكلتا يديه ويبعده. كان يحضر الثلج بأصابعه المتجمدة التي جعلها داخل كميته. جرا جسديهما جرا ووضعا عليهما البطانيات والغطاء. بعد برهة ناما من جديد على الرغم من البرد القارس.

عندما طلع النهار شق طريقه خارجاً من وكرهما. كان الغطاء مثقلاً بالثلج. وقف ونظر حوله: توقف الهطل. أشجار الأرز مغمورة بتلال من

الثلج. أغصان متكسرة وجذوع أشجار قليلة ما تزال منتصبة، عارية جرداء ومحتركة. مشهد طبيعي مصطبغ بلون الرماد. شق طريقه وسط الثلوج التي تغمر الأرض تاركا الصبي ينام تحت الشجرة كأنه حيوان يغط في سبات طويل عميق. تكدس الثلج فصار يغمر رجليه حتى الركبتين. أتت الثلوج على نباتات البردي الميتة والمنتشرة في الحقل فغمرتها أو كادت. تجمع الثلج فوق أسلاك السياج كأنما أعملت فيه مواسي الحلاقة فخلفت أثلاما وشقوقا. أما السكون فيحبس الأنفاس رهبة. انتابه السعال فتوقف واستند إلى عمود. لديه فكرة بسيطة عن المكان الذي توجد فيه العربة. خطري في باله أنه قد حمق وفسد عقله ولم يعد يعمل كما ينبغي. قال لنفسه: ركز، عليك أن تفكر. عندما التفت كي يعود كان الصبي يناديه. قال: علينا أن نرحل، لا نستطيع البقاء هنا.

حدق الصبي بالثلوج المتراكمة فوق الأرض مكتئبا.

- هيا.

شقا طريقهما نحو السياج.

قال الصبي: إلى أين نحن ذاهبان؟

- يجب أن نعثر على العربة.

وقف حيث هو واضعا كفيه تحت إبطيه داخل السترة.

قال الرجل: تعال. عليك أن تأتي.

خاض في الثلوج الموحلة عبر الحقول يشق طريقه بصعوبة بالغة. تكدس

الثلج عميقا ورماديا وكانت تنهال عليه موجة جديدة من الرماد. شق

طريقه بجهد كبير متقدما عدة خطوات، ثم التفت ونظر إلى الورا. كان الصبي قد سقط أرضا. رمى البطانيات والغطاء من يديه وعاد ثم سحب الصبي الذي كان يرتجف. أنهضه وعانقه قائلا: أنا آسف. أنا آسف.

بددا وقتاً طويلاً؛ بحثاً عن العربة. عثرا عليها، سحبها من تحت الثلوج التي ركمتها. نبش عميقاً في محتويات العربة، أخرج الحقيبة، نفضاها وأقحمها في إحدى البطانيات. وضع الحزمة والبطانيات الأخرى والمعاطف في السلة. أنهض الصبي، رفعه ثم وضعه فوق تلك الأشياء. فك رباط حذائه وخلعه عن قدميه. أخرج سكينه وقطع أحد المعاطف إلى قطع، ثم لف بها قدمي الصبي. استهلك معطفا كاملاً. ثم قطع قطعاً مربعة الشكل من الغطاء البلاستيكي، طبقتها فوق بعضها، جعل تحتها شيئاً من بطانة أكمام المعطف، وزعها على كاحليه ثم ربطهما ورجع إلى الورا. نظر الصبي إليه وقال: الآن أنت، أبي. لف الصبي بأحد المعاطف وجلس على الغطاء وسط الثلوج وشرع يلف قدميه. وقف ودس كفيه في سترته؛ ليعت فيهما الدفء ثم وضع حذاءيهما في الحقيبة إضافة إلى المنظار وسيارة الطفل. نفض الغطاء، لفه وحزمه مع البطانيات الأخرى، حزمها جميعاً، وضعها مع الحزمة الأخرى ورفعها فوق كتفه وألقى نظرة أخيرة على السلة وقال: لقد أنهيت الأمر، دعنا نذهب. التفت الصبي وألقى نظرة واحدة وأخيرة على العربة وتبعه نحو الطريق.

كان الوضع أصعب حتى مما خمن وقدر. في غضون ساعة من الزمن قطعاً مسافة ميل واحد تقريباً. وقف ونظر إلى الصبي وراءه. وقف الصبي وانتظر.

- تظن أننا أوشكنا على الموت. أليس كذلك؟

- لا أعرف.

- ليس الموت وشيكا.

- حسنا.

- لكنك لا تصدقني.

- لا أعرف.

- لماذا تعتقد أننا سنموت؟

- لا أعرف.

- كف عن ترديد عبارة لا أعرف.

- حسنا.

- لماذا تعتقد أننا سنموت؟

- ليس لدينا ما نأكله.

- سوف نجد ما نأكله.

- حسنا.

- كم من الوقت يستطيع الناس في اعتقادك أن يبقوا من دون طعام؟

- لا أعرف.

- ولكن كم من الوقت تظن..؟

- أياما قليلة.. ربما.

- ثم ماذا؟ تسقط ميتا.

- نعم.

- حسنا. لن يكون ذلك. هذا يستغرق زمنا طويلا. لدينا ماء. هذا هو الشيء الأكثر أهمية. لا تستطيع الاستمرار والبقاء وقتا طويلا دونما ماء.

- حسنا.

- لكنك لا تصدقني.

- لا أعرف.

- نظر إليه متفحفا، كان واقفا في مكانه واضعا يديه في جيبى سترته الفضفاضة التي لا تناسب مقاسه.

- أوتظن أنني أكذب عليك؟

- لا.

- ولكن تعتقد أنني ربما أكذب فيما يتعلق بالموت.

- نعم.

- حسنا. ربما أفعّل، لكننا لسنا في حالة احتضار.

- حسنا.

تفحص السماء. مرت أيام رق فيها الدثار المعتم المظلم الرمادي الذي يحجب السماء. أما الآن فالأشجار المنتصبّة على طول الطريق تلقي بظلالها الباهتة جدا فوق الثلج. تابعا سيرهما. الصبي لا يتحرك كما ينبغي. توقف، فحص قدميه وأعاد ربط قطع البلاستيك حول كاحليه. عندما بدأ ذوبان الثلوج صار من الصعوبة بمكان الإبقاء على أقدامهم جافة. توقف مرارا وتكرارا؛ كي يستريحا. خارت قواه ولم تعد تعينه على حمل الصبي. جلسا فوق الحزمة التي بحوزتهما وأكلا شيئا من الثلج القذر. بدأ الثلج يذوب بعد الظهر. مرا بيت محترق لم يبق منه إلا مدخنة

قرميديّة منتصبّة في باحته. أمضيا يومهما كله على الطريق؛ مشيا خلاله ساعات قليلة لم يتقدما خلالها سوى مسافة ثلاثة أميال، وذلك بسبب الأجواء السائدة.

اعتقد أن ظروف الطريق بالغة السوء الأمر الذي يقطع بعدم وجود أي شخص عليه لكنه كان مخطئاً. خيما فوق الطريق عينه تقريبا حيث أضرمنا نارا عظيمة. كانا يسحبان أغصان ميته من بين الثلوج ويلقيان بها في النار فتسهسّس وتتبخّر. لم يكن ممكنا تجنب إضرار النار فاللبطانيات القليلة التي يحتفظان بها لم تكن لتوفر لهما الدفء. حاول أن يبقى مستيقظا. كان ينهض من نومه فيستوي قاعدا وهو يرتعش ويمد يده يتحسس الأمكنة حوله. بحثا عن المسدس. الصبي نحيل جدا، نظر إليه وهو نائم؛ وجهه مشدود وعينان غائرتان. أي جمال غريب هذا؟ نهض، جر مزيدا من الحطب وألقى به في النار.

توجها نحو الطريق ثم توقفا فيه. يوجد آثار مطبوعة على الثلوج، إنها آثار لعربة ذات عجلات مطاطية ضيقة وثمة آثار حذاء مطبوعة متجها جنوبا. مر فجرا وتحرك على الطريق ليلا. وقف يفكر بالأمر. تفحص آثار الأقدام بعناية. مر صاحبها بمحاذاة النار تابع السير لمسافة خمسين قدما ولم يتباطأ لإلقاء نظرة. توقف ونظر إلى الطريق وراءه بينما كان الصبي ينظر إليه.

- يجب أن نخرج عن الطريق.

- لماذا يا أبي؟

- شخص ما قادم.

- هل هم عصابة الأشرار؟
- نعم، أخشى أن يكونوا هم.
- من المحتمل أن يكونوا أناسا طيبين، أليس كذلك؟
- لم يجب، نظر إلى السماء جريا على عادته القديمة لكن لم يكن هناك ما يراه.
- ما الذي سنفعله يا أبي؟
- دعنا نذهب.
- هل نستطيع العودة إلى حيث توجد النار؟
- لا، هيا فليس لدينا متسع من الوقت.
- إني جائع حقا.
- أعرف.
- ما الذي سنفعله؟
- يجب أن نختبئ في جحر. علينا أن نبتعد عن الطريق.
- هل سيرون آثار أقدامنا؟
- نعم.
- ماذا نستطيع أن نفعل حيال ذلك؟
- لا أعلم.
- هل سيعلمون من نحن؟
- ماذا؟
- في حال رؤيتهم لآثار أقدامنا، هل سيعلمون من نحن؟

- التفت إلى الورا وألقى نظرة من الآثار التي خلفتها أقدامهما على الثلج، وقال: سوف يكتشفون مكاننا.

ثم توقف.

نحن بحاجة إلى التفكير بالأمر. فلنعد إلى النار.

فكر بأن يجد مكانا ما على الطريق بحيث يكون الثلج قد ذاب فيه كليا. ثم خطر في باله أن آثار أقدامهما لن تظهر من جديد على الجانب الآخر البعيد وهكذا لن يكون الأمر ذا جدوى. دفعا بأقدامهما ثلجا وجعله فوق النار. سارا بين الأشجار، دارا دورة ثم رجعا. أسرعنا مخلفين متاهة من آثار الأقدام ثم شرعنا بالعودة والمسير شمالا عبر الغابات وجعلنا الطريق في مرمى النظر.

المكان الذي انتقيناه كان ببساطة عند أعلى نقطة وصلا إليها. بحيث يتمكنان من رؤية الشمال على طول الطريق ويشرفان على طريق الرجوع. فرد الغطاء فوق الثلج البارد ولف الصبي بالبطانيات وقال: سوف تتعرض للبرد. لكن أرجو ألا نمكث هنا طويلا. في غضون ساعة تحدر رجلان من الطريق يذرعانه بخطى واسعة. بعد أن تخطيا المكان وقف كي يراقبهما؛ عندها توقفا والتفت أحدهما ونظر إلى الورا. تجمد. كان ملتفا بإحدى البطانيات الرمادية، فرؤيته صعبة لكنها ليست مستحيلة. من المحتمل أن يكونا قد شما رائحة الدخان. وقفا يتحادثان ثم واصلنا السير. جلس وقال: لا بأس. علينا أن ننتظر وسوف نكون بخير.

لا طعام لديهما على مدى خمسة أيام، أما نصيبهما من النوم فهو قليل وفي حال كالتى هما عليها في ضواحي بلدة صغيرة فوجئا بوجود بيت ضخم

يقع في مكان مرتفع على الطريق. توقف الصبي وأمسك بيده. ذاب الثلج معظمه عن الأرض المرصوفة بالحصباء وعن الغابات والحقول المنتشرة قبالة الجنوب أيضا. وقفنا هناك. القمع البلاستيكية مضى عليها وقت طويل مذ جعلنا منها نعلا بديلة، فغدت أقدامهما رطبة وباردة. كان البيت منيفا وفخما وعبر واجهته تنتصب أعمدة بيضاء مصممة وفق الطرز المعمارية الإغريقية البسيطة، رواق جانبي للعربات والسيارات. طريق مفروش بالحصى يمتد من الطريق العامة إلى مدخل المبنى مرورا بحقل تنتشر فيه أعشاب ميتة. أما النوافذ فهي سهلة سليمة لم تصب بأذى.

- ما هذا المكان يا أبي؟

- اصمت. دعنا فقط نقف هنا وننصت.

لا وجود لشيء. تخلخل الريح في نبات السرخس الميت المنتشر على جانب الطريق فيسمع حفيفها. صوت باب أو مصراع آتٍ من بعيد.

- أعتقد أن علينا إلقاء نظرة.

- لا تدعنا نذهب إلى هناك يا أبي.

- حسنا.

- لا أعتقد أن علينا أن نذهب إلى هناك.

- حسنا. علينا أن نلقي نظرة.

تقدما ببطء عبر الطريق الموصل إلى البيت. لا آثار لأقدام أو غيرها على التشكيل العشوائي لبقايا الثلوج بعد ذوبانها. سياج طويل من الشجيرات الميتة؛ على غصن داكن يوجد عش عصافير قديم. وقفنا في فناء المنزل يتفحصان واجهته: قرميد البيت المصنوع يدويا ملطخ بالأوساخ المحترقة

والعائقة فيه. الدهان المتقشر استحال خيوطا متجففة منذ زمن بعيد عالقة أسفل الأعمدة وعلى سطوح القنطرة الدنيا المتفضنة. مصباح كهربائي مثبت في نهاية سلسلة طويلة تدلى من الأعلى. تشبث الصبي به وركبا السلم. إحدى النوافذ مفتوحة فتحة صغيرة وقد أرسل عبرها حبل مرور بالرواق، ليختفي بين الأعشاب. أمسك يد الصبي واجتاز الرواق. كان البيت ذات يوم يعج بالعبيد الذين يمشون في جنباته يحملون الطعام والشراب في صوان من فضة. توجهوا إلى النافذة ونظروا عبرها إلى داخل البيت.

- ماذا لو وجد شخص ما هنا يا أبي؟

- لا يوجد أحد هنا.

- علينا أن نرحل يا أبي.

- يجب أن نجد شيئا نأكله. لا خيار لنا.

- يمكننا إيجاد شيء في مكان آخر.

- ستكون الأمور بخير. تعال.

استل المسدس من حزامه وحاول فتح الباب فدار متمحورا على مفصلاته النحاسية الضخمة ببطء. وقفا منصتين، ثم دلفا إلى ردهة فسيحة كبلمة برخام أبيض وأسود على غرار الدومينو. درج عريض صاعد. الجدران مغطاة بورق موريس الفاخر لكنه تبلل بالمياه فتلطخ وتدلى، وكذا الجص الذي يكسو السقف منتفخ ومتدل. الحلية المعمارية المصفرة والمصممة على شكل نتوءات قد تقوست ونتاجت من الجدران العليا. إلى الجهة اليسرى من المدخل انتصبت خزنة ضخمة لأدوات المائدة، مصنوعة من خشب

الجوز في غرفة يفترض أن تكون حجرة طعام. أتى الحريق على أبوابها وأدراجها، أما ما تبقى منها فكان أضخم من أن يحترق. في إحدى زوايا الغرفة تكومت كومة كبيرة من الثياب: ألبسة، أحذية، أحمرة، معاطف، بطانيات، أكياس نوم قديمة. سوف يكون لديه متسع من الوقت كي يفكر في أمرها لاحقاً. تشبث الصبي بيده، كان مذعوراً. اجتازا الردهة وصولاً إلى الغرفة الموجودة في الجانب الآخر. دخلها وتوقفا؛ قاعة ضخمة لغرفة ترتفع أسقفها ضعف ارتفاع أبوابها. مستوقد نار مصنوع من القرميد؛ إطاره الخشبي منتزع من مكانه ومحترق. يوجد فرشاة ومفارش وشراشف مرتبة على الأرض وموضوعة قبالة الموقد.

همس الصبي: أبي.

قال له: اصمت.

كان الرماد بارداً وبضعة قدور متفحمة تبعثرت هنا وهناك. جثا على عقبية، التقط أحد القدور، شمه ثم أعاده إلى حيث كان. نهض وأطل من النافذة. أثار أقدام على العشب الرمادي وتلج بلون الرماد. الحبل المرسل عبر النافذة مربوط بجرس نحاسي والجرس مثبت على موجه خشبي خشن والموجه مثبت على إطار النافذة. أمسك يد الصبي ونزلا عبر رواق خلفي ضيق إلى المطبخ. نفايات مكومة في كل مكان. بقع صدئة. روائح قذرة وعفنة. دخلاً إلى الغرفة المحاذية، قد تكون حجرة للمؤن ولإعداد الأطعمة. يوجد في أرض تلك الغرفة باب أو هو بويب لمخزن أرضي مقفل بقفل ضخم مصنوع من عدة طبقات من الصفائح الفولاذية. وقف ينظر إليه.

قال الصبي:

- أبي، يجب علينا أن نذهب يا أبي.

- ثمة سبب كامن وراء إقفال هذا الباب.

سحبه الصبي من يده. كان وشيكا من البكاء. قال:

- أبي.

- يجب أن نأكل.

- أنا لست جائعا يا أبي. لست جائعا.

- نحتاج إلى قضيب معدني أو أي شيء نخلع القفل.

خرجا من الغرفة عبر الباب الخلفي. الصبي متشبث به. دس المسدس في حزامه ووقف يجيل النظر في باحة المنزل. يوجد ممشى قرميدي وهيكل سلكي وملتولما كان فيما مضى صفا من أشجار البقس الحراجية. يوجد في البهو مسلفة حديدية قديمة تستعمل في تمهيد الأرض وتسويتها وهي مرفوعة على أعمدة من الآجر المتراكب بعضه فوق بعض. وقد أقحم أحدهم بين شفرات المسلفة مرجلا مصنوعا من حديد الزهر سعته أربعون غالونا، وهو من النوع الذي كان يستعمل في تذويب الشحوم. تحته يوجد رماد نار وقطع حطب متفحمة وقريبا من أحد جانبيه ثمة عربة صغيرة ذات عجلات مطاوية. لقد رأى كل هذه الأشياء ولم يرها. في الجانب الآخر من الباحة هناك غرفة خشبية لتدخين اللحوم والأسماك تملؤها سقيفة تحتوي على أدوات وعدد عبر الباحة وهو يكاد يسحب الصبي سحباً. وقف في برميل يعلوه سقف السقيفة وشرع يصنف العدد. أخرج رفشا ذا مقبض طويل، رفعه بيده وقال: اتبعني.

عاد إلى البيت وبدأ يقطع الخشب المحيط بالمسامير المثبتة لمشبك الباب.
 أخيراً ركز نصل الرفش تحت المسامير وثبته بإحكام ثم خلعها.
 كانت المسامير مصوملة داخل الخشب لذلك تم خلع القفل وكل ما حوله.
 أقحم نصل الرفش تحت حافة الجوانب، توقف وأخرج ولاعته. وقف
 فوق مكان التقاء الرفش بمقبضه ورفع حافة البويب ثم اتكأ وأمسك به.
 همس الصبي:
 - أبي.

توقف وقال:

- أصغ إلي وكف عن هذا، إننا نموت جوعاً. هل تفهم؟

ثم رفع البويب، أزاحه ثم وضعه على الأرض خلفه وقال:

- انتظر هنا.

- إني ذاهب معك.

- ظننت أنك كنت خائفاً.

- بل أنا خائف.

- حسناً، ابقْ خلفي وقريباً مني.

هبط الدرجات الخشبية الخشنة بسرعة، أخفض رأسه، نقر الولاعة
 نقرة خفيفة، أشعلها، وجه اللهب صوب الظلام في طقس يشبه طقوس
 تقديم القربان. برد ورطوبة ورائحة نتانة فظيعة. تشبث الصبي بمعطفه.
 تمكن من رؤية جزء من الجدار الحجري. أرض قرميذية فوقها فراش
 قديم مبقع وداكن اللون ربض في مكانه ثم هبط الدرج من جديد. مد

يده مقدما ضوء الولاة أمامه. رأى مجموعة من الناس ذكورا وإناثا محتشدين عراة عند الحائط الخلفي. كل منهم يحاول أن يختبئ وأن يحجب وجهه بيديه. على الفراش يوجد رجل ساقاه مبتورتان من مفصلي الوركين وقد خلفا تحتها جدعتين متفحمتين ومحروقتين. ورائحة المكان بشعة.

ثم التفتوا واحدا تلو الآخر وهم ينظرون بعيون طارفة ومختلجة في ظل ضوء مثير للشفقة ثم همسوا: ساعدنا. نرجوك أنجدنا.

التفت وسحب الصبي سحبا وقال له: أسرع.. أسرع.

كان قد أسقط الولاة أرضا، لكن لا وقت لديه كي ينظر أين سقطت. دفع الصبي نحو أعلى الدرج. صاحوا: أنجدنا.
- أسرع.

لاح وجهه ملتج أسفل الدرج وهو ينظر بعينين تختلجان وقال:
أرجوك.. أرجوك.
- أسرع.. بحق الله أسرع.

دفع الصبي بقوة عبر البويب وجعله يتسلق الدرج بجهد وصعوبة. وقف، أمسك الباب، هزه ودفعه عاليا بعنف ثم تركه يسقط على الأرض محدثا ضجة داوية. التفت كي يمسك بالصبي لكن الصبي كان قد انتصب واقفا وبدأ يؤدي رقصة الذعر الصغيرة الخاصة به. قال له بصوت خافت: هل لك أن تأتي حبا بالله. لكن الصبي كان يشير إلى إليها أصابته القشعريرة. كان أربعة رجال ملتحون وامرأتان يتقدمون

عبر الحقل متجهين نحو البيت. أمسك بيد الصبي وقال: اركض.. اركض.

اندفعا بسرعة هائلة عبر البيت نحو الباب الأمامي هبطا الدرج. في منتصف الدرب الذي يصل بين البيت والطريق جرى الصبي إلى الحقل ونظر إلى الوراء. كانت الخرائب والنباتات اليابسة تحجبهما نسبيا لكنه يدرك أنه في أحسن الأحوال لديهما عدة دقائق فقط وربما لم يعد لديهما وقت على الإطلاق. عند أسفل الحقل شقا طريقيهما عبر صف من قصب الخيزران الميت. وصلا إلى الطريق ثم عبراه وصولا إلى الغابات الموجودة في الجانب البعيد. أحكم قبضته على معصم الصبي أكثر وأكثر وهمس: اركض، علينا أن نركض. نظر إلى البيت لكنه لم يستطع أن يرى شيئا. إن مروا عبر الطريق الذي يصل إلى البيت فسوف يرونه يركض مع الصبي بين الأشجار. هذه هي اللحظة. هذه هي اللحظة. سقط على الأرض وسحب الصبي إليه وقال له: اصمت.. اصمت.

- هل سيقتلوننا يا أبي؟

- اصمت.

جلسا بين الأغصان والرماد وقلباهما يخفقان بشدة. أوشك أن يسعل. كان عليه أن يغلظ فمه بيده، بيد أن الصبي ممسك بها ولا يريد أن يفلتها. وكان يقبض باليد الأخرى على المسدس. عليه أن يركز؛ كي يخمد نفسه وصوته وفي الوقت عينه كان عليه أن يصغي. أدار ذقنه بين الأغصان، محاولا أن يرى، همس: أبق رأسك منخفضا.

- هل هم آتون؟

- لا.

تقدما ببطء بين الأغصان نحو أرض بدت كأنها أكثر انخفاضا. اضطجع يصغي وهو ممسك بالصبي. استطاع أن يسمعهم وهم يتحدثون على الطريق. صوت امرأة. ثم سمعهم وهم عند الأغصان اليابسة. أمسك يد الصبي فجأة ووضع فيها المسدس وهمس: خذه.. خذه. روع الصبي. لف ذراعه حوله وعانقه. جسده نحيل جدا. قال له:

- لا تخف.

عليك أن تفعلها إن هم وجدوك. هل تفهم؟ اسكت، لا تيك. هل تسمعني؟ أنت تعرف كيف تفعلها. ضعه في فمك وأطلق. افعلها بسرعة وبقوة. هل تفهم؟ كف عن البكاء. هل تفهم؟

- أعتقد ذلك.

- كلا. هل تفهم؟

- نعم.

- قل: نعم أنا أفهم يا أبي.

- نعم أنا أفهم يا أبي.

نظر إليه فلم ير فيه الذعر. أخذ المسدس منه وقال:

- كلا، أنت لا تفهم.

- أنا لا أعرف ماذا أفعل يا أبي. لا أعرف ماذا أفعل. أين ستكون أنت؟

- حسنا.

- لا أعرف ماذا أفعل.

- اسكت. أنا هنا ولن أتركك.

- أتعذني؟

- نعم أعذك. كنت عازما على الركض؛ كي أحملهم على ملاحقتي من غير أن يفكروا. بيد أنني لا أستطيع أن أتركك.

- أبي.

- اسكت وابق في الأسفل.

- أنا خائف جدا.

- اسكت.

اضطجعا منصتين، أو تستطيع أن تفعلها؟ متى يحين الوقت؟ عندما يحين الوقت لن يكون هناك وقت. الوقت هو الآن. ماذا لو لم تتطلق الرصاصة؟ يجب أن تتطلق. ماذا لو لم تتطلق؟ هل تستطيع أن تهشم هذه الجمجمة العريضة بصخرة؟ هل يوجد هكذا كائن في داخلك وأنت لا تعرف عنه شيئا؟ هل يمكن أن يكون موجودا؟ احضنه بين ذراعيك. تماما هكذا. الروح سريعة. ضمه إليك. قبله وبسرعة. انتظر. المسدس الصغير المطلي بالنيكل موجود في قبضته. أوشك أن يسعل فركز كل انتباهه على كبج السعال. حاول أن ينصت لكنه لم يستطع أن يسمع شيئا. همس: لن أتركك، لن أتركك أبدا. هل تفهم؟ استلقى بين الأغصان واحتضن الصبي الذي كان يرتعد. المسدس في يده وهو يحكم قبضته عليه. طوال زمن الفسق الطويل وظلمة الليل البارد الذي لا نجوم فيه شعر بأنه ينعم بسعادة روحية، بدأ يشعر بأن لديهما فرصة.

همس: علينا أن ننتظر. البرد شديد. حاول أن تفكر لكن رأسه كان يدور ولم يكن قادرا على التركيز. كل حديثه عن الركض، لكنه لا يستطيع أن يركض.

عندما أمسى الظلام من حولهما دامسا فك أربطة الحقيبة وأخرج منها البطانيات ثم غطى الصبي الذي نام بعد وقت قصير.

سمع، ليلا صرخات شنيعة قادمة من المنزل، فحاول أن يضع يديه على أذني الصبي وبعد برهة توقف الصراخ. استلقى منصتا، عندما كان قادما إلى الطريق عبر أجمة القصب رأى صندوقا؛ شيئا يشبه مبنى صغيرا يتخذ ملعبا للأطفال. استطاع التعرف على مكانه وهو الموقع الذي كانا جاثمين عليه يراقبان الطريق.

كامنون ويقرعون جرس البيت كي يأتي رفاقهم. نام نوما خفيفا ثم صحا. ما الذي يأتي؟ وقع خطى فوق الأغصان. كلا إنها الرياح. لا يوجد شيء. جلس منتصبا ونظر صوب البيت، فلم ير إلا الظلام. هز الصبي حتى استيقظ وقال له: تعال، يجب أن نذهب. لم يجب الصبي لكنه أدرك أنه قد أفاق.

سحب البطانيات وهي على حالها دون أن يطويها وحزمها مع الحقيبة همس: تعال.

شرعا بالمسير عبر الغابات المظلمة. القمر موجود في مكان ما خلف دثار من الغيوم الرمادية التي تحجب السماء؛ لذلك استطاعا أن يميزا الأشجار فقط ولا شيء سواها. كانا يتمايلان ويترنحان كما السكارى.

- إن يجدونا يقتلوننا. ألن يفعلوا يا أبي؟

- اسكت. لا أريد مزيدا من الكلام.

- ألن يفعلوها يا أبي؟

- اصمت. بلى، نعم سيفعلونها.

ليس لديه فكرة عن الاتجاه الذي يمكن أن يكونا سائرين فيه وكان خوفه أن يدورا حول المكان عائدتين إلى البيت نفسه.

حاول أن يتذكر إن كان يعلم أي شيء عن ذلك أم أن الأمر مجرد خرافة. ترى إلى أي اتجاه يميل الرجال الضائعون. ربما تغير الحال مع الخرائط التي تمثل نصف الكرة الأرضية. أخيرا طرد الفكرة من رأسه. الفكرة الموجودة هناك يمكن أن تكون أي شيء قابل للتعديل. عقله يخدعه ويضلله. أشباح وأوهام لم يسمع بها منذ ألف سنة تنهض ببطء من سباتها. عدل هذه الفكرة.

كان الصبي يتمايل على قدميه وطلب منه أن يحمله، فقد بات يمشي فيتعث ويحكي فيتلعثم. حمله الرجل فاستغرق بالنوم من فوره؛ نام على كتفه. إنه يدرك أنه لا يستطيع أن يحمله مسافة بعيدة.

كان نائما على الأغصان في الغابة الفارقة بالظلام. استيقظ وهو يرتجف ارتجافا عنيفا. جلس منتصبا ومد يديه حوله؛ كي يتحسس الطفل فوقعت يده على أضلاعه النحيلة. الدفء والحركة. دقة القلب.

عندما استيقظ للمرة الثانية كان الضوء يكفي للرؤية. أزاح عنه البطانية ونهض فسقط أو كاد. ثبت نفسه وحاول أن يتبين ما حوله في

الغابات. ترى ما هي المسافة التي قطعها؟ سار نحو قمة تلة حيث جلس وشاهد النهار وهو يحتشد. الفجر الخجول الضنين بالضياء والعالم البارد المكفهر. وبدت له من بعيد غابة صنوبر عارية ومتفحمة. عالم هجرته الألوان وأعلن الحداد. عاد، أمسك الصبي وأجلسه. ما انفك عقله يتوثب إلى الأمام. قال يجب أن نذهب، يجب أن نذهب.

حملة عبر الحقل وكان يتوقف؛ طلبا للاستراحة بعد كل خمسين خطوة معدودة. عندما وصل إلى غابة الصنوبر جثا على ركبتيه، أنزل الصبي ومدده فوق تربة الغابة الرملية التي أوشكت أن تتعض. غطاه بالبطنيات وجلس ينظر إليه. بدا وكأنه شيء خارج من معسكر موت، يكاد يموت جوعا، منهك القوى، مريض ويسكنه الخوف. انحنى عليه، قبله، نهض ومشى حتى بلغ نهاية الغابات ثم دار حول المكان دورة أحاطت به؛ حتى يستبين ما إذا كانا في مأمن.

عبر الحقول الممتدة على طريق الجنوب استطاع أن يرى مبنى على شكل منزل وآخر على هيئة مستودع للحبوب. يبدو من خلف الأشجار منعطف الطريق. درب طويل يكسوه عشب ميت. لبلاب معترش على طول جدار حجري، صندوق بريد وسياج على طول الطريق خلفه أشجار ميتة. البرد يعم المكان والصمت يسوده ويلفه ضباب متفحم. قفل عائدا وجلس جانب الصبي. اليأس هو ما أدى به إلى هذا الحد من اللامبالاة، لكنه يدرك ألا يستطيع أن يتصرف على هذا النحو من جديد مهما كانت الحال.

لم يستيقظ الصبي منذ ساعات ومتى أفاق تملكه الذعر. لقد حدث له ذلك فيما مضى. فكر في إيقاظه، لكنه يدرك أنه لن يتذكر شيئا إن فعل.

لقد دربه كيف يستلقي في الغابات وكأنه ولد ظلي. لكن إلى متى؟ أخيراً أخذ المسدس من حزامه ووضعه تحت البطانيات إلى جانبه ونهض؛ ليشرع بالمسير.

أتى إلى مخزن الحبوب من التل الذي يشرف عليه. توقف ليرى وينصت. شق طريقه نزولاً عبر خرائب كانت بستانا للفتحاح. ما بقي منه الآن جذوع مشوهة ومتفحمة. غاص حتى ركبتيه في الأعشاب الميتة. وقف عند باب مستودع الحبوب وأنصت. ضوء مضلع شاحب. مشى بمحاذاة مرابط للخيال يكسوها الغبار. وقف في مركز المستودع وأصغى لكنه لم يسمع صوتاً. اعتلى الدرج إلى الدور العلوي وكان ضعيفاً لدرجة لم يكن واثقاً معها أنه قادر على إتمام الصعود حتى النهاية. مشى حتى بلغ نهاية الدور العلوي. نظر عبر النافذة العالية في المبنى الجملوني إلى الريف من حوله: الأرض المرقعة ميتة ورمادية، السياج والطريق.

توجد باللات من التين في الدور العلوي. جلس القرفصاء وانتقى حفنة من حبوب التين وجلس يمضغها. قاسية وجافة ويعلوها الغبار. عليهما أن يحتفظا بشيء من الغذاء. نهض ودحرج بالتين على الأرض وتركهما تسقطان على أرض المستودع. سمع صوت ارتطامهما متزامناً مع غبار علا منهما. عاد إلى الجملون ووقف يتفحص ما استطاع أن يراه من البيت القائم خلف زاوية المستودع ثم عاد أدراجه عبر الدرج.

يبدو أن العشب المنتشر بين المنزل والمستودع لم يطأه أحد. عبر المكان قاصداً الرواق الذي كان يغطيه العفن. دراجة طفل هوائية. باب المطبخ مفتوح، اجتاز الرواق ووقف عند المدخل. المطبخ مزين بألواح من خشب

متجعد ورطب وهو من النوع الرخيص. دخل إلى الغرفة وقد تلاشت قواه وأوشك أن ينهار. توجد طاولة فورميكا حمراء. عبر الغرفة وفتح باب الثلجة. ثمة شيء موضوع على أحد الأرفف، طبقة من العفن رمادية اللون. أغلق الباب. نفايات في كل مكان. تناول مكنسة من الزاوية وأخذ ينكش بمقبضها النفايات. اعلى طاولة طويلة وشرع يتحسس طريقه عبر الغبار المتراكم وصولاً إلى السطح العلوي للخزائن. مصيدة فئران. علبة تحتوي على شيء لا يعرفه. أزاح الغبار عنها فإذا هي علبة مسحوق بنكهة العنب يستعمل في تحضير مشروبات. وضعها في جيب معطفه.

جال في المنزل ودخل الغرفة الموجودة فيه الواحدة تلو الأخرى. لم يعثر على شيء. وجد ملعقة في درج ملحق بسرير فوضعها في جيبه. اعتقد أنه سيجد بعض الملابس في خزانة أو بعضاً من مستلزمات الفراش. خاب ظنه. عاد، خرج من المنزل ودلف إلى مرآب السيارات. بدأ يصنف العدد: أدوات لتقليب التربة وتسويتها، رفش، مرطبات موضوعة على الرف تحتوي على مسامير وبراغي إضافة إلى قطعة علب؛ أدناها من الضوء، نظر إلى نصلها الصدئ. ثم أعادها إلى مكانها وعاد فالتقطها من جديد. فك النصل القديم، وضعه على الرف واستبدله بآخر جديد ثم ثبت المقبض على النصل ووضع القطاعة في جيبه. التقط المقبض ووضع في جيبه.

عاد إلى المستودع. لديه قطعة من قماش اعترم استعمالها في التقاط حبات من التين الموجود في البالة بيد أنه عندما عاد إلى المستودع توقف ينصت إلى صوت الرياح. صوت صرير صفيح صادر عن السقف من فوقه. ما تزال عالقة في المستودع رائحة لأبقار كانت فيه. توقف في مكانه يفكر في الأبقار فأدرك أن جنس البقر قد انقرض. هل هذا صحيح؟ هل يحتمل

وجود بقرة في مكان ما تطعم ويعتنى بها؟ أمممكن هذا؟ تطعم ماذا؟ ولماذا يعتنى بها؟ خلف الباب المفتوح تمر الرياح عبر العشب الميت فيسمع صريفها جافا. خرج من المستودع ونظر عبر الحقول نحو غابة العنب حيث ترك الصبي نائما. سار عبر البستان وتوقف من جديد. لقد داس على شيء. خطأ خطوة إلى الوراء، جثا على ركبتيه وباعد يديه ما بين الأعشاب. إنها تفاحة. التقطها وقربها من الضوء. قاسية، بنية اللون وذواوية. مسحها بقطعة قماش وعض منها قطعة؛ جافة. تكاد تكون بلا طعم، لكنها تفاحة. أكلها كلها بقشرتها وبذورها. أمسك سويقها بين إبهامه والسبابة وتركها تسقط. ثم مشى بين الأعشاب يدوس عليها برفق. مازالت قدماه ملفوفتين بقطع من المعطف ومزق من الغطاء. جلس، فك وثاقهما، وضع الأربطة في جيبه ومشى حافي القدمين. في الوقت ذاته كان قد وصل إلى عمق البستان حيث عثر على أربع تفاحات أخرى، وضعها في جيبه وقفل عائدا. سار في دروب البستان؛ مر بها دربا فدربا إلى أن وطئت قدمه بين الأعشاب ما ليس يدري ما هو. تجمع لديه من التفاح ما لا طاقة له بحمله. تحسس الفراغات المحيطة بالجذوع. ملاً جيوبه، وضع تفاحا على طوله. ألقى كل ما معه من تفاح عند باب مستودع الحبوب جاعلا منه كومة وجلس يلف قدميه الخدرتين المتبلدتين بسبب البرد القارس.

في غرفة مبنية بالطين وملحقة بالمطبخ رأى سلة قديمة مصنوعة من أغصان صغيرة لدنة مجدولة مهلوة بأوعية زجاجية منزلية حابسة للهواء. سحب السلة، وضعها على الأرض وفرغها من الأوعية الزجاجية. قلبها وأزال عنها الأوساخ ثم توقف. ما الذي رآه؟ إنه أنبوب تصريف وتعريشة. تعريشة ملتفة لكرمة ميتة؛ تشكيلها يشبه خطأ بيانيا

لمؤسسة تجارية. وقف، عاد إلى المطبخ ومنه إلى الفناء حيث وقف ينظر إلى المنزل. النوافذ تعكس نهارا رماديا وقبيحا. أنبوب التصريف يمتد وصولا إلى زاوية الرواق. ما زال يحمل السلة، وضعها على الأرض وصعد الدرج من جديد. يمر الأنبوب من تحت عمود الزاوية ويدخل في خزان إسمنتي. أزال ما كان على غطاءه من نفايات وعفن. عاد إلى المطبخ، أحضر مقشاة وكنس الغطاء حتى صار نظيفا. وضع طرف المقشاة في الزاوية ورفع الغطاء عن الخزان. يوجد داخله صينية مملوءة برواسب طينية رمادية رطبة ممزوجة بخليط من الأغصان والأماليد الميتة. رفع الصينية، أخرجها من الخزان ووضعها على الأرض. وجد تحتها حصاء بيضاء اللون. قلب الحصى بيده وفرغ المكان منه فظهرت طبقة من الفحم النباتي وقطع محروقة من أعواد وأغصان كاملة هي مجسمات كربونية متفحمة للأشجار ذاتها أعاد الصينية. يوجد في الأرض حلقة شد نحاسية خضراء. مد يده، تناول المقشاة ونظف المكان من الرماد. نظف الجوانب والحواف، جثا على ركبتيه، جعل أصابعه على شكل كلاب، أدخلها بحلقة الشد وأدارها على محورها ثم فتح الباب. يوجد في القاع المظلم حوض مملوء بمياه شديدة العذوبة لدرجة استطاع معها أن يميزها بواسطة الشم دون أن يذوقها. تمدد واضعا بطنه على الأرض ومد يده إلى الماء فلامست أصابعه صفحة الماء. تقدم إلى الأمام ومد يده من جديد. ملأ كفه بالماء، شمه، ذاقه ثم شرب. قضى وقتا طويلا وهو يمد كفه إلى الماء، يملأ راحة اليد منه ثم يشرب. ليس في ذاكرته عن كل الأشياء والأمكنة ما هو بهذا القدر من الطيب واللذة.

عاد إلى الغرفة الطينية الملحقة بالمطبخ وأتى بمرطبانين ووعاء معدني قديم مطلي بلون أزرق. مسح الوعاء، ملأه بالماء ثم غسل به المرطبانين.

ثم غطس أحد المرطبانين حتى امتلأت ثم رفعها والماء يقطر منها. كان الماء صافيا، قربه من الضوء؛ لا يوجد فيه رسابات خلا قطعة صغيرة من الأنبوب الغاطس بالماء. أمال المرطبان وشرب. شرب ببطء لكنه أتى على معظم ما فيه من ماء. جلس حيث هو وقد انتفخت معدته. يستطيع أن يشرب المزيد لكنه لم يفعل. صب ما تبقى من ماء في المرطبان الآخر ثم شطفه، ملاًهما معا ووضع الغطاء الخشبي فوق الحوض. نهض وقد امتلأت جيوبه تقاحا. حمل مرطباني الماء وخرج إلى الحقول قاصدا غابة العنب.

لقد غاب وقتا أطول مما كان يعتزم، فأسرع وحث الخطى ما استطاع إلى ذلك سبيلا. الماء يهتز ويقرقر في معدته المنكمشة المتقلصة. جلس كي يأخذ قسطا من الراحة ثم استأنف المسير من جديد. عندما عاد إلى الغابات لم يبدِ الصبي أي نوع من الإثارة أو الاهتمام. جثا على ركبتيه وضع مرطباني الماء على الأرض بعناية وحذر. أخذ المسدس، وضعه في حزامه وجلس ينظر إلى الصبي.

أمضيا الظهرية وما بعدها جالسين يأكلان التفاح وهما ملتقان بالبطانيات ويرشفان الماء رشفا. أخرج من جيبه العلبة التي تحتوي على المسحوق المنكه بنكهة العنب، صب محتواه في المرطبان، حركه ومزجه بالماء ثم قدمه للصبي. قال الصبي: لقد فعلت حسناً يا أبي.

نام الرجل بينما واظب الصبي على النظر إليه. عندما هبط المساء انتعلا حذاءيهما، ثم ذهبا إلى البيت الموجود بالمرزعة فجمعا ما تبقى من تفاح.

صبا الماء في مرطبات ثلاثه حتى أترعاها. لف كل الأشياء التي بحوزته ببطانية ووضعها في الحقيبة، ثم لف كل البطانيات الأخرى، ربطها، وضعها فوق الحقيبة، ورفع الحقيبة فوق كتفه. وفقا عند الباب يراقبان الضوء وهو ينسحب من جهة الغرب ويرخي الستار على العالم ثم يمما شطر الطريق من جديد عبر الممر الذي يصل ما بينه وما بين البيت.

أمسك الصبي بمعطفه بينما مضى هو نحو حافة الطريق محاولا في غمرة الظلام أن يتحسس بقدميه الطريق المرصوفة. سمع صوت ساعة يسعى إليهما من مكان بعيد وما هي إلا لحظات حتى أضاءت السماء فوقهما إضاءات ضعيفة باهتة.

أخرج الغطاء البلاستيكي من الحقيبة لكن ما تبقى منه لا يكفيهما ولا يقيهما. بعد برهة بدأ هطل الأمطار. سارا متلاصقين جنباً إلى جنب فكانا يتعثران وتزل بهما أقدامهما. ليس ثمة مكان يأويان إليه. كان كل منهما قد غطى رأسه بقلنسوة معطفه. لكن المعطفين تبللا بالأمطار وثقلا وزنا. توقف محاولا إعادة ترتيب الغطاء. بدأ الصبي يرتجف بشدة وترتعد أوصاله بردا.

- إنك تتجمد. أليس كذلك؟

- بلى.

- إن نتوقف يشد البرد علينا.

- أنا الآن أعاني من البرد فعلا.

- ماذا تريد أن تفعل؟

- ألا نستطيع أن نتوقف؟

- حسنا . بلى ، نستطيع أن نتوقف .

كانت - فيما يذكر - ليلة ليلاء طويلة؛ واحدة من الكثرة الكثيرة من مثيلاتها من الليالي. اضطجعا جانب الطريق فوق الأرض الرطبة المبللة وتحت البطانيات، والأمطار تهطل فوق الغطاء فتخلف أصواتا مزعجة ومتتالية. عانق الصبي فهدأ ارتجافه بعد برهة ثم نام بعدها. تدرجت الصاعقة جهة الشمال ثم تلاشت ولم يبق سوى المطر. نام واستيقظ. تراخى المطر ثم توقف الهطل. تساءل: ترى هل الوقت قريب من منتصف الليل؟ انتابته نوبة سعال واشتدت عليه لدرجة أيقظت معها الصبي. كان قد دخل وقت الفجر منذ زمن طويل، كان ينهض من وقت لآخر وينظر جهة الشرق وبعد برهة طلع النهار.

لف معاطفهما الواحد تلو الآخر حول جذع شجرة صغيرة وفتلها مخرجا منها المياه. جعل الصبي يخلع ثيابه ولفه بإحدى البطانيات، وبينما كان الصبي واقفا يرتجف عصر المياه من ثيابه وأعادها إليه. كانت الأرض حيث كانا نائمين قد جفت، جلسا عليها وجعلا البطانيات فوقهما وهما يأكلان من التفاح ويشربان الماء، ثم شرعا بالمسير على الطريق من جديد. يسقطان فجأة ثم ينهضان وكل منهما غطى رأسه بقلنسوته، ترتعد أوصالهما من شدة البرد وليس على جسديهما سوى أسمال بالية. مثلهما في ذلك مثل الإخوة المتسولين الذين يطلقون؛ بحثا عن أقوات يومهم.

كانت ثيابهما قد جفت مساء. تفحصا الخارطة الممزقة ولكن لم تكن لديه فكرة بسيطة عن الموقع الذي هما فيه. وقف فوق مرتفع واقع على الطريق وحاول أن يحدد موقعهما واتجاههما في ظل ضوء الشفق ساعة

الغروب. تركا المرتفع وسلكا طريقا ضيقة عبر الريف أدت بهما إلى جسر، ثم إلى جدول ماء قد جفت ينابيعه. سارا ببطء بمحاذاة ضفته وحطا رحالهما تحت ضفة الجدول مباشرة. قال الصبي:

- هل نستطيع أن نضرم نارا؟

- ليس معنا ولاة.

أشاح الصبي بوجهه عنه.

- أنا آسف أسقطتها ولم أرغب في إخبارك.

- حسنا.

- سوف أجد لنا مقدحا لإخراج النار. كنت دائما أنظر حولي؛ بحثا عن

شيء كهذا، وما تزال لدينا تلك الزجاجاة الصغيرة من البنزين.

- حسنا.

- هل تشعر ببرد شديد؟

- لا بأس علي.

تمدد الصبي واضعا رأسه في حضن أبيه، وقال:

- بعد وقت قصير سيقدمون على قتل أولئك الناس. أئن يفعلوا؟

- بلى سيقتلونهم.

- لماذا عليهم أن يقتلوهم؟

- لا أعرف.

- هل سيأكلونهم؟

- لا أعرف.

- سوف يأكلونهم. أليس كذلك؟

- نعم.

- ونحن لم نستطع أن نمد لهم يد العون؛ لأننا لو فعلنا لكانوا أكلونا معهم.

- نعم.

- ولهذا السبب لم نستطع أن نساعدهم.

- نعم.

- حسناً.

مرا بيلدات كانت تحذر الناس وتبهمهم عبر رسائل مكتوبة في عجالة على لوحات إعلانية. تلك اللوحات مطلية بطبقات من الدهان الأبيض، وذلك لغرض الكتابة عليها. الدهان يشف عن كتابات خلفه تبدو شاحبة، وفيها إعلانات عن البضائع التي لم يعد لها وجود. جلسا جانب الطريق وأكلا آخر ما تبقى معهما من تفاح.

قال الرجل:

- ما هذا؟

- لا شيء.

- سنجد شيئاً نأكله. كنا دائماً نجد ما نأكله.

لم يجب الصبي، بينما كان الرجل ينظر إليه.

- ليس هذا كل ما يشغل فكرك. أهذا كل شيء؟

- حسناً.

- أخبرني.

أشاح الصبي بوجهه عنه ونظر إلى الطريق.

- أريد منك أن تخبرني. هل هذا يناسب؟

هز رأسه.

قال الرجل:

- انظر إلي.

أدار وجهه ونظر إليه. بدا وكأنه كان يبكي.

- فقط أخبرني. هذا كل ما أريده منك.

- لن نأكل أحدا من البشر أبدا. أليس كذلك؟

- لا. طبعاً لا.

- حتى وإن عانينا من مجاعة.

- نحن نعاني من المجاعة الآن.

- قلت لي: إننا لسنا كذلك.

- قلت: إننا لسنا نحتضر ولم أقل: إننا لا نعاني من مجاعة.

- لكننا لن نفعل.

- مهما كلفنا الأمر.

- نعم، مهما كلفنا الأمر.

- لأننا أناس طيبون.

- نعم.

- ونحن نحمل النار.

- ونحن نحمل النار. نعم.

- حسناً.

عثر في أحد الخنادق على حجر قد احة مفتت أو على حجر صواني. لكن في نهاية الأمر كان أسهل عليه أن يمرر الكماشة التي بحوزته على طرف صخرة تمسها مسا خفيفاً، بحيث تقدح شرراً، وقد جعل أسفل الصخرة كومة من الصوفان السريع الاشتعال وصب عليها شيئاً من البنزين. بعد يومين ثم بعد ثلاثة أيام كانا يعانيان من الجوع بكل ما في الكلمة من معنى، وكان الريف قد تعرض للسلب والنهب والإتلاف والتخريب واختلطت الأوراق فيه. الليالي كانت شديدة البرودة وحالكة الظلام ويسودها صمت رهيب بانتظار الصباح البعيد المنال. تماماً كما الفجر الذي يسبق المعركة. بشرة الصبي الملونة بلون الشمع، فضاع لونها. وقد جعلته عيناه الواسعتان المحدقتان يبدو غريباً ومختلفاً.

بدأ يعتقد أن الموت قد أمسى قريباً جداً منهما وبأن عليهما أن يبحثا عن مكان يختبئان فيه ولا يصل أحد إليه. مرت عليه أوقات كان يراقب خلالها الصبي وهو نائم ثم يجهد بالبكاء ويتهد إلى حد يفقد معه السيطرة على نفسه. لكن لم يكن الموت هو الباعث على بكائه. لم يكن واثقاً من سبب البكاء، لكنه كان يظن أن المحرض عليه هو الجمال أو الطيبة. وهي أمور لم يعد أمامه من سبيل كي يفكر فيها. جلسا في غابة جرداء وشربا ماء من حفرة بعد أن صفياه بتمريره عبر قطعة من أسمال بالية. رأى الصبي - في الحلم - صريعاً ومسجى فوق لوح تبريد. استيقظ مذعوراً. ما يستطيع أن يتحمله في أثناء اليقظة ليس له قبل به ليلاً. لم يعد إلى النوم؛ مخافة أن يعاوده الحلم.

دخلا بيوتا أمست خرائب محترقة ولم يكونا قد دخلاها من قبل. بحثا بين أنقاضها بأصابعهما؛ عليهما وجدان فيها شيئا. ثمة جثة طافية على سطح مياه سوداء اللون في أحد الأقبية وسط القمامة وأنابيب المجاري الصدئة. وقف في غرفة جلوس محترقة جزئيا وسقفها متهدم. جوانب الغرفة مشبعة بالمياه ومائلة نحو الفناء. خزانة فيها كتب مبللة ورطبة. تناول كتابا، فتحه ثم أعاده إلى مكانه. كل الأشياء رطبة ومنتنة. فتح درجا فوجد شمعة لكن لا سبيل لإشعالها. وضعها في جيبه. خرج من المنزل، مشى في ظل ضوء رمادي ثم توقف. رأى وأدرك في لحظة خاطفة حقيقة العالم المطلقة: القسوة الباردة تهيمن على كوكب الأرض الذي مات قبل أن يكتب وصيته. ظلام عنيد حقود لا يعرف الصبح. كلاب الشمس العمياء تطوف. خواء الكون الأسود الساحق. وفي مكان مجهول من العالم يوجد حيوانان طريدان يرتجفان كأنهما ثعلبان من ثعالب الأرض يلفهما غطاء. وقت مسروق في عالم مستعار وعيون هي الأخرى مستعارة وجدت كي تحزن وتأسى.

جلسا في حجرة قيادة سيارة شاحنة متوقفة في أحد أطراف بلدة صغيرة، وذلك طلبا للراحة. مكثا يحدقان بما يحيط بهما عبر زجاج السيارة الذي غسلته الأمطار التي انهمرت مؤخرا فأضحى نظيفا. كانا منهكين وحولهما غلاف خفيف من الرماد. انتصبت على جانب الطريق لافتة أخرى تحذر من الموت وهي مكتوبة بحروف بهت لونها وتضاءل وضوحها وذلك بفعل تقادم السنين عليها. أوشك أن يبتسم وقال:

- هل تستطيع أن تقرأ هذه؟

- نعم.

- لا تعر هذا الكلام أي اهتمام لا يوجد أحد هنا.

- هل صاروا في عداد الأموات؟

- أعتقد ذلك.

- أتمنى لو أن ذاك الصبي الصغير كان معنا.

قال:

- دعنا نذهب.

الأحلام الغنية الآن التي كان يكره أو يصحو منها. أشياء لم تعد معروفة في العالم. دفعه البرد إلى إذكاء النار بمقدار جديد من الحطب. ذكرها وهي تجتاز المرجة المخضرة في الصباح الباكر ميممة شطر المنزل، وهي ترتدي ثوبها الوردي الرقيق الذي يضيق عند الصدر ويلتصق به مظهرًا جماله. إنه يعتقد أن كل ذاكرة يتم استدعاؤها لا بد من أن تمارس شيئًا من العنف على أصولها. كما هو الحال في لعبة الحفل: قل كلمتك.. مررها وكن مقتصدًا ما يتبدل في الذاكرة تبقى له حقيقته في الواقع؛ سواء أكان معروفًا أم لم يكن كذلك.

عبرا الشوارع ملتفين بالبطنانيات القذرة. أبقى المسدس على خصره وأمسك يد الصبي. عند أقصى نقطة متطرفة من البلدة مرا بيت منغل قائم وسط حقل. عبرا الحقل، دخلا البيت وجالا على الغرف، وقد فوجئا برؤية نفسيهما في مرآة. أوشك الرجل أن يشهر مسدسه لولا أن الصبي قال له هامسا: هؤلاء هم نحن يا أبي. أنت وأنا.

وقف عند الباب الخلفي ونظر إلى الحقول وإلى الطريق التي خلفها وإلى الريف الأجرد الممتد خلف الطريق. في ركن من فناء المنزل يوجد

مشواة لشي اللحوم ، مصنوعة من برميل بحجم خمسة وخمسين غالونا . البرميل مقطوع على طوله ومزود بمشعل كهربائي وهو موضوع على إطار من الحديد ومثبت عليه بالتلحيم . الفناء محاط بسيياج وفيه عدد من الشجرات الميتة وفيه سقيفة تحتوي على عدد معدنية . خلع البطانية ولف كتف الصبي بها .

- أريدك أن تنتظر هنا .

- بل أريد أن أذهب معك .

- أنا ذاهب إلى هناك فقط وذلك كي ألقى نظرة . ما عليك إلا أن تجلس هنا . سوف تتمكن من رؤيتي طوال الوقت ولن أغيب عن ناظريك . إنني أعدك بذلك .

اجتاز الفناء ودفع الباب دفعا ففتحه والمسدس ما زال في يده . إنها سقيفة ملحقة بحديقة . أرضها قذرة وهي تحتوي على أرفف معدنية عليها أوعية بلاستيكية تزرع فيها الرياحين عادة . كل شيء فيها مغطى بالرماد . يوجد فيها أيضا عدد تستعمل في خدمة الحدائق وهي موضوعة في الزاوية ومعها مجزُ عشب . ثمة مقعد طويل تحت النافذة وإلى جانبه خزانة معدنية ، فتحها فوجد فيها بيانات بضائع مصورة قديمة ، علب بذار وعشبة البغونيا الاستوائية ونبتة الصباح ؛ وضعها كلها في جيبه . ولكن ما حاجته بها . يوجد على الرف العلوي علبتا زيت محرك . وضع المسدس في حزامه ومد يده وتناولهما ثم وضعهما على المقعد الطويل . كانتا قديمتين جدا ومصنوعتين من الورق المقوى وعليهما غطاءان معدنيان . تخلل الزيت الورق المقوى ونفذ منه لكن يبدو أن العلبتين ما تزالان مملوءتين . تراجع إلى الورا ونظر عبر الباب إلى خارج المنزل . كان الصبي جالسا على

درجات السلم الخلفي في البيت يراقبه وهو مدثر بالبطانيات. عندما التفت رأى علبة وقود عند الزاوية الواقعة خلف الباب. أدرك أنه لا يمكن أن يكون بها وقود الآن. أمالها بقدمه وتركها تسقط على الأرض فسال منها سائل خفيف. التقطها ووضعها على المقعد، حاول أن يفك الغطاء فلم يفلح. أخرج الكماشة من جيب معطفه، باعد ما بين فكها، أمسك بها الغطاء وأداره يمناً ويسرة ثم نزع الغطاء ووضعها على المقعد. شم العلبة؛ رائحة عفنة. لقد تقادمت عليها السنون لكنه وقود بنزين ما زال قابلاً للاشتعال. أعاد الغطاء إلى العلبة وأحكم إغلاقها ثم وضع الكماشة في جيبه. نظر حوله بحثاً عن علبة أصغر حجماً لكنه لم يعثر على شيء. لم يكن ينبغي له أن يرمي الزجاج. فتش المنزل.

عندما كان يسير بين الأعشاب شعر بشيء من الإغماء فتوقف. ترى هل كان استنشاقه لرائحة البنزين هو سبب الدوار الذي أصابه؟ كان الصبي يراقبه. كم يوماً يفصلهما عن الموت؟ عشرة أيام، ليس أكثر من ذلك بكثير. إنه عاجز عن التفكير. لماذا توقف عن المسير؟ التفت ونظر إلى العشب. رجع إلى الوراء يتحسس الأرض ويتفحصها بقدميه. وقف واستدار ثانية ثم رجع متجهاً إلى السقيفة ثم عاد يحمل رفشا من النوع الذي يستخدم في الحديقة. غرز نصل الرفش في المكان الذي توقف به فمضى شطره في التراب ثم توقف وإذا ذلك سمع صوت ارتطامه بجسم خشبي أجوف. بدأ يجرف الأوساخ ويزيحها.

كان يعمل ببطء؛ كم هو متعب. اتكأ على الرفش. رفع رأسه ونظر إلى الصبي، فرآه جالساً حيث تركه. كان يستريح كلما ملأ رفشا وأفرغه. ما استطاع أن يكشف النقاب عنه، أخيراً كان قطعة من الخشب مغطاة بطبقة

لباد. أزاح التراب عن حواف الخشبة بواسطة الرفش فاتضح أنها عبارة عن باب طوله نحو ستة أقدام وعرضه ثلاثة أقدام. في أحد طرفيه الباب يوجد مشبك وقفل مغلف بكيس بلاستيكي. أخذ قسطا من الراحة وهو ممسك بالقفل وقد جعل جبهته فوق ذراعه. عندما رفع رأسه كان الصبي واقفا في الفناء ولا يبعد سوى بضعة أقدام. كان شديد الخوف. همس:

- لا تفتحه يا أبي.

- حسنا.

- أرجوك يا أبي.. أرجوك.

- حسنا.

- كلا، هذا ليس بحسن.

وضع قبضته على صدره وبدأ يرتعد من شدة الخوف. رمى الرجل الرفش وأحاط الصبي بذراعيه، وقال:

- تعال نجلس بالرواق ولنأخذ قسطا من الراحة.

- هل نستطيع أن نذهب بعد ذلك؟

- تعال نجلس قليلا.

- حسنا.

جلسا مدثرين بالبطنيات، ينظران إلى الفناء. بقيا جالسين زمنا طويلا. حاول أن يفهم الصبي أنه لا يوجد أحد مدفون بالفناء. لكن الصبي كان يبكي. بعد برهة بدأ يعتقد أن الصبي ربما كان على حق.

- دعنا فقط نجلس حتى من غير أن نتكلم.

- حسنا.

جالا في البيت من جديد. وجد زجاجة جعة وقطعة قماش قديمة ممزقة من ستارة. مزق طرف القماش وأقحمه في عنق الزجاجة وذلك بواسطة حمالة معطف وقال:

- هذا هو مصباحنا الجديد.

- كيف نستطيع أن نجعله يضيء؟

- وجدت في السقيفة شيئاً من البنزين وبعض الزيت. سوف أريك.

- حسنا.

قال الرجل:

- تعال. كل شيء سيكون على ما يرام. هذا وعد مني.

عندما انحنى وأدخل رأسه تحت البطانية؛ ليرى وجه الصبي أدرك أن صحته قد تدهورت لدرجة لا يمكن تقويمها أو التعافي منها.

غادرا المنزل واتجها إلى السقيفة مروراً بالفناء. وضع الزجاجة على المقعد وتناول مفك براغي. فتح في غطاء إحدى علبتي الزيت ثقباً كبيراً وآخر أصغر منه وذلك كي يسهل عملية سيلان الزيت وتفريغه. سحب الفتيل من الزجاجة وصب فيها زيتاً حتى امتلأ نصفها. زيت قديم، ثقيل وشديد البرودة؛ لذلك استغرق صبه زمناً طويلاً. فتح علبة البنزين، مزق قصاصة ورق من إحدى علب البذار، صب شيئاً من البنزين في الزجاجة وسد فتحتها بإبهامه ثم رجها. صب بعد ذلك شيئاً من محتوى الزجاجة، مستعملاً مفك البراغي لهذا الغرض. أخرج قطعة من حجر القدح من جيبه. باعد ما بين فكي الكماشة وحك حجر القدح بفكها المسنن. ثم أعاد الكرة من جديد. توقف وصب شيئاً من البنزين في صحن الفخار،

وقال: من المحتمل أن تشتعل وتتوهج. هز الصبي رأسه. أطلق شيئاً من الشرر فوق الصحن فمس ما فيه مساً خفيفاً. هب لهب وردي من الصحن متزامناً مع سماع صوت انفجار خفيف.

تناول الزجاجاة، أمالها، أشعل فتيلها، أطلقاً لهب النار المشتعل بالصحن ثم ناول الزجاجاة التي كانت تنفث دخاناً إلى الصبي، وقال له: هذه هي؛ خذها.

— ماذا سنفعل؟

— ضع يدك أمام اللهب ولا تدعه ينطفئ.

نهض، تناول المسدس من حزامه، وقال:

— يبدو هذا الباب شبيهاً بالباب الآخر، لكن الأمر ليس كذلك. أدرك أنك خائف ولك الحق في أن تخاف. أعتقد أن ثمة أشياء موجودة هنا، لذا علينا أن نلقي نظرة. لا يوجد مكان آخر نلجأ إليه؛ هذه هي قضيتنا وهنا مكمن الصعوبة أساساً. أريد منك أن تمد لي يد العون، فإذا لم تكن راغباً في حمل الفانوس إذاً عليك أن تمسك المسدس.

— بل أحمل الفانوس.

— حسناً تفعل. هكذا يتصرف الأناس الطيبون، إنهم يواظبون على المحاولة ولا يستسلمون.

— حسناً.

خرجا إلى باحة المنزل، قدم الصبي أمامه وهو يحمل الفانوس الذي نفث دخاناً أسود. وضع المسدس في حزامه، التقط الرفش وشرع يقطع الخشب المحيط بمشبك الباب. وضع طرف نصل الرفش تحت المشبك،

محاوولا رفعه وخلعه. جثا على ركبتيه، أمسك القفل وكل ما يحيط به. أحكم قبضته عليه ثم رجه فتقلقل. انتزعه وألقى به على العشب. أقحم نصل الرفش تحت الباب وأدخل أصابعه تحته ثم نهض ورفع. انهالت الأوساخ من على الجوانب محدثة خشخشة. نظر إلى الصبي وقال: هل أنت بخير؟ هز الصبي رأسه صامتا وهو يحمل الفانوس. خلخل الرجل الباب ورفع ثم تركه يسقط على العشب. ظهرت عبر الظلام درجات سلم خشبي. مد يده وتناول المصباح من الصبي شرع يهبط السلم. التفت، اتكأ على يديه ثم قبل جبهة الصبي.

الغرفة التي تحت الأرض محاطة بجدران إسمنتية وأرضها مكسوة بالإسمنت وبالقرميد الذي يستعمل في كسوة المطابخ. يوجد سريران معدنيان خفيفان مزودان بنوابض ولا فراش عليهما. جعل كل منهما ملاصقا لأحد الجدارين المتقابلين. كما يوجد تحت قوائم كل سرير فرشاة ومستلزماتها وكل فرشاة مطوية بطريقة تحاكي تقاليد الجيش العسكرية. التفت ونظر إلى الصبي فرآه جاثيا على ركبتيه، منحنيا إلى الأمام وعيناه طارفتان تختلجان بسبب الدخان المتصاعد من الفانوس. هبط إلى الدرجات الدنيا من السلم وجلس دافعا الفانوس إلى الأمام وهمس:

- يا إلهي... يا إلهي!

- ماذا هناك يا أبي؟

- انزل... يا إلهي! انزل.

صندوق فوق صندوق من البضائع المعلبة: طماطم، دراق، فاصوليا، مشمش لحوم معلبة ولحم بقر مهلح. أمامه مئات الجالونات من المياه،

مناديل ورقية ومناديل حمام. كما يوجد صحون ورقية وأكياس نفايات بلاستيكية وبطانيات. أمسك جبينه بيده وقال: يا إلهي... التفت الصبي، وقال: كل شيء على ما يرام.

- انزل.

- أبي.

- انزل. تعال وانظر.

وضع الفانوس على إحدى الدرجات. صعد السلم وأمسك يد الصبي وقال له: تعال، فكل شيء على ما يرام.

- ماذا وجدت؟

لقد وجدت كل شيء؛ كل شيء. انتظر حتى ترى. جعله يهبط السلم أمامه. تناول الفانوس ورفعها عاليا قائلاً له: هل تستطيع أن ترى؟ هل تستطيع؟

- ما كل هذه البضائع يا أبي؟

- إنها أغذية. هل تستطيع أن تقرأ؟

- المكتوب هنا يشير إلى أن في العلبة إحصاء.

- أجل. نعم. أوه إنه يشير إلى ذلك. نعم هو ذاك.

لم يكن من متسع له حيث كان يقف يسمح بالحركة. انحنى ومرر رأسه من تحت مصباح معدني أخضر اللون متدل من السقف، ثم أمسك الصبي من يده. سارا يستعرضان صفوفًا من اللعب الكرتونية التي طبعت عليها بيانات بمحتوياتها: توابل، ذرة، ملفوف مطبوخ، حساء، صلصة سباجتي. إنه غنى العالم وترفه الذي تلاشى. قال الصبي:

- لماذا كل هذه الأشياء موجودة هنا؟ هل هي حقيقية؟

- نعم، إنها حقيقية.

سحب إحدى العلب، وضعها على الأرض، مزق غلافها وأخرج منها
علبة دراق، وقال: إن هذه الأشياء موجودة هنا؛ لأن أناسا ظنوا أنها ربما
يكون وجودها ضروريا وسيكونون بحاجة إليها.

- لكنهم لم يستعملوها.

- أجل، لم يفعلوا.

- لأنهم ماتوا.

- صحيح.

- وإنه جدير بنا أن نستفيد منها.

- نعم. إنهم يرجون أن نفيد منها كما نتمنى نحن - لو أنهم مازالوا

موجودين - أن ينعموا بها.

- لقد كانوا أناسا طيبين.

- نعم، لقد كانوا صالحين.

- مثلنا.

- أجل، مثلنا.

- لذلك لا بأس علينا.

- نعم نحن على صواب.

يوجد - فيما استعرضاه - سكاكين وأوعية بلاستيكية كما يتوافر بين
الأشياء غطاء مائدة وأنية مائدة فضية، إضافة إلى أدوات مطبخ موضوعة

في صندوق بلاستيكي. وجد أيضا بطاريات صغيرة مضيئة لكنها لم تكن تعمل ومفتاح علب. ثمة صندوق مليء بالبطاريات والبطاريات الجافة عاينها وتفحصها. معظمها كان متأكلا وصدئا وقد رشحت منها مواد لزجة. لكن بعضها كان يبدو بحالة جيدة. أخيرا حصل على مصباح يعمل على البطارية، أضاءه، وضعه على الطاولة وأطفأ لهب الفانوس الذي كان ينفث دخانا. مزق قطعة من علبة الكرتون المفتوحة وبدد بواسطتها الدخان. اعتلى السلم وأخفض الباب ثم التفت ونظر إلى الصبي وقال:

- ماذا تحب أن تتناول على العشاء؟

- إجاص.

- اختيارك جيد. فليكن إجاصا.

تناول زبديتين مصنوعتين من الورق من رزمة مغلقة بغلاف بلاستيكي. وضعها على الطاولة. مد دثارين فوق السريرين؛ كي يجلسا عليهما. فتح صندوقا كرتونيا يحتوي على علب الإجاص. أخرج إحداها، وضعها على الطاولة وفتحها بمفتاح علب ونزع الغطاء عنها. نظر إلى الصبي الذي كان يجلس على السرير صامتا يشاهده وهو ما يزال مدثرا بالبطانية. قال الرجل في نفسه: ربما لم يتفهم الصبي تماما ما يحدث الآن. عندما تكون في غابات مظلمة باردة يحتمل أن تصحو في أي وقت. قال الرجل: هذا الإجاص هو الأطيب مذاقا على الإطلاق؛ حقا إنه أطيب إجاص ذقته. فقط اصبر وسوف ترى.

جلسا جنباً إلى جنب يأكلان ما في العلبة من إجاص ثم تناولوا علبة دراق وأكلا ما فيها. لعقا ملعقتيهما وأمالا الزبديتين وشرب كل منهما الشراب الحلو المذاق والغني بالنكهة وهو ينظر إلى الآخر.

- علبة إضافية.
- لا أريدك أن تصاب بالغثيان.
- لن أصاب بالغثيان.
- إنك لم تأكل شيئاً منذ زمن طويل.
- أعرف.
- حسناً.

مدد الصبي على السرير. وضع رأسه على الوسادة وملس له شعره المتسخ برفق ثم غطاه بالبطانيات. عندما اعتلى السلم ورفع الباب كان قد خيم الظلام. ذهب إلى المرآب، أحضر الحقيبة وعاد. ألقى نظرة أخيرة حول المكان. هبط السلم، أغلق الباب وأقحم أحد مقبضي الكمامة في مشبك الباب؛ بغية إقفاله. أمسى ضوء المصباح الكهربائي ضعيفاً فبدأ يبحث في المواد المخزنة إلى أن عثر على وقود أبيض اللون معبأ في علب على شكل غالونات. تناول واحدة منها، وضعها على الطاولة، فك غطاءها ونزع عنها اللحام المعدني بواسطة مفك براغي. أنزل المصباح المعلق فوق رأسه وملاه بالوقود. كان قد وجد سابقاً علبة مليئة بالولاعات التي تعمل على غاز البوتان. أشعل المصباح بوحدة منها وعدل اللهب ثم علق المصباح حيث كان وجلس على السرير.

بينما كان الصبي نائماً بدأ يجول على المواد المخزنة ويفحصها بدقة وبشكل منهجي: ألبسة وستر وجوارب. حوض ماء مصنوع من فولاذ غير قابل للصدأ. قطع من الإسفنج وألواح صابون. معجون وفراشي أسنان. صندوق بلاستيكي كبير يحتوي على مسامير مصوملة وصواميل إضافة

إلى خردوات وأدوات معدنية متنوعة وذات خصائص ومظاهر مختلفة. وجد في الصندوق ذاته كيسا من القماش يحتوي على عملة معدنية ذهبية جنوب إفريقية، بحجم يعادل ملء الكف مرتين. نظف القطع الذهبية مما كان عالقا بها، فركها بأصابعه، نظر إليها ثم أعادها مع الخردوات إلى الصندوق ووضعه على الرف.

تفحص كل شيء في المخزن وكان ينقل الصناديق والأقفاص من جهة لأخرى داخل الغرفة. يوجد باب فولاذي صغير يفضي إلى غرفة أخرى تحتوي على زجاجات فيها وقود. وجد في زاوية الغرفة حماما كيميائيا جدرانه مزودة بشبكة من الأنابيب المغطاة بشبك معدني وفي أرضه فتحات لتصريف المياه والسوائل. أضى الجو أكثر دفئا في الغرفة المحصنة تحت الأرض فخلع عنه معطفه. استمر في تفحص كل الموجودات ومنها صندوق خراطيش إيه سي بي من عيار 45 وثلاثة صناديق طلقات بنادق من عيار 30 — 30. ما لم يجده هو المهندس أو البندقية. تناول مصباح البطارية وجال في المكان؛ بحثا عن حجرة خبيئة قد تكون خافية عليه. وبعد وقت قصير جلس على السرير يأكل لocha من الشوكولا. لم يجد مسدسا وأيقن أنه لا يوجد شيء من هذا القبيل.

عندما استيقظ كان المصباح المعلق فوق رأسه يطلق صوتا خافتا خفيفا، ويرسل ضوءه على الجدران والأقفاص والصناديق. لم يكن يعي أين هو. كان مضطجعا وقد اتخذ من معطفه غطاء له. جلس منتصبا ونظر إلى الصبي فإذا هو مستغرق في النوم على السرير الآخر، وكان قد خلع عنه حذاءه لكنه لا يتذكر أنه فعل. وجد حذاءه تحت السرير، انتعله وورقي السلم. سحب مقبض الكماشة من المشبك ثم رفع الباب وأنعم النظر

فيما حوله. إن هذه الساعة هي وقت الصباح الباكر. نظر إلى البيت، مد بصره نحو الطريق وكان أوشك أن يخفض الباب من جديد إلا أنه توقف. استرعى انتباهه أن الضوء الرمادي الغامض محتشد جهة الغرب وليس ناحية الشرق. إذاً لقد ناما الليل كله والنهار معظمه أيضاً. أخفض الباب، أحكم إغلاقه من جديد، هبط درجات السلم وجلس على السرير. جال بناظره على المؤن التي حوله.

كان قد جهز نفسه للموت، أما الآن فهو لم يعد يرغب في الموت. لذلك يجب عليه أن يتدبر الأمر. يمكن لأي شخص أن يرى الباب ملقى على الأرض في الفناء ومن ثم يمكنه أن يعرف من فوره ما يخبئ هذا الباب. لذا عليه أن يفكر فيما يجب عمله حيال ذلك. ما هما فيه الآن ليس مخبأً وسط الغابات، إنه أبعد ما يكون عن ذلك. أخيراً نهض واتجه نحو الطاولة ثم رفع موقد الغاز الصغير المزود بمضرمين وأشعلهما. أحضر مقلاة وغلاية وفتح علبة بلاستيكية تحتوي على أدوات مطبخ.

شرع الأب يطحن حبات البن بمطحنة يدوية صغيرة وهذا ما أيقظ الصبي. جلس منتصباً، حدق فيما حوله، وقال:

- أبي.

- مرحباً. هل أنت جائع؟

- علي أن أذهب إلى الحمام. أحتاج إلى دورة مياه.

أشار بملعقة كانت بيده إلى الباب الفولاذي المنخفض. إنه لا يعرف كيف يستعمل دورة المياه، لكنهما سيستعملانها على أي حال. لم يكونا يعتزمان البقاء في هذا المكان الوقت الطويل الذي مكثاه فيه، كما لم يكن

ينوي رفع الباب وفتحه وإغلاقه أكثر مما تقتضيه الضرورة. مر الصبي
قرب الرجل وكان شعره يتصبب عرقا وقال:

- ما هذا يا أبي؟

- قهوة ولحم وبسكويت.

هتف الصبي مبتهجا.

جر صندوقا صغيرا على الأرض، جعله بين السريرين، غطاه بمناديل
ووضع عليه صحونا وأكوابا وأنية أخرى. أخرج زبدية فيها بسكويت وهي
مغطاة بمنديل يد، ثم وضع فوق الصندوق زبدة وعلبة حليب مكثف
وملحا ولفلا. نظر إلى الصبي بدا وكأنه مخدر. جلب المقلاة من الموقد،
تناول بالشوكة قطعة لحم ووضعها في صحن الصبي. غرف غرفة من
بيض ممزوج ومقلي بالمقلاة الأخرى ثم غرف عدة ملاعق من فاصوليا
مشوية بالفرن وصب قهوة في كوبيهما. كان الصبي رافعا بصره ينظر
إلى الرجل.

قال الرجل:

- هيا لا تدع الطعام يبرد.

- ماذا أكل أولا؟

- ما طاب لك.

- أهذه قهوة؟

- نعم، تفضل. ضع شيئا من الزبدة على البسكويت هكذا...

- حسنا.

- هل أنت على ما يرام؟

- لست أدري.

- هل تشعر بالراحة؟

- نعم.

- ما هذا؟

- هل تعتقد أنه يجب علينا أن نشكر الناس؟

- الناس؟

- الذين قدموا لنا كل هذا.

- حسنا، نعم. أظن أننا نقدر على ذلك.

- هل ستفعل؟

- لماذا لا تشكرهم أنت؟

- أنا لا أعرف كيف أفعل.

- بل تعرف، فأنت تعلم كيف تقول شكرا.

جلس الصبي يحدق بالصحن. كانت تعوزه الثقة بالنفس. كان الرجل

قد هم بالكلام عندما قال الصبي:

أيها الناس الأعزاء، شكرا لكم؛ لكل ما قدمتموه لنا من طعام وغذاء.

إننا نعلم أنكم إنما ادخرتموه لأنفسكم، ولو كنتم موجودين هنا لما كنا

أكلنا منه شيئا مهما كنا جائعين. إننا نأسف؛ لأنكم لم تتمكنوا من أكل

الطعام. ونرجو أن تكونوا عند ربكم في السماء آمنين. رفع بصره ناظرا

إلى الرجل، وقال:

- هل ما قلته يفى بالغرض؟

- نعم، أعتقد أن هذا مناسب.

لم يكن يرغب بالبقاء في القبو منفرداً؛ لذا كان يتبع الرجل جيئة وذهاباً بينما كان الأخير يحضر عبوات ماء بلاستيكية إلى الحمام القائم في مؤخرة المنزل. أحضرا الموقد الصغير معهما إضافة إلى غلايتي ماء. شرع يسخن الماء ويصبه في الحوض ويصب فوقه ماء من العبوات البلاستيكية. استغرق تحضير الماء زمناً طويلاً فقد أراد دافئا وممتعا. عندما شارف الخزان على الامتلاء خلع الصبي عنه ثيابه. وضع رجليه في الماء وهو يرتجف. وقف مهزولاً، نحيلاً، قدزراً وعارياً وقد وضع كفيه على كتفيه. الضوء الوحيد المتاح كان ينبعث من تلك الحلقة المتقدة الزرقاء اللون؛ من مضمم الموقد. قال الرجل:

- ما رأيك

- دافئ أخيراً.

- دافئ أخيراً؟

- نعم.

- من أين أتيت بهذه العبارة؟

- لا أعرف.

- حسناً. إذاً دافئ أخيراً.

غسل له شعره المتلبد بالأوساخ بالإسفننج والصابون. صرف المياه القذرة المترسبة ثم جلس وشرع يصب عليه ماء عذبا دافئا من الغلاية.

لفه وهو يرتجف بردا بمنشفة ثم جعل فوقها بطانية ولفها أيضا. سرح له شعره ونظر إليه. كان البخار ينبعث منه كثيفا وكأنه دخان. قال له:

- هل أنت بخير؟

- قدماي باردتان.

- عليك أن تنتظرنني.

- أسرع.

استحم، خرج من الحوض، صب فيه مواد منظفة فوق المياه التي استحم بها ونقع فيها ثيابهما النتنة وقال:

- هل أنت جاهز؟

- نعم.

أطفأ موقد الغاز وانتظر حتى انطفأ تماما، خرج وأنار الضوء الذي يعمل على البطارية ووضعه على الأرض. جلسا على حرف الحوض وانتعلا أحذيتهما ثم ناول الصبي الغلاية والصابون وأخذ هو الفرن وزجاجة الوقود الصغيرة والمسدس. لف البطانيات وعادا عبر البهو إلى الغرفة. جلسا على السرير ووضعا بينهما رقعة لعبة الداما. ارتديا سترتين وجوارب جديدة والتفا ببطانيات جديدة. علق بخطاف سخانا صغيرا يعمل على الوقود وشربا كوكا كولا محفوظة بعبوات بلاستيكية. ذهبوا بعد برهة إلى الحمام، عصرا الماء من ثيابهما وعادا بها؛ كي تجف.

- كم من الوقت نستطيع أن نبقى هنا يا أبي؟

- لن يستمر هذا طويلا.

- كم سيستمر؟

- لست أدري. سوف نبقى يوما إضافيا أو يومين ربما.

- لأن بقاءنا هنا ينطوي على خطر.

- نعم.

- هل تظن أنهم سيجدوننا؟

- كلا، لن يعثروا علينا.

- ولكن يحتمل أن يجدونا.

- كلا، لن يفعلوا. لن يتمكنوا من ذلك.

في وقت لاحق وعندما كان الصبي مستغرقا في النوم ذهب إلى البيت وشرع يجر بعض قطع الأثاث وأخرجها إلى البهو ثم أخرج فراشا ومداه فوق الباب. ثم سحبه من الداخل بعناية بحيث أصبح يغطي الباب كله. لم يكن ما فعله يرقى إلى مستوى الحيلة أو الخدعة ولكنه كان أفضل من لا شيء. بينما كان الصبي مستغرقا في النوم جلس هو على سريره وعلى مقربة من ضوء المصباح؛ وجلس يبيري طلاقات مسدس زائفة من غصن شجرة يابسة مستخدما سكيننا لهذا الغرض. ثم وضع الطلاقات الخشبية بعناية في أسطوانة المسدس إلى أن بلغ عددها خمس طلاقات. صاغ نهاياتها على نحو أكسبها شكل الطلاقات الحقيقية. صقلها وملسها بفركها بالملح ثم لطحها بسقط الفحم إلى أن تلونت بلون رواسب التبر. عندما أنجز تحضير المسدس ونظر إليه. حتى من هذه المسافة القريبة جدا بدا المسدس وكأنه ملقم ومحشو برصاص حقيقي. وضع المسدس جانبا ونهض فتحسس الشباب التي كانت تتبخر المياه منها فوق السخان.

كان قد احتفظ بحفنة صغيرة من أغلفة طلاقات المسدس الفارغة، لكنها ذهبت مع كل الأشياء الأخرى التي كانت في العربة. كان حريا به أن يحتفظ بها في جيبه. لقد أضع حتى الطلقة الأخيرة. ظن أنها لو كانت بحوزته لكان أعاد حشوها بخراطيش من عيار 45 لأن فتيلها ربما كان مناسباً إن هو استطاع أن يخرجها بعناية دون أن يسبب له تلفاً. كان سيفعل ذلك بمقص اللعب؛ حتى يتمكن من الحصول على الحجم الملائم والمطابق للطلقات. نهض وجمال جولة أخيرة على المخازن ثم خفف الضوء شيئاً فشيئاً إلى أن انطفأ. قبل الصبي ومشى الهوينى نحو السرير الآخر حيث التحف بالبطانيات النظيفة. أنعم النظر مرة أخرى بهذا الفردوس البالغ الصغر الذي يهتز متماوجاً مع الضوء البرتقالي المنبعث من السخان ثم استسلم إلى النوم.

كانت البلدة قد هجرت لسنين خلت. مع ذلك فقد عبرا شوارعها الغارقة بالركام المكس والنفائيات المبعثرة بحذر شديد. مرا بحاوية معدنية تستعمل مكبا للنفايات المبعثرة حيث كان أحدهم قد حاول أن يحرق فيها جثثاً. اللحم المتفحم والعظام التي يغطيها رماد أسود تكاد تضيع معالمها لولا وجود هياكل جماجم بينها. لكن لا يوجد رائحة على الإطلاق فقد تقادم الزمن على الجثث. يوجد سوق في نهاية الشارع تكدست في أحد ممراته علب كرتونية فارغة ومعها ثلاث عربات معدنية. تفحصها، سحب إحداها، أدار عجلاتها ثم وقف. دفعها على الممر وعاد فجذبها من جديد، قال الصبي:

- نستطيع أن نأخذ اثنتين من هذه العربات.

- كلا.

- أستطيع دفع واحدة.
- أنت المستكشف. أريدك أن تكون الرقيب.
- ماذا سنفعل بكل هذه الأمتعة؟
- علينا أن نأخذ ما نستطيع أخذه فقط.
- هل تعتقد أن شخصا ما سيأتي؟
- نعم، أحيانا.
- قلت: إن أحدا لن يأتي.
- لم أعن أبدا.
- أتمنى لو أننا نستطيع أن نعيش هنا.
- أعرف ذلك.
- هنا يمكننا أن نكون نشيطين وحذرين.
- نحن يقظان وحذران.
- ماذا لو التقينا بأناس طبيين؟
- حسنا، أنا لا أعتقد ولا أرجح أن نلاقي أناسا طبيين على الطريق أبدا.
- نحن على الطريق.
- أعرف ذلك.
- إذا كنت يقظا وحذرا كل الوقت ألا يعني هذا أن الخوف يتملكك دائما وأبدا؟
- حسنا، أظن أنه يجب أن ينالك من الخوف ما يكفي لأن تبقى حذرا في المقام الأول؛ لكي تظل محترسا ويقظا.

- ولكن ماذا عن بقية الوقت؟

- نعم.

- لا أعرف. ربما يجب عليك أن تبقى محترسا بشكل دائم. هب أن خطبا ما فاجأك وأنت لا تتوقعه. ربما يكمن الحل في أن تتوقع البلاء دائما.

- هل تتوقع ذلك دائما يا أبي؟

- نعم، أتوقعه دائما. لكن من الممكن أن أنسى أحيانا أنه يجب علي أن أحترس.

أجلس الصبي على صندوق صغير وبدأ يقص له شعره مستخدما مقصا ومشطا بلاستيكيًا. حاول أن يتقن تزيين شعره فاستغرق ذلك بعض الوقت. عندما انتهى من قص شعره أزاح المنشفة عن كتفيه وجمع شعره الذهبي من الأرض. مسح وجه الصبي وكتفيه بقطعة قماش مبللة وأمسك له مرآة؛ كي يرى.

- لقد أحسنت صنعا يا أبي.

- حسنا.

- أبدو مخيفا حقاً.

- أنت نحيل فعلاً.

قص شعره بنفسه، لكنه لم يكن قصا متقنا ثم شذب لحيته مستخدما المقص. في هذه الأثناء كان الماء الموجود في الغلاية قد أصبح ساخنا فحلقت ذقنه مستعملا موسى مأمونة للحلاقة. كان الصبي يراقبه. عندما انتهى نظر إلى المرأة كي يرى وجهه فبدا من دون لحية. التفت إلى الصبي وقال: كيف أبدو؟ رفع الصبي رأسه وقال:

- لست أدري. هل سيصيبك البرد؟

أكلا وجبة غذائية غنية في ظل الضوء المنبعث من الفانوس: لحم، فاصوليا خضراء، بطاطا مهروسة مع البسكويت والصلصة. كان قد وجد أربع زجاجات من الويسكي في كل واحدة منها ربع غالون ومازالت بأكياس الورق التي كانت فيها وقت شرائها. وضع قليلا منها في كأس، أضاف له ماء ثم شرب بعض ما في الكأس. أصيب بدوار حتى قبل أن يكمل شرابه فاكتفى بما شرب. أكلا إجازا، وضعا بعض الكريم على حبات من البسكويت جاعلين منها حلوى. أكلا منها ثم شربا قهوة. رمى الصحن الورقية وغطاء الطاولة البلاستيكي في كيس للنفايات. لعبا لعبة الداما ثم وضع الصبي على سريره.

أيقظه ليلا الصوت الخافت لقطرات المطر التي كانت تتهمر على الفراش الذي غطى به الباب الذي يعلوهما. فكر في نفسه أنه ما كان له أن يسمع صوت المطر ما لم تكن الأمطار تنصب صبا وتهمر بغزارة. نهض وبيده المصباح الكهربائي وصعد السلم ثم رفع الباب. أطلق المصباح نورا كشافا فأنار الفناء. كانت الأرض من حوله مشبعة ومغمورة بالمياه؛ مياه تجمعت من الأمطار التي كانت تجلد الأرض جلدا. أغلق الباب؛ تسرب الماء منه وبدأ يقطر من درجات السلم. إلا أنه يعتقد أن الغرفة نفسها محصنة ولا يمكن أن تتسرب إليها المياه. ذهب ليطمئن على الصبي فوجده يتصب عرقا. سحب إحدى البطانيات عنه وهوى له وجهه ثم أطفأ السخان وذهب إلى السرير.

عندما استيقظ من جديد ظن أن المطر قد توقف. لكن لم يكن هذا سبب استيقاظه، بل لأن مخلوقات عجيبة قد زارته في الحلم لم يكن قد

رأى من نوعها من قبل قط. تلك المخلوقات لم تتبس ببنت شفة وقد ظن أنها كانت جاثمة بجانب سريره، بينما كان نائماً وأنها توارت في لحظات استيقاظه. التفت ونظر إلى الصبي. ربما فهم للوهلة الأولى أنه هو نفسه كان شخصاً غريباً ومنفراً بالنسبة للصبي. كائن من كوكب سيار لم يعد له وجود. الحكايات التي يحوم حولها الشك والريبة. لن يستطيع أن يشيد للصبي العالم الذي ضيعه هو؛ عالماً يكون مصدراً للسرور والابتهاج ما لم يتمكن أن يبني ما قد أضاعه أصلاً. وهو يعتقد أن الصبي يعي ذلك على نحو أفضل منه. حاول أن يتذكر الحلم لكنه ما استطاع إلى ذلك سبيلاً؛ كل ما تبقى منه كان الشعور الذي خلفه. جال في خاطره أنهم ربما جاؤوا في الحلم؛ كي يحذروه. لكن يحذرونه من ماذا؟ من أنه لن يستطيع أن يوقد في قلب الطفل ما استحال في قلبه هو إلى رماد. حتى هذه اللحظة تتنازع في داخله رغبتان. ففي جانب يتمنى لو أنهما لم يهتديا أبداً إلى هذا الملجأ، وفي آخر كان دائماً يتمنى أن ينتهي الأمر.

فحص صمام خزان الموقد الصغير الذي كان قد انطفأ. هزه وأداره بعد أن وضعه على صندوق صغير. جلس على الأرض وبدأ يفكك أجزائه. فك اللوح السفلي ونزع مجموعة المضمرة وأزاح الأنبوبة الواصلة بين المضمرة، مستخدماً لهذه الغاية مفتاح ربط صغير. هز المرطبان الذي يحتوي على الخردوات هزاً خفيفاً وأخرج منه مسماراً ملولباً وأسلكه بين الأنبوبين. ربطه، وصل الخرطوم بالخزان ثم أمسك القرص المعدني للمضمرة الصغير بعد أن دفعه نحو الأعلى. إنه صغير الحجم وخفيف الوزن. وضعه على الصندوق الصغير. نزع اللوح المعدني ورماه فوق النفايات ثم صعد السلم؛ كي يطلع على حالة الجو. كان الفراش الذي يعتلي الباب قد تشرب

بكمية كبيرة من مياه الأمطار فتقل وزنا. شق عليه رفح الباب إلى أعلى فوقف مستندا على كتفيه؛ كي يستريح. نظر حوله في محاولة لتحديد الوقت. السماء تمطر رذاذا خفيفا ومسألة تحديد الوقت بالنسبة له أمر مستحيل. نظر إلى البيت ثم مد بصره نحو الريف المبلل بمياه الأمطار. ترك الباب ينزل وينغلق، هبط السلم وشرع يُعد وجبة الإفطار.

بددا يومهما أكلا ونوما. كان قد خطط للمفادرة لكنه رأى المطر مسوغا كافيا لتبرير بقائهما. العربة موجودة تحت السقيفة. ليس من المحتمل أن يسير أحد على الطريق في يوم كهذا. جالا على المواد المخزنة واختارا منها ما يمكنهما أخذه ثم بسطا ما أخرجاه من مواد على نحو منظم في زاوية الملجأ فتشكل لديهما مكعب من المواد المختارة بعناية.

كان يومهما بعض يوم، بل لم يكن شيئا على الإطلاق. توقف هطل الأمطار مع هبوط الظلام. فتحا الباب وأخذا في نقل العلب والأقفاص والأكياس البلاستيكية عبر باحة المنزل المبللة إلى السقيفة. وضعوا كل الأشياء في العربة وحزماها. عندما حملت العربة بأقصى طاقتها على الاستيعاب غطاها بالغطاء البلاستيكي وشد سلكا إلى حلقات التثبيت وربط السلك بحبال قصيرة. رجعا إلى الورا، وجها ضوء البطارية نحو العربة ونظر إليها. دار في خلد أنه كان حريا به أن يحضر عجلتين إضافيتين من العربات الأخرى التي كانت في المخزن؛ لكن سبق السيف العذل. كما كان أولى به أن يحتفظ بمرآة الدراجة النارية التي كانت مثبتة على عربتهما القديمة أيضا. تناولوا وجبة العشاء وناما حتى الصباح. أفاقا باكرا وتناولوا طعام الإفطار ثم استحما ثانية وغسل كل منهما شعره في حوض من الماء الدافئ. مع بزوغ خيوط الفجر الأولى كانا على الطريق،

وقد ارتدى كل منهما قناعا نظيفا منعشا كان قصه من قماش معد ليكون غطاء سرير. تقدم الصبي يحمل رفشا وقد شرع يمهد الطريق بإزالة الأعواد والأغصان عنها. تبعه الرجل متكئا على مقود العربة وهو يراقب الطريق الممتد أمامهما.

كانت العربة ثقيلة الوزن لدرجة يصعب معها دفعها فوق أرض الغابات الرطبة والمبللة. توقفا وقت الظهيرة في منتصف الطريق، أعدا شايا ساخنا وأكلا ما تبقى من لحم، إضافة إلى حبات من البسكويت الرقيق الجاف مع الخردل وصلصة التفاح. تناولوا طعامهما جالسين وقد أسند كل منهما ظهره إلى ظهر الآخر. قال الصبي:

- هل تعلم أين نحن الآن يا أبي؟

- إلى حد ما.

- إلى حد ما! كيف ذلك؟

- حسنا، أعتقد أن ما يفصلنا عن الساحل هو مسافة مئتي ميل تقريبا

تبعاً لأقصر الطرق؟

- وفقاً لأقصر الطريق!

- أعني إذا سلكننا خطاً مستقيماً كما يمكن للطيور أن تفعل.

- هل سنصل إلى هناك قريباً؟

- لا، لن يتحقق ذلك في وقت قريب. فلنقل سيكون هذا في وقت قريب إلى

حد ما. لأننا لا نستطيع أن نسير كما تمضي الطيور.

- ذلك لأن الطيور ليست مرغمة على اتباع الطرق؟

- صحيح.

- تستطيع الطيور أن تذهب حيثما تشاء.

- نعم.

- هل تعتقد أن ثمة طيوراً موجودة في مكان ما؟

- لست أدري.

- لكن ماذا تظن؟

- أعتقد أن هذا غير محتمل.

- هل تستطيع الطيور أن تطير إلى المريخ أو إلى مكان ما؟

- لا. لا تستطيع.

- لأن المكان بعيد جداً.

- نعم.

- حتى ولو رغبت.

- حتى وإن رغبت.

- ماذا لو حاولت أن تطير ثم وصلت إلى منتصف طريق ما فأعيها التعب.

هل ستتقهر عندها وتسقط؟

- حسناً، إنها لا تستطيع في حقيقة الأمر أن تصل إلى منتصف الطريق؛

لأنها ستكون في الفضاء والفضاء خالٍ من الهواء؛ لذلك لن يكون

بمقدورها أن تطير. أضف إلى ذلك أن الجو سيكون بارداً جداً لدرجة

تتجمد معها وتموت.

- أوه.

- على أي حال، هي لا تعرف مكان المريخ.

- هل نعرف نحن أين مكان المريخ؟

- نوعا ما .

- لو كان لدينا سفينة فضاء هل كان باستطاعتنا الذهاب إلى هناك؟

- حسنا، إن كانت عندك سفينة فضائية جيدة حقا ولو توافر لك أناس يمدون

لك يد العون إذاً لكان ممكنا لك أن تذهب إلى هناك فيما أظن.

- هل ستجد طعاما ومواد غذائية عندما تصل إلى هناك؟

- كلا. لا يوجد شيء هناك.

- أوه.

جلسا وقتا طويلا فوق بطانيات مطوية وهما يراقبان الطريق في كلا

الاتجاهين. لا يوجد رياح ولا يوجد شيء آخر. قال الصبي بعد برهة:

- لا يوجد أي طيور. أيوجد شيء من هذا القبيل؟

- كلا.

- فقط في الكتب.

- نعم، في الكتب فقط.

- لا أظن ذلك.

- هل أنت مستعد؟

- نعم.

نهضا، وضعا الأكواب في مكانها وكذلك ما تبقى من البسكويت. كوم

الرجل البطانيات فوق العربة، وضع الغطاء عليها وشده ثم ثبته ووقف

ينظر إلى الصبي. قال الصبي:

- ماذا في الأمر؟

- أعلم أنك اعتقدت - فيما مضى - أننا أوشكنا أن نموت.

- نعم.

- لكننا لم نمت.

- كلا ، لم نمت.

- حسنا.

- هل أستطيع أن أسألك عن شيء؟

- بالتأكيد.

- لو كنت طيرا هل كنت تستطيع أن تحلق عاليا لأفق تستطيع عنده أن ترى

الشمس؟

- نعم. تستطيع.

- أظن ذلك سيكون أمرا رائعا حقا.

- نعم سيكون كذلك. هل أنت مستعد؟

- نعم.

- توقف. ماذا حل بألة الفلوت الموسيقية التي كانت معك؟

- لقد رميتها.

- رميتها!

- نعم.

- حسنا.

- حسنا.

عبرا جسرا يعلونهما وقت الغسق الطويل الملون بلون الرماد ثم توقفا
 ينظران من خلال الدرازين الإسمنتي إلى النهر الميت الذي يجري ببطء.
 نهر يلفه غطاء أسود قائم وكثيف يجري على تخوم مدينة محترقة. ثم
 شاهداه ثانية تحت جناح الظلام عندما كانا يدفعان العربة الثقيلة أمامهما
 صعودا على امتداد الهضبة ثم توقفا؛ كي يستريحا. أدار العربة بشكل
 جانبي؛ حتى يتمكن من إيقافها. اصطبغ قناعاهما عند منطقة الفم بلون
 الرماد، أما الدوائر المحيطة بعيونهما فقد اتخذت أشكال أكواب قاتمة
 اللون. جلسا على قارعة الطريق يحيط بهما الرماد من كل جانب. يمما
 وجهيهما شطر الشرق حيث لاح من بعيد شبح مدينة تغرق في الظلام؛
 ظلام الليل القادم. ولا أضواء في المدينة تؤنس وحشتها.

- هل تعتقد أن ثمة أحدا موجوداً في المدينة يا أبي؟

- لا أعرف.

- متى سنتمكن من التوقف؟

- نستطيع التوقف الآن.

- على الهضبة؟

- يمكننا أن نتحدر بالعربة ونضعها هناك؛ عند تلك الصخور، ثم

نغطيها بالأغصان.

- هل هذا مكان مناسب للتوقف؟

- حسناً، الناس عادة لا يجيئون التوقف عند الهضاب ولا نريدهم نحن

أن يفعلوا.

- لذا فهو مكان جيد ومناسب.

- أعتقد ذلك.

- لأننا حاذقان.

- حسنا، يجب ألا نكون حاذقين جدا.

- حسنا.

- هل أنت مستعد؟

- نعم.

وقفا، حمل رفشه ووضعه فوق كتفه ونظر إلى أبيه قائلاً:

- ما أهدافنا البعيدة المدى؟

- ماذا؟!

- أهدافنا البعيدة المدى.

- أين سمعت هذا الكلام؟

- لا أعرف.

- كلا. أين سمعته؟

- أنت من قال هذا.

- متى؟

- منذ وقت طويل مضى.

- وماذا كان الرد؟

- لا أعرف.

- حسنا، وأنا أيضا لا أعرف. تعالَ فقد هبط الظلام.

في وقت متأخر من اليوم اللاحق، وبينما كانا يجتازان منعطفا في الطريق توقف الصبي، وضع يده على العربة وهمس: أبي، مد الرجل بصره فرأى شبح مخلوق بشري صغير الحجم يمشي على الطريق متناقلاً يجر قدميه جراً. هكذا بدا له، فالمسافة التي تفصل بينهما بعيدة.

وقف متكئاً على ممسك العربة وقال: حسنا. من عساه يكون؟

- ماذا علينا أن نفعل يا أبي؟

- قد يكون شَرَكاً منصوباً.

- ماذا سنفعل؟

- دعنا نتبعه وسوف نرى إن كان سيلتفت إلى الوراء أم لا.

- حسنا.

لم يكن المتجول ممن يلتفتون إلى الوراء؛ كي يراقبوا وينظروا. اقتفيا بهرّة من الزمن ثم أدركاه. إنه رجل طاعن في السن، صغير الحجم ومحملي القامة يحمل على ظهره حقيبة عسكرية قديمة ومتغضنة وقد ربط بها بطانية ملفوفة لفا. كان يمشي بخطى وثيدة ويضرب الأرض ضرباً خفيفاً بعصا متشعبة كانت في يده، اتخذ منها عكازاً. عندما رآهما غير وجهته وانحرف عن الطريق إلى جانبه ثم التفت ووقف محترساً. ثمة قطعة قماش قذرة مربوطة على فكه كما لو كان يعاني من ألم في أسنانه. حتى طبقاً لمعايير عالمهم الجديد فهو مصدر رائحة فظيعة وكريهة جداً تفوح منه.

قال:

- ليس معي شيء، تستطيعان أن تفتشاني إن رغبتما في ذلك.

- لسنا لصين.

- أمال إحدى أذنيه نحو الأمام وصاح قائلاً: ماذا؟

- قلت: لسنا لصين.

- ما أنتما إذا؟

لم يجدا طريقة يجيبانه من خلالها عن سؤاله. فرك أنفه بطرف معصمه ووقف منتظرا. كان حايي القدمين، لكن لفهما بأسمال بالية وبعض قطع الورق المقوى المربوطة بخيوط من القنب الأخضر وعليها عدد من الطبقات من مزق البسة قدرة ورثة. فجأة أصبح الرجل أكثر إعياء، اتكأ على عكازه وجلس على الأرض بين الرماد واضعا إحدى يديه على رأسه. بدا وكأنه كومة أسمال بالية سقطت سهوا من عربة كانت تسير على الطريق. تقدا منه ووقفا أمامه ينظران إليه. قال الرجل: سيدي.. سيدي. جثم الصبي على الأرض ووضع يده على كتفه وقال:

- إنه خائف يا أبي. الرجل خائف.

نظر إلى أعلى الطريق وإلى أدناه وقال: لو كان هذا الرجل كميئا لكان ذهب قبلنا.

- هو خائف يا أبي، وهذا كل ما في الأمر.

- أخبره أننا لن نؤذيه.

هز الرجل العجوز رأسه وحركه من جانب إلى آخر في حين كانت أصابعه تعبت بشعره القذر. رفع الصبي بصره ناظرا إلى أبيه، وقال:

- ربما هو يعتقد أننا لسنا حقيقيين.

- إذا ماذا نكون حسب اعتقاده؟

- لا أعرف.

- لا نستطيع أن نبقى هنا. علينا أن نرحل.

- إنه خائف يا أبي.

- لا أعتقد أنه يتعين عليك أن تلمسه.

- يمكننا أن نعطيه شيئاً يأكله.

وقف ينظر إلى الطريق وهمس: اللعنة. أخفض بصره ناظراً إلى الرجل العجوز. ربما تحول إلى إله وهما تحولاً إلى شجر. قال: حسناً.

فك رباط الغطاء ولفه إلى الخلف، مد يده، بحث في الأطعمة المعلبة وأخرج إحدى العلب المغلفة بالقصدير. أخذ مفتاح العلب من جيبه وفتح العلب. فرد الغطاء، مضى إلى الصبي جثم على الأرض وناوله العلب.

- ما رأيك في أن نعطيه ملعقة؟

- إنه لا يستعمل الملعقة.

- أخذ الصبي العلب وناولها إلى الرجل العجوز هامساً: خذها. هي لك.

رفع الرجل العجوز عينيه ونظر إلى الصبي. أوماً الصبي إليه بالعلبة. بدا الصبي وكأنه إنسان يحاول أن يطعم نسراً موهناً ومكسوراً على الطريق.

قال:

- لا بأس عليك. خذها.

أخفض الرجل العجوز يده من على رأسه ونظر إلى الصبي بعينين طارفتين لونهما أزرق رمادي، وقد أوشكتا أن تتطمرا بين ثنيات بشرته الرقيقة والمتجمدة.

قال الصبي:

- خذها.

مد يده وتناول العلبة بأصابعه المهزولة وضمها إلى صدره. قال الصبي، وهو يستعمل يديه في إشارات توضيحية:

- كلها. إنها طيبة المذاق. نظر الرجل العجوز إلى العلبة، أمسكها بإحكام ثم رفعها. أنفه متجدد وأصابعه المصفرة تعبت بمعدن العلبة. أمالها وشرب. تسرب العصير من العلبة فبلل لحيته القذرة. أخفض العلبة وهو يمضغ ما في فمه بصعوبة. كان يهز رأسه هذا خفيفاً وهو يبتلع. همس الصبي:

- انظر يا أبي.

- إني أرى.

التفت الصبي ونظر إليه.

قال الرجل:

- أعلم ما هو السؤال، وجوابي عليه: لا.

- وما هو السؤال؟

- هل نستطيع أن نأخذه معنا؟ إننا لا نستطيع.

- أعرف.

- تعرف.

- نعم.

- حسنا.

- هل نستطيع أن نمنحه شيئاً آخر؟

- دعنا ننتظر؛ حتى نرى ماذا سيفعل بهذه.

راقباه وهو يأكل. عندما انتهى جلس ممسكا بالعلبة الفارغة وهو ينظر إليها وكأنه يطلب منها أن تجود بالمزيد.

- ماذا تريد أن تعطيه؟

- ما رأيك أنت؟ ما الذي يجب أن يأخذه؟

- أعتقد أنه يجب ألا يأخذ شيئاً. ماذا تريد أن تعطيه؟

- بإمكاننا أن نطهو شيئاً على الموقد ويستطيع هو أن يأكل معنا.

- هذا يعني أن نتوقف وأن نبيت ليلتنا هنا.

- نعم.

نظر إلى الرجل العجوز وإلى الطريق وقال:

- حسنا. لكننا سنرحل غدا.

لم يجب الصبي.

- هذا أكثر شيء يمكن أن تحصل عليه.

- حسنا.

- حسنا تعني حسنا، لكنها لا تعني أنه علينا أن نتفاوض غدا بشأن

صفقة أخرى.

- ماذا تعني بقولك نتفاوض؟

- أن نتحدث أكثر حول الموضوع وصولاً إلى صفقة أخرى. لا يوجد صفقة

أخرى. هذا كل شيء.

- حسنا.

- حسنا.

ساعد الرجل العجوز؛ كي ينهض ويقف على قدميه وناولاه عكازه. إنه لا يزن مئة باوند. وقف ينظر حوله بعين الشك والريبة. أخذ الرجل علبة القصدير منه ورمها في الغابة. حاول الرجل العجوز أن يناوله عكازه، لكنه دفعها بعيدا عنه.

قال له:

- متى أكلت آخر مرة؟

- لا أعرف.

- لا تتذكر.

- لقد أكلت الآن.

- هل تحب أن تأكل معنا؟

- لا أعرف.

- ألا تعرف؟

- أكل ماذا؟

- ربما بعض لحم البقر المطهو على نار هادئة مع البسكويت والقهوة.

- ماذا علي أن أعمل؟

- أخبرنا أين ذهب العالم؟

- ماذا؟

- ليس عليك أن تفعل شيئا. هل تستطيع أن تمشي؟ هل هذا مناسب؟

- أستطيع المشي.

نظر إلى الصبي وقال له:

- هل أنت صبي صغير؟

نظر الصبي إلى أبيه. قال الأب:

- كيف يبدو لك؟

- لا أعرف. فأنا لا أرى كما ينبغي.

- هل تستطيع أن تراني؟

- أستطيع أن أقول: إن شخصا ما موجود هنا.

- هذا جيد. علينا أن نذهب. نظر إلى الصبي، وقال: لا تمسك يده.

- إنه لا يستطيع أن يرى.

- لا تمسك يده ودعنا نذهب.

قال الرجل العجوز:

- إلى أين نحن ذاهبون؟

- نحن ذاهبون كي نأكل.

طأطأ رأسه، أمسك عكازه، دفع بها إلى الأمام وأخذ يضرب بها على

الأرض ضربا خفيفا وفيه شيء من التردد.

- كم عمرك؟

- عمري تسعون عاما.

- كلا، ليس لك من العمر ما ذكرت.

- حسنا.

- هل هذا ما تقوله للناس؟
- أي أناس؟
- لا أعني أناسا محددين.
- أعتقد ذلك.
- تفعل ذلك؛ كي تتجنب أذاهم.
- نعم.
- وهل ينطلي هذا عليهم؟
- كلا.
- ماذا لديك في الحقيقة؟
- لا شيء. تستطيع أن تنظر.
- أعلم أنني أستطيع أن أنظر. ماذا يوجد فيها؟
- لا شيء. بعض الأمتعة فقط.
- ألا يوجد فيها شيء تأكله؟
- كلا.
- ما اسمك؟
- إيلي.
- إيلي ماذا؟
- ما العلة في إيلي؟
- لا شيء. دعنا نذهب.

عسكرا في الغابات وكانا قريبين من الطريق أكثر مما أراد. كان هو يجر العربة بينما الصبي يوجهه من الخلف. أضرمنا نارا؛ كي يتدفأ الرجل العجوز ولم يكن يرغب بإشعال النار أيضا. تناولا طعامهما بينما كان هو جالسا، ملتحفا بلحافه الفريد من نوعه ومتشبثا بملعقته كأنه طفل صغير. كان معهما كوبان فقط لذلك صب قهوته وشربها من الزبدية التي أكل منها وإبهاماه مثبتان على حوافها وكأنهما كلابان. كان جالسا يحدق بالجمر. ثيابه رثة ويوشك أن يموت جوعا وكأنه بوذا.

قال الرجل:

- أنت تعلم أنك لن تستطيع أن تذهب معنا.

هز رأسه.

- منذ متى وأنت على الطريق؟

- كنت دائما على الطريق. إنك لا تستطيع أن تبقى في مكان بعينه.

- كيف تعيش؟

- كل ما أفعله هو أنني أستمر في الذهاب. كنت أعلم أن ما نحن عليه

الآن واقع.

- كنت تعلم أنه سيحدث؟!

- نعم، هذا الذي نحن فيه أو شيء يشبهه. كنت دائما مؤمنا به.

- وهل حاولت أن تستعد له؟

- كلا، ما الذي يمكن أن تفعله؟

- لا أعرف.

كان الناس دائماً مستعدين للغد. أنا لا أوّمن بهذا التوجه، فالغد ليس مستعداً لهم بل إنه لا يعرف أنهم موجودون أصلاً.

– أعتقد أنه لا يدري بهم.

– حتى وإن عرفت ما تفعل فلن تعرف ذلك. لن تدرك ما إذا كنت تود القيام به أم لا. لنفترض أنك آخر إنسان بقي على الأرض ولنفترض أنك فعلت هذا لنفسك.

– هل تمنيتك أن يدركك الموت؟

– كلا. ولكن ربما أتمناه. عندما تكون على قيد الحياة فإن هذا الأمر يبقى نصب عينيك.

– أم تتمنى لو أن أمك لم تلدك؟

– ليس للمتسولين المعدمين أن يختاروا.

– وهل تعتقد أن هذا مطلب عزيز؟

– لقد كان ما كان. وعلى أي حال فإن التماس الترف والرفاهية في أوقات كهذه هو ضرب من حماقة.

– أعتقد ذلك.

– لا أحد يريد أن يبقى هنا ولا أحد يرغب في المغادرة. رفع رأسه ونظر إلى الصبي من خلال النار، ثم حول بصره نحو الرجل. رصد الرجل عينيه الصغيرتين وهما تنظران إليه. الله يعلم ما شاهدت هاتان العينان وما مر عليهما. نهض، كوم مزيداً من الحطب فوق النار المضرمة وفصل الجمر عن الأغصان الميتة. كان الشرر الأحمر يتطاير ويرتعد ثم يموت ويفرق في الظلام. شرب العجوز آخر ما تبقى من قهوته ثم مد يديه وأمالهما نحو النار. كان الرجل يراقبه، ثم قال:

- كيف لك أن تعرف إن كنت آخر رجل باقٍ على كوكب الأرض؟
- ما أظنك قادرا على معرفة هذا الأمر. من الممكن أن تكونه وهذا كل ما في الأمر.
- لا أحد قادر على معرفته.
- ليس ثمة فرق. عندما تموت أنت كان الناس جميعهم قد ماتوا أيضا.
- أعتقد أن الله يعلمه.
- أنا لا أفهم كيف أنك مازلت على قيد الحياة. كيف تأكل؟
- لا أعرف.
- لا تعرف؟
- الناس يعطونك أشياء؟
- نعم.
- كي تأكل.
- كي أكل. نعم.
- كلا. إنهم لا يفعلون.
- أنت فعلتها.
- كلا لست أنا. الصبي هو من فعل ذلك.
- يوجد أناس آخرون على الطريق. لستما الوحيدين.
- هل أنت الشخص الوحيد؟
- حدق الرجل به باحتراس وحذر وقال:
- ماذا تعني؟

- هل معك أناس آخرون؟
- أي أناس؟
- أناس معك.
- لا يوجد أحد معي.
- أنا أتحدث عنك. أي نوع من العمل أنت منخرط فيه؟
- لم يجب الرجل العجوز.
- أظن أنك تود أن تذهب معنا.
- أذهب معكما!
- نعم.
- لن تأخذاني معكما.
- لا تريد أن تأتي.
- لن أذهب معكما ولم أكن لآتي حتى إلى هذا المكان لو لم أكن جائعا.
- الناس الذين أعطوك الطعام. أين هم؟
- لا يوجد أحد. لقد اخترعت ما قلته اختراعا.
- وماذا اخترعت أيضا؟
- أنا. فقط. - على الطريق كما أنت عليه، لا أختلف عنك في هذا.
- وهل اسمك إيلي حقا؟
- كلا.
- أنت لا تريد أن تقول اسمك.
- لا. لا أريد أن أذكره.

– لماذا؟

– لم أستطع أن أثق بك فأبوح به. قد تفعل شيئاً يتعلق به. لا أريد أن يتحدث أحد عني. كأن يقول: أين كنت وماذا قلت ومتى كنت حيث كنت؟ ما أعنيه هو أنك قد تتحدث عني؛ هذا أمر ممكن لكن لا أحد يستطيع أن يقول: إن من تتحدث عنه هو أنا. يمكن أن أكون أي شخص. أعتقد أنه في أزمنة كالتي نحن فيها الآن كلما اقتصدت في القول كانت النتيجة أفضل. لو حدث أمر وكنا أحياء ثم التقينا على الطريق فلسوف يكون لدينا ما نتحدث بشأنه. لكننا لسنا كذلك ولهذا لن نفعل.

– ربما لن يكون هذا.

– أنت لا تريد أن تقول أمام الصبي. هذا كل ما في الأمر.

– ألسنت شريكا لقاطعي الطريق؟ أليست مهمتك أن تتصب أفخاخا للناس؛ بغية الإيقاع بهم؟

– أنا لست أي شيء. سوف أترككما وأرحل إن أردتني أن أفعل. إنني أستطيع أن أجد الطريق.

– ليس عليك أن ترحل.

– لم أر نارا منذ أمد بعيد. هذا كل ما في الأمر. إنني أعيش كالحيوان. أنت لا ترغب في معرفة الأشياء التي كنت قد أكلتها. عندما رأيت الصبي ظننت أنني كنت قد مت.

– فاعتقدت أنه ملاك.

– لم أعرف ما الذي كانه. لم أفكر أبدا أنني سأقابل طفلا من جديد. لم أكن أعلم أن ذلك سوف يحدث.

– ماذا لو قلت لك: إنه قديس؟

هز الرجل العجوز رأسه.

– لقد تجاوزت كل ذلك الآن؛ بل منذ سنين خلت. عندما لا يكون بوسع

الرجال أن يعيشوا يصبح القديسون أقل نجاحا وأكثر إخفاقا. سوف

ترى. خير للمرء أن يكون وحيدا. أرجو ألا يكون ما قلته أنت صحيحا،

فإن تكون على الطريق مع آخر قديس هو أمر مروع. لذلك أرجو ألا

يكون صحيحا. سوف تكون الأمور أفضل عندما يرحل الجميع.

– وهل سيرحلون؟

– حتما سيرحلون.

– وبالنسبة لمن ستكون الأمور أفضل؟

– بالنسبة للجميع.

– لكل الناس.

– بكل تأكيد. سوف نكون جميعنا أفضل حالا ولسوف نتنفس بسهولة أكبر.

– هذا أمر جدير بأن يكون معلوما.

– نعم، هو كذلك. عندما نرحل جميعنا في نهاية المطاف، عندها لن يكون

أحد موجودا هنا إلا الموت وبذا تمسي أيامه هو أيضا معدودة. سوف

يكون متواجدا على الطريق ولكن ليس لديه ما يفعله فليس ثمة أحياء

يُميتهم. عندها سيسأل: أين ذهب الناس جميعهم؟ هذا ما سيكون

الوضع عليه. ما هو الخطأ في هذا؟

وقفوا على الطريق صباحا. تجادل الرجل والصبي فيما يعطيانه للرجل

العجوز. لكنه لم يحصل على الكثير في نهاية المطاف؛ بعض الملعبات التي

تحتوي على خضراوات وأخرى فيها فاكهة. أخيرا ذهب الصبي إلى حافة

الطريق وجلس وسط الرماد. وضع الرجل العجوز الملعبات التي حصل عليها في حقيبته وربطها.

قال الرجل:

- عليك أن تشكره كما تعرف، فلولا الصبي لما أعطيتك شيئاً.

- قد يجب علي أن أشكره وقد لا يتعين علي ذلك.

- لماذا لا يتعين عليك أن تشكره؟

- لو تبادلنا الأدوار لما أعطيته طعاماً.

- ألا تكثر إن كان هذا يؤذي مشاعره؟

- كلا، فهو لم يفعل ما فعل من أجل هذا.

- إذاً لماذا أقدم على ما قام به؟

نظر إلى الصبي وإلى الرجل العجوز وقال: ما كان لك أن تفهم. أنا

لست متأكداً من ذلك.

- قد يكون هو مؤمناً بالله.

- إنني لا أعرف بماذا يؤمن.

- سوف يتغلب على الأمر.

- كلا. لن يستطيع أن يفعل ذلك.

لم يجب الرجل العجوز ونظر حوله متفحصاً النهار.

قال الرجل:

- لن تتمنى لنا التوفيق أيضاً. هل ستفعل؟

- إنني لا أدرك معنى لهذا. ماذا يشبه التوفيق؟ من يعرف شيئاً مثله؟

أذناك كان كل شيء قد مضى وانقضى. عندما التفت ونظر إلى الوراء كان الرجل العجوز قد بدأ المسير وهو يضرب الأرض بعكازه ضرباً خفيفاً. كان يتضاءل حجماً فيبدو من بعيد وكأنه بائع جوال لكتب تحتوي على قصص؛ بائع قادم من العصور الغابرة. كان مكفهر الوجه، منحني الظهر وضئيلاً كأنه العنكبوت. ثم تلاشى بعد مرور وقت قصير مرة واحدة وإلى الأبد. لم ينظر الصبي إلى الوراء قط.

بعيد الظهر مدا الغطاء على الطريق ثم جلسا وتناولوا وجبة غداء خفيفة وباردة. كان الرجل يراقبه وقال:

- هل تتحدث؟

- نعم.

- لكنك لست سعيداً.

- أنا على ما يرام.

- عندما ينفد طعامنا سوف يكون لديك متسع من الوقت للتفكير في الأمر.

- لم يحجر الصبي جواباً. تناولوا طعامهما ثم قال بعد برهة: أدرك ذلك، لكنني لن أتذكر الأمر بالطريقة التي تتذكره فيها أنت.

- من المحتمل ألا تفعل.

- أنا لم أقل: إنك على خطأ.

- حتى وإن ظننت أنني على خطأ.

- حسناً.

قال الرجل:

— نعم، حسنا. ليس ثمة الكثير من الأخبار الطيبة على الطريق في أوقات كالتي نحن فيها.

— لا يحق لك أن تهزأ به.

— حسنا.

— إنه موشك على الموت.

— أعرف.

— هل نستطيع أن نذهب الآن؟

قال الرجل:

— نعم. نستطيع أن نذهب.

صحا ليلا. كان الجو مظلمًا وبارداً. انتابه السعال فسعل حتى أدمى السعال صدره. مال نحو النار، نفخ في الجمر ووضع فوقه مزيداً من الحطب. نهض ومشى بعيداً عن الخيمة إلى الحد الذي أعانته الضوء على الوصول إليه. جثا على ركبتيه فوق الرماد وبين الأغصان اليابسة وقد لف بطانية حول كتفيه. بعد زمن قصير بدأ سعاله يهدم. فكر في الرجل العجوز الموجود الآن في مكان ما في العراء. التفت ونظر إلى الخيمة عبر سياج من الأشجار المتفحمة. أمل أن يكون الصبي قد عاد إلى النوم. جثا حيث هو وقد وضع يديه على ركبتيه. كان يتنفس بصعوبة وتتطلق مع أنفاسه أصوات صفير خافتة. قال: لقد أوشكت أن أموت. أخبرني: كيف علي أن أفعل ذلك.

في اليوم اللاحق شقا طريقهما ببطء ومشقة إلى أن بدأ الظلام يرخي سدوله. لم يستطع أن يعثر على مكان آمن يضرم فيه ناراً. سحب خزان الموقد من العربة. جلس وأدار الصمام لكنه كان مفتوحاً. أدار مفتاح المضرم الصغير فلم يتغير شيء. اتكأ وأنصت. جرب الصمامين معا وفي وقت واحد فأدرك أن خزان الوقود فارغ. جلس القرفصاء، أغمض عينيه، قبض أصابع كفيه ووضعها على جبهته. بعد برهة من الوقت رفع رأسه وحدق بالغابات التي يلفها الظلام ويضئها البرد. تناولوا عشاء خفيفاً بارداً مكوناً من خبز الذرة والفاصوليا. سأله الصبي:

- كيف فرغ خزان الوقود بهذه السرعة الكبيرة؟

- قد فرغ وكفى.

- لكنك قلت: إنه سيكفي لأسابيع.

- أعرف.

- لكن لم يمر سوى أيام قليلة.

- لقد كنت مخطئاً.

تناولوا عشاءهما في صمت. قال الصبي بعد وقت قصير:

- لقد نسيت أن أغلق الصمام. أليس كذلك؟

- ليس الذنب ذنبك. كان علي أن أفحصه؛ كي أتأكد أنه مغلق.

وضع الصبي صحنه على الغطاء وأشاح بوجهه عنه. ليس الذنب ذنبك.

عليك أن تغلف الصمامين معا. كان علي أن أسد المضرمين سداً محكماً؛

منعاً للتسرب ولم أفعل. هي غلطتي إذاً وأنا لم أخبرك.

- مع أنه لم يكن لدينا أي لاصق. أليس كذلك؟

- ليس الذنب ذنبك.

سارا ببطء وتناقل نحيلين وقذرين كمن أدمن العيش في الشوارع، جاعلين من البطانيات قطنسوتين؛ كي تقيهما من البرد. يزفران فأنفاسهما تتلون بلون الدخان. كانا يجران أقدامهما جرا فوق أراضٍ زلقة سوداء تعج بالغبار والرماد الذي تذرره الرياح. يجتازان السهول الساحلية الشاسعة وتعصف بهما الرياح المحملة بسحب من الرماد فتسوقهما إلى حيث يبحثان عن ملجأ ما استطاعا إلى ذلك سبيلا. يبحثان عنه في بيوت أو مخازن أو في خندق قابع على جانب الطريق وقد غطيا رأسيهما بالبطانيات. سماء الظهيرة متشحة باللون الأسود وكأنها الدرك الأسفل من جهنم. قال له:

- يجب ألا تفقد شجاعتك وألا تلين عزيمتك ولسوف نكون بخير.

امتلات الأرض بالأخاديد وتآكلت التربة بفعل الحت فيها فأمست قاحلة جرداء. انتشرت عظام المخلوقات الميتة في المستنقعات كما انتشرت المزابل وغصت بالقاذورات المتراكمة والمجهولة المحتوى. أما البيوت المبنية في المزارع وسط الحقول فقد تفسخ وزال عنها طلاؤها الخارجي. الألواح الخشبية التي تكسو الجدران الخارجية؛ كل شيء أضحى بلا ظلال وبلا ملامح. كان الطريق ينحدر عبر دغل من شجر الكودزو الوردى الميت. أدغال من القصب الميت الطاي في فوق المياه. خلف نهاية الحقول تعلق الضباب السديمي الكثيب بين السماء والأرض.

بدأ الثلج يهطل في وقت متأخر من النهار. تابعا سيرهما وقد جعلتا

الغطاء فوق رأسيهما ورقاقات الثلج الرطبة تنهمر على الغطاء فيسمع لها صوت خفيف.

لم ينم منذ أسابيع خلت إلا قليلا. عندما استيقظ في الصباح لم يجد الصبي. جلس مستويا والمسدس في يده ثم نهض وبحث عنه لكنه لم يعثر عليه في مدى البصر. انتعل حذاءه وهرع حتى وصل إلى نهاية الأشجار. لاح الفجر من جهة الشرق، أما الشمس الغربية فقد بدأت رحلة عبورها البارد. لمح الصبي قادمًا يعدو عبر الحقول وهتف به من بعيد:

- أبي يوجد قطار في الغابات.

- قطار!

- نعم.

- قطار حقيقي؟

- نعم. تعال.

- لم تصعد إليه. هل صعدت؟

- كلا. قليلا فقط. هيا.

- ألا يوجد أحد فيه؟

- لا. لا أعتقد ذلك. أتيت كي أخطبك إلى هناك.

- هل يوجد فيه محرك؟

- نعم. محرك كبير يعمل على الديزل.

جازا الحقول ودخلا الغابات من جانبها البعيد. خط السكك الحديدية ينحدر من الريف، يمر وسط أكوام الركام ثم يخترق الغابات. القاطرة

مزودة بمحرك ديزل كهربائي وتقطر خلفها ثمانى عربات ركاب مصنوعة من الفولاذ الصامد المقاوم للصدأ. أمسك يد الصبي وقال:
- دعنا نجلس ونراقب.

جلسا وانتظرا فلم يتحرك شيء. ناول الصبي المسدس وقال له:

- خذه.

قال الصبي:

- أبي.

- كلا. ليست هذه هي الصفقة. خذه.

أخذ المسدس ثم جلس ووضعه في حضنه. مضى الرجل من جهة اليمين ثم توقف وأخذ ينظر إلى القطار. اجتاز السكك الحديدية إلى الجهة الأخرى ثم مشى محاذيا للعربات وعلى طولها. عندما خرج من تحت العربة الأخيرة لوح الصبي بيده؛ كي يأتي إليه. نهض الصبي ووضع المسدس في الحزام.

كل شيء مغطى بالرماد. الممرات التي تفصل بين المقاعد داخل العربات مليئة بالفضلات المتراكمة والمبعثرة. الحقائق مسحوبة من الأرض المخصصة لها، مفتوحة ومرمية على المقاعد بعد أن تم نهبها منذ عهد بعيد. وجد في عربة الخدمة حزمة من الصحون الورقية؛ نفذ الغبار عنها ووضعها في حقيبته. وكان هذا كل ما عثر عليه.

- كيف وصل القطار إلى هنا يا أبي؟

- لست أدري. أعتقد أن شخصا ما كان يقوده متجها إلى الجنوب. أعني

مجموعة من الناس. ومن المحتمل أن يكون قد توقف هنا عندما نفذ
الوقود الذي كان فيه.

- وهل هو متوقف هنا منذ أمد بعيد؟

- نعم. أعتقد ذلك. بل إنه هنا منذ أمد بعيد جدا.

فتشا العربات الأخيرة بدقة. سارا بمحاذاة خط السكة الحديدية
وصولاً إلى القاطرة ثم رقيا المرقاة الضيقة الصدئة والمقشورة الطلاء.
دلفا إلى حجرة القيادة. نفخ الغبار عن مقعد المهندس وأجلس الصبي
حيث أجهزة القيادة والتحكم. تلك الأجهزة كانت بسيطة للغاية. المطلوب
عمله قليل ومحدود ويقتصر على دفع ذراع الصمام الخانق الذي يعيق
تدفق البخار إلى الأمام. أصدر أصواتا تحاكي صوت محرك القطار
وأخرى تشبه أصوات بوق التنبيه التحذيري، لكنه لم يكن واثقا من أن
هذا يعني شيئا بالنسبة للصبي. بعد وقت قصير نظرا من خلال الزجاج
المغطى بالرماد والغبار إلى حيث ينعطف خط السكك الحديدية ليغيب
بين نفايات الأعشاب الطفيلية الضارة. إن قدر لهما أن يشاهدا عوالم
مختلفة فإنهما سيخلصان إلى النتيجة ذاتها. ذلك أن القطار سوف يقبع
حيث هو إلى الأبد ليتفكك ببطء وأنه لن يدور محرك قطار على وجه
الأرض مرة أخرى.

- هل نستطيع أن نذهب يا أبي؟

- نعم. طبعا يمكننا ذلك.

كانا يمران من حين لآخر بأكوام صغيرة من الصخر على جانب
الطريق. إنها إشارات بلغة الفجر لكنها أضحت نماذج منسية. رآها أول

ما رآها في الشمال حيث كانت شائعة هناك ومنتشرة في المدن المقهورة والمنهكة والتي تعرضت للسلب والنهب. رسائل يائسة لأحبة مفقودين أمسوا في عداد الموتى.

في ذلك الحين كانت كل مخازن الأغذية قد فرغت ونفدت محتوياتها وانتشرت الجريمة وعمت كل بقاع الأرض. إن العالم سيكون في وقت قريب مأهولا وعلى نطاق واسع برجال سيأكلون أطفالكم ويلتزمونهم أمام أعينكم. حتى المدن عينها ستصبح معقلا لعناصر السلب والنهب المتفحمين الذين سيزحفون من بين الخرائب محملين بعلب طعام مغلقة بالقصدير ومجهولة التركيب والمحتوى؛ طعام ملفوف بشبكات من النيلون. كأنهم متسوقون يتبضعون من مخازن تموين قابعة في جهنم. كانت الرياح تعصف مثيرة ذرات سوداء من معدن الطلق الطري فتزحف عبر الشوارع كأنها حبر الحبار الذي ينفثه في قاع البحر. كان البرد قارسا ينسل إلى العظم والظلام يهبط باكرا. أما أولئك الذين يقتاتون بالقمامة فقد كانوا يهبطون الوديان الضيقة والشديدة الانحدار يحملون فوانيسهم ويضعونها على الرماد الذي تذرره الرياح فتخلف فوق الرماد ثقوبا حريرية تقتفي أثرهم كأنها عيون. كما كان الحجيج المهجرون المشردون ينهارون على الطرق ثم يسقطون موتى. أما الأرض الجرداء المحجوبة والمغطاة بما يشبه الكفن فقد أخذت تتدحرج إلى ما وراء الشمس ثم تعود ثانية دون أن تخلف أثرا أو تترك علامة كأنها مجاز لا اسم له يفضي إلى عالم الظلمات الذي ينتمي إلى الأزمنة الغابرة. قبل أن يصل إلى الساحل كان قد نفذ كل ما لديهما من مؤن. أما الريف فقد تعرض للسلب والنهب منذ سنوات خلت فلم يجدا شيئا في البيوت والأبنية المتاخمة للطريق. وجد دليل هاتف

في محطة تعبئة فكتب اسم البلدة على الخارطة التي كانت بحوزتهما مستعملا قلم رصاص. جلسا فوق حاجز حجري محيط ببناء وأكلا حبات من البسكويت ثم بحثا عن البلدة فلم يجداها.

أعاد ترتيب أجزاء الخارطة ونظر إليها من جديد. أخيرا أطلع الصبي عليها. كانا موجودين في مكان يبعد نحو خمسين ميلا إلى الغرب من المكان الذي يعتقد أنهما موجودان فيه. رسم رسوما توضيحية على الخارطة وقال: نحن موجودان هنا. تتبع الصبي بإصبعه الخط المؤدي إلى البحر وقال: كم من الوقت سيستغرق وصولنا إلى هناك؟

- أسبوعان. ثلاثة.

- ألونه أزرق؟

- البحر! لست أدري. هو أزرق اللون عادة.

هز الصبي رأسه وجلس ينظر إلى الخارطة. كان الرجل يراقبه. اعتقد أنه يدرك ما الذي كان يفكر فيه؛ كان مستغرقا بالنظر إلى الخارطة يتأمل فيها بطريقة تلائم طفلا واضعا إحدى أصابعه على البلدة التي عاش فيها. كان ينظر في صفحات دليل الهاتف إلى اسم عائلته بين الآخرين. لقد كان كل شيء في مكانه وله ما يبرره في العالم. قال له:

- تعال، يجب أن نذهب.

بدأ المطر ينهمر في وقت متأخر بعد الظهر. تحولا عن الطريق إلى حقل عبر طريق قدرة حيث أمضيا ليلتهما تحت سقيفة فيه وفوق أرض مفروشة بالإسمنت. في الطرف البعيد من السقيفة يوجد براميل معدنية فارغة. أغلق الفتحات بالبراميل الفارغة جاعلا منها بديلا عن الأبواب ثم أضرم

نارا فوق الأرض. سطح على الأرض بعض العلب الكرتونية سطحاً كي يتخذاً منها فراشا لهما. ظل صوت المطر المنهمر على السقف المعدني الذي يعلوهما مسموعاً طوال الليل. عندما استيقظ كانت النار قد خمدت وكان الجو شديد البرودة. ألقى الصبي جالساً ملتقاً ببطانية.

- ماذا في الأمر؟

- لا شيء. لقد حلمت حلماً مزعجاً.

- بماذا حلمت؟

- لا شيء.

- هل أنت على ما يرام؟

- لا.

لف ذراعيه حوله وعانقه، وقال:

- لا بأس عليك.

- كنت أبكي لكنك لم تستيقظ.

- أنا آسف. لقد كنت شديد التعب.

- أعني. هذا ما حدث بالحلم.

عندما استيقظ صباحاً كان قد توقف هطل المطر. جلس ينصت إلى صوت الماء المتسرب الذي تجمع من الأمطار. سحب وركه فوق الأرض الإسمنتية القاسية ونظر إلى الخارج حيث يمتد الريف الرمادي. كان الصبي ما يزال نائماً. تجمعت مياه الأمطار فوق الأرض مشكلة بركاً صغيرة جداً موحلة وقذرة. ثمة فقاعات صغيرة تتشكل فوق صفحات الماء،

تزلق ثم ما تلبث أن تتلاشى. سبق لهما أن ناما في بلدة قابعة عند سفوح أحد الجبال في مكان مماثل وقد أصغيا يومها إلى صوت المطر. كان ثمة مخزن لبيع الأدوية إضافة إلى أشياء ومواد أخرى وهو ذو طراز عتيق. يوجد فيه طاولة طويلة مغطاة بالرخام الأسود، إضافة إلى كراسي من الكروم لها مقاعد من البلاستيك المتكسر وقد رقت وغطيت بأشرطة كهربائية. أما الصيدلية فقد تعرضت للسلب والنهب وأما المخزن نفسه فقد بقي على حاله ولم تمس محتوياته.

وهو يحتوي على معدات إلكترونية باهظة الثمن معروضة على الرفوف ولم تتعرض للسرقة. وقف يفحص المكان بعناية؛ نثرات، بضائع متنوعة وأدوات صغيرة مختلفة. ما هذه الأشياء؟ أمسك يد الصبي متجها إلى الخارج، لكن الصبي كان قد رآه: إنه رأس بشري موضوع أسفل وعاء جرسى الشكل عند نهاية الطاولة. الرأس مغطى بقبعة مستديرة وهو جاف. العينان ذابلتان ومنكفئتان نحو الداخل بحزن. هل كان يحلم؟ كلا إنه لم يكن يحلم. نهض، جثا على ركبتيه، نفخ بالجمر، سحب أطراف الخشب المحترقة فعادت الحياة إلى النار.

- يوجد أناس آخرون صالحون. لقد قلت لي ذلك.

- نعم.

- فأين هم إذًا؟

- إنهم مختبئون.

- مختبئون ممن؟

- إنهم مختبئون بعضهم من بعض.

- أكثر عددهم؟

- لا ندري.

- ولكن تقريبا.

- تقريبا. نعم.

- هل هذا صحيح؟

- نعم. إن هذا صحيح.

- ولكن يمكن ألا يكون صحيحا.

- أعتقد أنه صحيح.

- حسنا.

- أنت لا تصدقني.

- بل أصدقك.

- حسنا.

- إني أصدقك دائما.

- أنا لا أعتقد ذلك.

- نعم أنا أصدقك. علي أن أفعل ذلك.

خاضا بالوحد متجهين إلى الطريق السريع. كان السير عبر الوحد مجهدا وشاقا. جعلت الأمطار الجو مضمعا برائحة التراب والرماد المبلل. المياه العكرة تملأ المسارب على جانب الطريق وتمر عبر مجاري المياه القذرة الموجودة تحت الطريق ثم تتجمع مشكلة مستقعا. يوجد في الفناء أيل بلاستيكي. في وقت متأخر من اليوم اللاحق دخلا بلدة صغيرة. اندفع

ثلاثة رجال من خلف شاحنة واعترضوا طريقيهما. انطلقوا فجأة وهم يرتدون أسمالا بالية وأثوابا ممزقة ويحملون بأيديهم مواشير مقطعة. ماذا يحملون بالسلة؟ أشهر المسدس وصوبه نحوهم. توقفوا. تشبث الصبي بمعطفه. لم ينبس ببنت شفة. دفع العربية من جديد واتجها إلى جانب الطريق. جعل الصبي يتولى أمر العربية وتراجع إلى الوراء مصوباً المسدس نحوهم. حاول أن يتصرف كأى مقاتل عادي مهاجر لكن قلبه كان يدق فأدرك أنه على وشك أن تتابه نوبة سعال. تراجعوا على الطريق إلى الوراء ومكثوا ينظرون. وضع المسدس في حزامه، استدار وأمسك العربية. عندما بلغا قمة المرتفع على الطريق توقف ونظر إلى الوراء. كانوا ما يزالون واقفين حيث هم. طلب من الصبي أن يدفع العربية وذهب إلى فناء خارج الطريق يستطيع من خلاله أن يشرف على المنحدر لكنهم كانوا قد رحلوا. كان الصبي مذعورا. وضع المسدس فوق الغطاء، تولى هو دفع العربية وتابعا المسير.

جلسا في حقل يراقبان الطريق إلى أن هبط الظلام ولكن لم يأت أحد. كان الجو شديد البرودة. عندما اشتدت ظلمة الليل وأمست الرؤية متعذرة دفعا العربية أمامهما عائدين إلى الطريق وهما يمشيان مشية المضطرب. أخرج البطانيات، التقيا بها ثم تابعا المسير وهما يتحسنان الأرض بأقدامهما. إحدى عجلات العربية كانت تصر صريرا متكررا ولكن لا سبيل لإصلاحها. استمرا بالمسير وهما يشقان طريقيهما بصعوبة وجهد كبير وذلك لعدة ساعات ثم دفعا متعثرين إلى دغل موجود بجانب الطريق، حيث اضطجعا على الأرض الباردة وهما يرتجفان وترتعد أوصالهما من البرد وشدة الإعياء.

ناما حتى الصباح. عندما استيقظ كان مريضا.

أصابته حمى فاضطجعا في الغابات كالمشردين الهائمين على وجوههم. لا يوجد مكان مناسب لإضرام النار. لا يوجد مكان آمن. جلس الصبي بين الأغصان يراقبه. عيناه طافحتان. قال له:

- هل أنت على وشك أن تموت يا أبي؟ هل أنت موشك على الموت؟

- كلا، أنا مريض. هذا كل ما في الأمر.

- أنا خائف حقا.

- أعرف ذلك، سوف تكون الأمور على ما يرام وسوف أتمائل للشفاء
ولسوف ترى.

أشرفت أحلامه. ها قد عاد العالم الذي تلاشى. أقرباؤه الذين ماتوا منذ أمد بعيد قد غسلوا وجوههم وأيديهم وأخذوا ينظرون إليه بأطراف عيونهم دون أن ينبس أحدهم ببنت شفة. فكر في حياته وعاد بالذاكرة إلى ماضٍ سحيق. كان ذات يوم رمادي في مدينة غريبة واقفا قرب نافذة يشرف من خلالها على الطريق. خلفه منضدة خشبية، مضاءة بمصباح صغير وعلى المنضدة كتب وأوراق. كان المطر قد بدأ ينهمر وثمة قطة في الزاوية استدارت وعبرت الممر الجانبي لتجلس تحت طاولة معدة لشرب القهوة. وكانت توجد هناك امرأة جالسة إلى منضدة وقد جعلت رأسها بين كفيها. بعد سنوات وقف على أطلال مكتبة محترقة منقلبة رأسا على عقب. التقط واحدا من آلاف الكتب المكسدة بعضها فوق بعض في صفوف قلب بإبهامه صفحاته المفعمة برائحة الدخان. لم يفكر بأصغر شيء يمكن إسناده إلى العالم الذي سيأتي. أصيب بالدهشة. ذلك أن الفراغ الذي

تشغله هذه الأشياء كان هو نفسه شيئاً متوقعا. ترك الكتاب يسقط من يده، ألقى نظرة أخيرة حوله ثم خرج إلى حيث كان الجو باردا والضوء رماديا وباهتا.

لم ينم طيلة ثلاثة أو أربعة أيام إلا قليلا حيث كان السعال المسبب لآلام مبرحة يوقظه. سعاله مترافق مع صفير وأصوات خشنة تثير الأعصاب. قال للظلام الذي لا يعرف الشفقة:
- أنا آسف.

رد الصبي:

- لا بأس.

أضاء الفانوس الصغير الذي يعمل على الزيت، وضعه فوق صخرة، ونهض ملتفا بالبطانيات. خرج جارا قدميه بين الأغصان جرا. همس الصبي له طالبا منه ألا يذهب. قال له: سأمشي مسافة قصيرة فقط، لن أذهب بعيدا وسوف يكون بوسعي أن أسمعك إن ناديتني. إن انطلقا الفانوس فسيضل طريقه ولن يستطيع أن يهتدي لطريق العودة. جلس على قمة هضبة بين الأغصان ونظر إلى الظلام الذي يحيط به؛ لا شيء يرى. لا يوجد رياح. عندما كان يخرج في الماضي - كما فعل الآن - لينظر ويستطلع الريف الهاجع وسط ظلمة لا تكاد توفر الحد الأدنى من الرؤية، وحيث كان القمر المتوارى يتعقب آثار الأراضي المقفرة لدرجة تثير السخرية. كان أحيانا يرى ضوءا. عالم يلفه الضباب ويسبح بالظلمات؛ لقد ضاعت معالمه. كان يعود بين وقت وآخر صباحا ويده المنظار فينظر من خلاله إلى الريف بحثا عن أي أثر لدخان ولكن عبثا كان يفعل.

كان واقفا على حافة حقل شتوي بين مجموعة من الفتيان الغلاظ. كانوا في مثل عمر الصبي أو أكبر منه سنا. وقف يراقبهم بينما كانوا ينبشون أرضا صخرية واقعة في منحدر تل مستخدمين لهذه الغاية معولا وفأسا. فإذا هم يكشفون عن مجموعة من صغار الأفاعي يقدر عددها بمئة أفعى صغيرة. كانت قد جمعت التماسا للدفع الاعتيادي. بدأت تتحرك ببطء شديد بعد أن انكشفت للضوء القاسي البارد. إنها تشبه أحشاء وحش ضخمة تعرضت لضوء النهار. صب الفتية شيئا من البنزين فوقها وأحرقوها حية. لم يكن الفتيان ذوي دوافع شريرة لكنهم فعلوا ما فعلوا من أجل متعة النظر أو هكذا كانوا يتخيلون. تلوت الأفاعي على نحو رهيب وبعضها زحف محترقا في كهفه لينير بناره المواضع الأكثر ظلمة التي كان متواجدا فيها. حيث إن الأفاعي كانت خرساء لذا لم يكن ثمة صرخات ألم. ظل الفتيان يراقبونها وهي تحترق وتتلوى وتتفحم وبادلوها صمتا بصمت ثم تفرقوا مع ظلمة أول الليل متوجهين إلى بيوتهم لتناول طعام العشاء وكل منهم يحمل أفكاره الخاصة به.

استيقظ الصبي في إحدى الليالي من حلم لكنه لم يحدثه عنه.

قال الرجل:

- ليس عليك أن تخبرني عن الحلم. لا بأس عليك.

- أنا خائف.

- ستكون على ما يرام.

- كلا. لن يكون ذلك.

- إنه مجرد حلم.

- إني خائف حقا.

- أعرف.

أشاح الصبي بوجهه عنه. عانقه الرجل وقال له:

- أصغ إلي.

- ماذا؟

— عندما تكون أحلامك من عالم لم يكن له وجود أو من عالم لن يكون له وجود وبعدها تكون سعيدا من جديد لا ينبغي لك أن تستسلم. هل تفهم؟ إنك لا تستطيع أن تيأس وتستسلم. لن أدعك تفعل ذلك.

عندما استأنفا مسيرهما كان شديد الضعف لدرجة لم يصل إليها منذ سنوات وقد تجلى ذلك من خلال نطقه وكلامه. أصبح قذرا ومصابا بإسهال وأخذ يتكئ على ممسك العربة. صار ينظر إلى الصبي بعينين غائرتين منهكتين. اتسعت المسافة التي باتت تفصل بينهما في أثناء المسير وقد استطاع أن يستشعر ذلك. في غضون يومين اثنين مرا بريف كانت قد أتت عليه عواصف محملة بالحرارة وخلفته محترقا وعلى نطاق واسع. الطريق مغطى بكتلة صلبة متراسة من الرماد تبلغ سماكتها عدة إنشات ويصعب دفع العربة فوقها. لقد تغضن أسفلت الطريق بفعل الحرارة وتثنى فأضحى معوقا للسير عليه. اتكأ على ممسك العربة وألقى نظرة على طول الطريق المنحدر أمامه؛ الأشجار النحيلة، المجاري المائية الرمادية الموحلة والأرض المتفحمة.

في الأرض الجرداء المقفرة وخلف تقاطعات الطرق شرعا يمران بممتلكات وأمتعة شخصية لمسافرين وهي ملقاة على قارعة الطريق منذ

سنوات. علب وحقائب كلها مذوبة ومتفحمة. حقائب بلاستيكية قديمة أتت عليها النار فشوهتها وأفسدت أشكالها. لقد تناثرت هنا وهناك آثار أشياء تم سحبها وكنسها عن الأسفلت. بعد أن قطعنا ميلاً إضافياً سيراً على الطريق فوجئاً برؤية الموتى. جثث نصفها غائصة ومغروزة بالزفت؛ جثث كان أصحابها قد حاولوا التعلق أو التثبيت بأي شيء. أفواه أصحابها مفتوحة تصرخ. قال:

- خذ يدي لا ينبغي لك أن ترى هذا المشهد.

- ما تضعه في رأسك يبقى فيه إلى الأبد؟

- نعم.

- حسناً يا أباي.

- حسناً!

- إنهم موجودون هناك الآن.

- لا أريدك أن تتظر.

- وسيبقون حيث هم.

توقف واتكأ على العربة. نظر إلى أسفل الطريق ثم نظر إلى الصبي، ومن الغريب جداً أنه لم تظهر على الصبي علامات اضطراب.

قال الصبي:

- لماذا لا نستمر في مسيرنا وكفى؟

- أجل، حسناً.

- لقد كانوا يحاولون أن ينجوا بأنفسهم. أليس الأمر كذلك يا أباي؟

- نعم، لقد حاولوا.

- لماذا لم يبتعدوا عن الطريق؟

- لم يتمكنوا. فقد كان كل شيء يحترق.

شقا طريقهما وسط الجثث الجافة المتغضنة. الجلد المتمطط فوق العظام والوجوه الممزقة المنقبضة ذعرا وأما والغائرة في جماجمها. كأنهم ضحايا انفجار فراغي شنيع. مرا بهم بصمت وصولاً إلى مجاز صامت وسط الرماد الذي راكمته الرياح. لقد كان عليهما دائماً أن يكافحاً برد الطريق وإلى الأبد.

اجتازا موقعا في قرية صغيرة تقع على جانب الطريق، كان قد أتى عليه الحريق فلم يبقِ ولم يذر. بضعة صهاريج تخزين معدنية وبعض المداخل القرميدية المتفحمة التي ما تزال منتصبة. يوجد مخلفات فاسدة رمادية لزجاج مذوب وهي تملأ الحضر. إضافة إلى لفات من الأسلاك الكهربائية غير المستعملة صدئة ملقاة على جانب الطريق ومنتشرة على طول عدة أميال. كان في تلك المنطقة ينتابه السعال مع كل خطوة يخطوها. لقد رأى الصبي كيف كان ينظر إليه. إنه على الحال التي ظن الصبي أنه عليها.

جلسا على الطريق وأكلا آخر ما تبقى لديهما من خبز مقلي، لقد كان يابساً كأنه بسكويت. ثم أكلا آخر علبة من سمك التونة. فتح علبة خوخ مجفف ومررها أحدهما إلى الآخر. أخذ الصبي العلبة وشرب السائل الموجود فيها حتى آخر قطرة. وضع العلبة في حضنه وأخذ يمرر سبابته على محيط العلبة من الداخل ثم يلعقها.

قال الرجل:

- لا تقطع إصبعك .

- أنت دائما تقول هذا الكلام .

- أعرف .

كان ينظر إليه وهو يلحق غطاء اللعبة باهتمام بالغ كأنه هرة تعلق ظلها

المنعكس على الزجاج . قال له :

- كف عن النظر إلي .

- حسنا .

طوى غطاء اللعبة ووضعه على الطريق أمامه . قال :

- ماذا؟ ما هذا؟

- لا شيء

- أخبرني .

- أعتقد أن ثمة شخصا يتبعنا .

- هذا ما دار في خلدي .

- أهذا ما دار في خلدك؟

- نعم . هذا ما أعتقد أنك ستقوله . ماذا تريد أن تفعل؟

- لا أدري .

- ماذا تعتقد؟

- دعنا نذهب وكفى . علينا أن نخفي القمامة التي خلفناها .

- لأنهم سيظنون أن لدينا الكثير من الطعام .

- نعم

- ولسوف يحاولون قتلنا.

- لن يقتلونا.

- لكن من الممكن أن يحاولوا فعل ذلك.

- نحن على ما يرام.

- حسنا.

— أعتقد أن علينا أن نضطجع بين الأعشاب؛ كي نتبين هيتهم التي هم عليها.

- وعددهم.

- وعددهم. نعم.

- حسنا.

— إذا استطعنا أن نجتاز النهر الصغير فسنتمكن من اعتلاء الجروف العالية ومن هناك نشرف على الطريق ونراقبه.

- حسنا.

- سوف نجد مكانا.

نهضا وكوما البطانيات في العربة. قال الرجل:

- خذ العلبة.

أمسى الغروب وشيكاً قبل أن يصلا إلى الجسر الذي يعلو النهر الصغير. دارا فوق الجسر ودفعا العربة بين الغابات؛ بحثا عن مكان يتركها فيه بحيث تتعذر رؤيتها. وقفا ينظران إلى الطريق خلفهما وقد بدأت تتسدل عليه ظلمة أول الليل.

قال الصبي:

- ماذا لو وضعناها أسفل الجسر؟

- وماذا لو ذهبوا إلى هناك طلبا للماء؟

- كم تظنهم يبعدون عنا؟

- لا أدري.

- إن الظلام يشتد.

- أعرف.

- ماذا لو مروا بقربنا تحت جناح الظلام؟

- دعنا فقط نجد مكانا يمكننا من المراقبة. لئلا يهبط الظلام بعد.

أخفيا العربة وتسلقا المنحدر عبر الصخور حاملين بطانياتهما وأقحما نفسيهما في مكان يمكنهما من رؤية الطريق خلفهما عبر الأشجار. ربما يستطيعان رؤية مسافة تصل إلى نصف الميل. ربضا في مكان يقبهما من الرياح، التقا بالبطانيات وتناوبا على المراقبة، لكن الصبي استسلم إلى النوم بعد برهة. كاد هو نفسه أن ينام، لكنه رأى شخصا يظهر من أعلى الطريق ثم يتوقف عند القمة. ظهر سريعا شخصان آخران ثم انضم إليهم رابع. وقفوا وتجمعوا ثم تقدموا. لقد تمكن من رصدهم وتمييزهم كأشكال بشرية في عتمة الغسق المستحكمة. توقعهم أن يتوقفوا سريعا وتمنى لو أنه وجد مكانا أكثر بعدا عن الطريق. إن توقفوا عند الجسر فسوف تكون ليلة طويلة وباردة. انحدروا مع الطريق ثم عبروا الجسر. ثلاثة رجال وامرأة كانت تتهادى في مشيتها، وفيما كانت تقترب منه اكتشف أنها حامل. الرجال يحملون حقائب خلف ظهورهم والمرأة تمسك

بيدها حقيبة صغيرة مصنوعة من قماش. كان البؤس باديا عليهم جميعا لدرجة يعجز الكلام عن وصفها. كانت أنفاسهم تطلق بخارا ناعما في الهواء. عبروا الجسر وتابعوا السير إلى أن غابوا عن النظر الواحد تلو الآخر وغاصوا في لجة الظلام المقيم.

كانت ليلة طويلة على كل حال. عندما احتشد من الضوء ما يسمح بالرؤية انتعل حذاءه ونهض ملتفا بإحدى البطانيات ثم خرج وألقى نظرة على الطريق المنحدر أمامه: أشجار عارية مصطبغة بلون الحديد والحقول خلفها. أشكال متموجة ومتجعدة لحاويات قديمة لا تكاد ترى، ربما كانت مستوعبات قطن. كان الصبي نائما. نزل إلى حيث توجد العربة، أخرج الخارطة وقارورة ماء، إضافة إلى علبة فاكهة من مخازنها الصغيرة ثم قفل عائدا وجلس على البطانيات وشرع يتفحص الخارطة.

- أنت تعتقد دائما أن لدينا أكثر مما هو موجود بالفعل.

حرك إصبعه. هنا إذا.

- أكثر.

- هنا.

- حسنا.

طوى الصفحات الرخوة والعفنة وقال: حسنا.

جلسا ينظران إلى الطريق من خلال الأشجار.

هل تظن أن آباءك يراقبون؟ وهل يَرِنُونَكَ بموازين كتابهم؟ بماذا يزنون؟ ليس ثمة كتاب. أبأؤك موتى في الأرض. ويمتد الريف بين شجرة

صنوبر وشجرة بلوط وشجرة صنوبر أخرى. نباتات المغنولية. أشجار ميتة كغيرها. التقط أحد الأغصان الثقيلة، سحقه بيده ثم ترك المسحوق ينخل بين أصابعه.

كانا على الطريق في وقت مبكر من صباح اليوم اللاحق، ولم يكونا قد ذهبنا بعيدا عندما أمسك الصبي كم الرجل وشده. توقفا. ثمة عمود رفيع من الدخان يرتفع بين الغابات الممتدة أمامهما. وقفا يراقبانه.

- ما الذي ينبغي علينا عمله يا أبي؟

- ربما يجب علينا أن نلقي نظرة.

- بل دعنا نستمر بالمسير.

- وماذا لو كانوا يسلكون الطريق ذاتها التي نسلكها؟

قال الصبي:

- وماذا في ذلك؟

- سوف نجعلهم يسرون خلفنا.

- وماذا لو كانوا جيشا؟

- إنها مجرد نار صغيرة.

- لماذا لا نكتفي بالانتظار؟

- لا نستطيع أن نتنظر. فقد نفذ طعامنا أو كاد. علينا أن نستمر بالمسير.

تركا العربة في الغابات وفحصا دوران الطلقات الموجودة في الأسطوانة الخشبية منها والحقيقية ثم وقفا ينصتان. كان الدخان عموديا، إذ إن الهواء هادئ وساكن ولا يوجد صوت من أي نوع. الأغصان طرية، فقد

تشبعت بالأمطار التي هطلت مؤخرا ولم تكن تصدر أصواتا عند وطئها. التفت ونظر إلى الصبي. الوجه الصغير القذر قد اتسع وكبر خوفا. دارا حول النار من مسافة بعيدة. الصبي متشبث بيده. انحنى نحوه ولف ذراعه حوله.

مكثا منصتين ردحا طويلا من الزمن. قال هامسا:

- أظن أنهم ذهبوا.

- ماذا؟

- أعتقد أنهم ذهبوا. ربما يقومون الآن بجولة حراسة ومراقبة.

- ربما يكونون قد نصبوا لنا فخا يا أبي.

- حسنا. دعنا ننتظر وقتا قصيرا.

- انتظرا. تمكنا من رؤية الدخان من خلال الأشجار. بدأ هبوب الريح

فاضطرب عمود الدخان عند الذروة فتحرك واستطاعا أن يشم رائحته.

شما رائحة شيء ما يُطبخ. قال الرجل:

- دعنا ندر دورة حول المكان.

- هل أستطيع أن أمسك يدك.

- نعم. طبعا يمكنك ذلك.

كانت الغابات قد أضحت جذوع أشجار محروقة. لا يوجد شيء يرى.

قال الرجل:

- أعتقد أنهم رأونا فهربوا. لقد شاهدوا المسدس.

- وتركوا طعامهم يُطبخ.

- نعم.

- دعنا نلق نظرة.

- إن الوضع مخيف حقا يا أبي.

- لا يوجد أحد هنا. كل شيء على ما يرام.

سارا عبر أرض صغيرة مقطوعة الشجر. الصبي متشبث بيده. لقد أخذوا معهم كل الأشياء باستثناء شيء أسود متفحم مثبت على سيخ وموضوع فوق الجمر. كان يراقب محيط المكان ويتحصه عندما استدار الصبي ودفن رأسه في جسد الرجل. نظر بسرعة؛ كي يرى ما حصل، وقال:

- ماذا في الأمر؟ ماذا في الأمر؟

هز الصبي رأسه وقال:

- أوه يا أبي.

التفت ونظر من جديد. ما رآه الصبي كان طفلا بشريا مقطوع الرأس، منزوع الأحشاء وقد أضرمت النار تحته حتى تفحم. انحنى، التقط الصبي، سار به نحو الطريق وهو يضمه ويعانقه وهمس قائلاً:

- أنا آسف. أنا آسف.

لم يكن يعلم إن كان سيتكلم بعدها. خيما قرب نهر وجلسا حول النار يصفيان إلى أصوات المياه الجارية تحت جناح الظلام. لم يكن المكان آمناً، فصوت النهر كان طاغيا على ما سواه من أصوات، لكنه قال في نفسه: إن المكان سينعش الصبي. أكلا آخر ما تبقى لديهما من مؤن وطعام وجلسا

يتفحصان الخارطة. قاس الطريق بقطعة من سلك ونظر إليه ثم أعاد قياسه. مازالت المسافة التي تفصلهما عن الساحل بعيدة إنه لا يعلم ماذا سيجدان عندما يصلان إليه. جمع أجزاء الخارطة، أعادها إلى الكيس البلاستيكي وجلس يحدق بالجمر.

في اليوم اللاحق اجتازا النهر عبر جسر حديدي ضيق ودخلا بلدة صغيرة فيها طاحون قديمة. سارا بين البيوت الخشبية لكنهما لم يعثرا على شيء. رجل جالس في مدخل مبنى مسقوف بثيابه كان قد مضى على موته سنوات. لقد بدا وكأنه يتأهب لإعلان عن عطلة ما. سارا بمحاذاة حائط المطحنة الطويل والمعتم. أطر نوافذها محاطة بالقرميد. كان السخام الأسود الناعم يهب وينطلق أمامهما على طول الطريق.

توجد أشياء مبعثرة على جانب الطريق. أدوات كهربائية، أثاث وعدد أشياء خلفها مهاجرون على الطريق منذ أمد بعيد بعد أن ماتوا موتا جماعيا وبأشكال مختلفة.

حتى سنة مضت كان الصبي يلتقط أحيانا شيئا ما ويحتفظ به مدة من الزمن لكنه لم يعد يفعل ذلك. جلسا ليستريحا وشربا آخر ما تبقى معهما من ماء عذب وتركوا العبوة البلاستيكية على قارعة الطريق. قال الصبي: لو حصلنا على ذاك الطفل الصغير لكان بإمكانه أن يذهب معنا.

- نعم، كان يمكنه ذلك.

- أين وجدوه؟

لم يجب.

- هل من المحتمل وجود طفل آخر في مكان ما؟

- لا أعرف. لكن هذا ممكن.

- أنا آسف لما قلته عن أولئك الناس.

- أي أناس؟

- أولئك الملقون على قارعة الطريق الذين أحرقوا.

- إن ما أعرفه أنك لم تقل شيئاً سيئاً بحقهم.

- لم يكن ما قلته سيئاً. هل نستطيع أن نذهب الآن؟

- حسناً. هل تريد أن تتركب العربة الآن؟

- حسناً.

- لماذا لا تتركب برهة من الزمن؟

- لا أريد ذلك. يلائمني ألا أفعل.

مياه راكدة في الريف الشاسع. المستنقعات والأراضي الموحلة على جانب الطريق رمادية اللون ولا حراك فيها. أنهار ساحلية رديئة، بطيئة الحركة وتثير الكآبة تمر عبر أراضٍ خربة. استمرا في المسير. يوجد على الطريق أمامهما منحدر وأجمة قصب. قال:

- أعتقد أن جسراً موجوداً هناك. جدول ماء ربما.

- هل نستطيع أن نشرب من الماء؟

- لا خيار لنا.

- ألن تجعلنا المياه نصاب بمرض؟

- لا أظن. من الممكن أن تكون جافة.

- هل أستطيع أن أمضي قدماً؟

- طبعاً، لك ذلك.

بدأ الصبي بالنزول عن الطريق. لم يره يعدو منذ زمن بعيد. كان يشق طريقه بمرفقيه ويضرب الأرض بحذاء التنس الذي ينتعله؛ حذاء أكبر حجماً مما يلائم قدميه. توقف ينظر فيما حوله وهو يعرض على شفته.

الماء يزيد قليلاً عن جدول صغير. رآه يتدفق خفيفاً ثم يتسرب تحت الطريق عبر مكعب إسمنتي. شرع يضرب صفحة الماء بيده وينظر ليرى إن كان الماء يتحرك. أخرج قطعة قماش وإناء بلاستيكية من العربة ثم رجع ولف القماش على فوهة الإناء وغمره بالماء وهو ينظر إليه إلى أن امتلأ. أخرج الماء يقطر منه. أمسك به ودفعه حيث الضوء. لا يبدو أنه شديد السوء. أزاح القماش وناول الإناء للصبي، قائلاً:

- هيا.

شرب الصبي وأعاد الإناء.

- اشرب المزيد.

- اشرب أنت شيئاً من الماء يا أبي.

- حسناً.

جلسا يصفيان الماء من الرماد ويشربان حتى لم يعودا يطيقان شرب

المزيد. استلقى الصبي على ظهره فوق العشب.

- علينا أن نرحل.

- أنا تعب حقاً.

- أعرف.

جلس ينظر إليه. لم يذوقا طعاما منذ يومين. يومان آخران دونما طعام كفيلا بإضعافهما. تسلق الضفة عبر القصب؛ ليتحصص الطريق. الريف المفتوح على مدى البصر معتم ومتفحم ولا أثر لمخلوق فيه. كانت الريح قد كنست الرماد والغبار من على السطح. أراضٍ كانت يوما غنية خصبة أما الآن فليس ثمة مؤشر على وجود حياة في أي مكان. ليس هذا هو الريف الذي عرفه. أسماء البلدات والأنهار. قال:

- هيا، علينا أن نذهب.

نأما زمنا طويلا، بيد أنهما أفاقا غير مرة ليجدا نفسيهما متمددين على الأرض وباسطين ذراعيهما وقدميهما كأنهما ضحيتان من ضحايا حوادث السير. إنه نوم الموت. جلس منتصبا وتحسس المكان حوله بيده؛ بحثا عن المسدس. وقف وقت المساء الثقيل المرهق مسندا مرفقيه إلى ممسك العربة ومجيلا النظر عبر الحقول. شاهد بيتا يبعد عنه مسافة الميل تقريبا. كان الصبي هو الذي رآه. كان يتنقل من خلف سيارة إلى الأمام في بيت يشبه السخام؛ لقد كان ذلك حلما مشكوكا فيه وغير مؤكد الحدوث. اتكأ على العربة ونظر إليه، إن الوصول إلى البيت يتطلب منهما جهدا. أخذوا البطانيات وأخفيا العربة في مكان على الطريق. وصلا إلى بيت قبل الظلام لكنهما لم يتمكنوا من العودة.

- علينا أن نلقي نظرة فليس لنا خيار.

- لا أريد أن أفعل.

- لم نأكل منذ أيام.

- لست جائعا.

- لا لست جائعا بيد أنك تعاني من مجاعة.

- لا أريد أن أذهب إلى هناك يا أبي.

- لا يوجد أحد هناك. أنا أعد بهذا.

- وكيف لك أن تعرف؟

- أعرف وكفى.

- من المحتمل أن يكونوا في الداخل.

- لا، ليسوا في الداخل. سوف تكون الأمور على ما يرام.

عبرا الحقول ملتحفين بالبطنانيات وهما يحملان المسدس وقارورة ماء فقط. كان الحقل قد حرث وقلبت تربته مرة أخيرة. لذا كان يوجد فيه بذيرات وسويقات نبات باقية من مخلفات الزرع بعد الحصاد وقد نتأت من التربة. مازال يرى أثر ضعيف خلفه المحراث على الأرض وهو يمتد من الشرق إلى الغرب. كانت قد أمطرت مؤخرا فالتربة مازالت رطبة وطرية. أبقى عينه على الأرض ولم يكن قد مضى وقت طويل حين توقف والتقط رأس سهم من الأرض. نقر عليه، أزال عنه ما كان عالقا به، مسحه ونظفه ثم أعطاه للصبى. إنه مصنوع من معدن الكوارتز الأبيض وهو في حالة ممتازة كالتي كان عليها يوم صناعته. قال:

- يوجد المزيد. انظر إلى الأرض وسوف ترى.

وجد اثنين آخرين. صوان رمادي اللون. ثم وجد قطعة معدنية أو هي عبارة عن زر. يوجد على القطعة قشرة سميكة من الصدأ الذي يتشكل على النحاس عادة. أزال ما عليها بظفر إبهامه. أخرج سكينه ونظف نقشها مما علق به بعناية. الكتابة التي عليها منقوشة بأحرف إسبانية.

شرع ينادي الصبي وهو يمشي مجهدا ويجر قدميه جرا إلى الأمام. أجال نظره في الريف الرمادي وفي السماء الرمادية ورمى القطعة النقدية المعدنية أرضا ثم حث الخطى؛ حتى لا يدركه الوقت.

وقفا قبالة البيت ينظران إليه. يوجد درب مفروش بالحصى يصل بين الطريق الرئيسية والبيت وهو ينعطف جنوبا. غرفة مفتوحة الجانب ومبنية من القرميد وسلم مزدوج يؤدي إلى الرواق الذي يرتفع سقفه على أعمدة عند مدخل البيت. في المؤخرة يوجد مبنى صغير مبني من القرميد وهو ملحق بالمبنى الرئيس ربما كان فيما مضى مطبخا. خلف الملحق يوجد كوخ من خشب. هم بصعود السلم إلا أن الصبي سحبه من كفه.

- هل نستطيع أن نتنظر برهة من الوقت؟

- حسنا. لكن الظلام بدأ يخيم.

- أعرف.

- حسنا.

جلسا على درجات السلم، وهما ينظران إلى الريف الممتد أمامهما.

قال الرجل:

- لا يوجد أحد هنا.

- حسنا.

- أما زلت خائفا؟

- نعم.

- نحن بخير.

- حسنا.

اعتليا السلم إلى الرواق العريض المسقوف والمرصوف بالقرميد. كان الباب مفتوحا وهو مطلي باللون الأسود وتكسوه طبقة رمادية. خلف الباب يوجد أغصان يابسة وأعشاب جافة كانت قد كنستها الرياح فجمعتها هناك. قبض الصبي على يده وتشبث بها بإحكام وقال: لماذا ترك الباب مفتوحا يا أبي؟

- إنه مفتوح. هذا كل ما في الأمر. من الممكن أن يكون مفتوحا هكذا منذ سنوات. ربما تركه آخر من كان هنا من الناس مفتوحا؛ كي يخرجوا أمتعتهم.
- أعتقد أن علينا الانتظار حتى يوم الغد.

- تعال. سوف نلقي نظرة خاطفة قبل أن يشتد الظلام وتستحكم العتمة. إن استطعنا أن نؤمن المكان وأن نطمئن إليه فسيكون بوسعنا أن نضرم فيه نارا.

- لكننا لن نمكث داخل البيت. أليس كذلك؟
- ليس علينا أن نبقى في البيت.

- حسنا.

- دعنا نشرب جرعة ماء.

- حسنا.

تناول القارورة من جيب حقيبته الجانبي، فتح غطاءها ووقف ينظر إلى الصبي، وهو يشرب ثم شرب هو نفسه وأعاد لها الغطاء. أمسك يد الصبي ودلفا إلى القاعة المعتمة؛ سقف عالٍ وثرثرا مستوردة. عند منبسط السلم توجد نافذة طويلة إغريقية الطراز. كان ظلها الباهت الذي شكله آخر ضوء النهار منعكسا على بيت السلم. همس الصبي:

- لا يتحتم علينا أن نصعد إلى الدور العلوي. أيجب علينا أن نفعل؟

- كلا، ربما يوم غد.

- بعد أن نؤمن المكان ونطمئن إليه.

- نعم.

- حسنا.

دخلا غرفة الاستقبال. يوجد على الأرض سجادة ضاعت معالمها، حيث غطتها طبقة الرماد الذي أصبح طميا. الأثاث مغطى بأغطية معدة لهذا الغرض. الجدران مغطاة برفق توشي بأنها كانت فيما مضى مطلية. في الجانب الآخر من الغرفة يوجد بيانوضخم. أشكال الأشياء منعكسة على زجاج النافذة الرقيق. دخلا ثم وقفا صامتين. طافا حول الغرف وجالا فيها وتفحصاها كما يفعل الراغبون في شراء بيت. وقفا ينظران إلى خارج المنزل من خلال النوافذ المشرعة؛ إلى حيث الأرض التي تبتلعها العتمة.

يوجد في المطبخ سكاكين مائدة وقدر طبخ وأنية من الخزف الإنكليزي الفاخر. كما يوجد غرفة صغيرة بين المطبخ وحجرة الطعام، حيث الباب أغلق برفق خلفهما. أرض مكسوة بالقرميد وصفوف من الأرفف عليها عدة دزينات من المرطبانات التي يتسع كل منها لربع غالون. اجتاز الغرفة، التقط الفلفل الأحمر بين الصفوف المرتبة بشكل منظم. طماطم، ذرة، بطاطس طازجة وبامية. كان الصبي ينظر إليه. مسح الرجل الغبار الذي يعلو أغطية المرطبانات وضعها بإبهامه. الظلام يشتد سريعا. أخذ مرطبانين، مشى بهما صوب النافذة، رفعهما إلى أعلى وأدارهما. نظر إلى الصبي وقال:

— يمكن أن يكونا مسمومين. يجب أن نطهو كل شيء بشكل جيد حقا. هل

يستقيم الأمر هكذا؟

— لا أعرف.

— ماذا تريد أن تفعل؟

— أنت من يجب عليه أن يقول.

— علينا كلينا أن نقول.

— هل تظن أنه لا بأس فيهما.

— أعتقد إن طهوناهما بشكل جيد فعلا، فلا ضير منهما.

— حسنا. لماذا لم يقدم أحد على تناول هذه الأطعمة حسب رأيك؟

— أظن أن أحدا لم يعثر عليها. لا يمكنك رؤية البيت من الطريق.

— نحن رأيناها.

— أنت الذي رأيته.

تفحص الصبي المرطبانات.

قال الرجل:

— ما رأيك؟

— أعتقد أن لا خيار لنا.

— وأنا أعتقد أنك على حق. فلنحتطب شيئا من الحطب قبل أن

تستحكم العتمة.

حملا ما استطاعا حمله من الأغصان الميتة واعتليا السلم الخلفي

مرورا بالمطبخ ووصولاً إلى حجرة الطعام. كسرا الأغصان، بحيث جعلها

بأطوال مناسبة ثم وضعها في الموقد حتى امتلأ. أشعل النار فتصاعد منها الدخان ملتحفا حول عتبة الخشب المطلية وصولا إلى السقف ثم عاد وهبط من جديد. هوى اللهب مستخدما مجلة لهذا الغرض وسرعان ما بدأت المدخنة تشرق الدخان. اشتعلت النار فعلا حسيبها في الغرفة وأضاءت الجدران والسقف والسطوح الصغيرة لمكونات الثريا التي لا تعد ولا تحصى. أضاءت النار زجاج النافذة المعتم حيث كان الصبي واقفا مغطى بقلنسوة تستر الرأس والعنق ومظلالا، إنه يشبه قزما خرافيا تمخض الليل عنه. بدا مصعوقا ومذهولا بالحرارة كأنما فقد صوابه. سحب الرجل الأغطية عن الطاولة الإمبراطورية الطويلة الموضوعة في وسط الغرفة. نفخ الغبار عنها ومدها على الأرض قبالة الموقد جاعلا منها مستراحا يتلمس عليه الدفاء. أجلس الصبي على الأرض وخلع نعليه عن قدميه ونزع الأسمال البالية القذرة التي كانت حولهما. همس الصبي قائلا:

- كل شيء على ما يرام . كل شيء على ما يرام .

وجد في أحد أدراج المطبخ شموعا. أضاء اثنتين منها، أذاب شيئا من الشمع فوق الطاولة وثبت الشمعتين فوق الشمع المذوب. خرج واحتطب المزيد ثم كوم ما جمع من حطب قرب الموقد. تسمر الصبي في مكانه ولم يتحرك. يوجد في المطبخ قدور وأوعية تستعمل للقلي. أخذ واحدة منها، مسحها ووضعها على الطاولة ثم حاول أن يفتح أحد المرطبانات فلم يفلح. حمل مرطباننا يحتوي على فاصوليا خضراء وآخر على بطاطس وتوجه بهما صوب الباب الأمامي مستعينا بضوء شمعة منتصبية في كأس. جثا على ركبتيه، أزاح أحد المرطبانين جانبا ووضع بين الباب وعضادته ثم سحب الباب. بعد ذلك جلس على أرض البهو، مد رجله وثبت قدمه فوق

حافة الباب الخارجي ثم سحبها ضد الغطاء وحرك المرطبان بكلتا يديه حركة دائرية. انعطف الغطاء المنعقد فدخل في الخشب مزيلا عنه طبقة الطلاء. أمسك زجاج المرطبان بقوة وبإحكام، سحب الباب وشده ثم أعاد المحاولة. انزلق الغطاء في الخشب قليلا وتوقف. أدار المرطبان ببطء بكلتا يديه وتناوله من حيث كان عند عضادة الباب؛ نزع عنه الحلقة المحيطة بالغطاء ووضعته على الأرض. فتح المرطبان الثاني، التقطهما معا، نهض وعاد بهما إلى المطبخ حاملا بيده الأخرى الشمعة الموضوعة في الكأس. حاول أن يفتح غطاء المرطبانين نقفا بإبهامه لكنهما كانا محكمي الإغلاق فقال في نفسه: إن هذا مؤثر جيد. ثبت الغطاء على حافة الطاولة وضغط عند أعلى المرطبان بشدة مستخدما قبضة يده. انقذف الغطاء وسقط على الأرض وقد أحدث ارتطامه عليها صوتا قويا. رفع المرطبان وشم ما بداخله؛ رائحته شهية. سكب حبات البطاطا والفاصوليا في مقلاة، حمل المقلاة إلى حجرة الطعام ووضعها على النار.

سكب الطعام في زبادٍ صينية مصنوعة من العاج وأكلا بأناة بعد أن جلسا حول الطاولة متقابلين وبينهما شمعة واحدة مضاءة. كان المسدس موضوعا على الطاولة وفي متناول اليد وكأنه من أدوات العشاء. أمسى البيت الذي بدأ ينعم بالدفء يئن كأنما هو مخلوق يجري استدعاؤه واستعادته من سبات عميق طويل. تداعى الصبي للسقوط وانحنى فوق زبديته نعاسا ونوما وارتمت ملعقته على الأرض فقعقت عليها. نهض الرجل، دار حول الطاولة، حمل الصبي ووضع قرب الموقد فوق أغطية كانت على الأرض وغطاه بالبطانيات.

لا بد أنه كان قد عاد إلى الطاولة، إذ إنه أفاق ليلاً فوجد نفسه مضطجعا ومستندا إليها وقد جعل وجهه بين ذراعيه المتصالبتين. كان الجو بارداً في الغرفة كما كانت الريح تعصف في الخارج. النوافذ تهتز اهتزازاً خفيفاً ضمن أطرها فتسمع أصوات احتكاكها بها. انطفأت الشمعة واستحالت النار جمرًا. نهض، بنى النار من جديد وعززها ثم جلس قرب الصبي، سحب البطانيات فوقه وغطاه بها ومس شعره المتسخ بأصابعه مساً رقيقاً وقال: أعتقد أنهم ربما كانوا يراقبون. إنهم يراقبون؛ كي يتبينوا أمراً لا يستطيع حتى الموت أن يفسده وما لم يتمكنوا من رؤيته فلسوف ينصرفون عنا ويرحلون إلى غير رجعة.

تمنى الصبي عليه ألا يصعد إلى الدور العلوي فحاول أن يقنعه بالحجة والمنطق. قال له:

- من المحتمل أن نجد بطانيات في الدور العلوي. يتعين علينا إلقاء نظرة.

- لا أريدك أن تصعد إلى الدور العلوي.

- لا يوجد أحد هنا.

- يحتمل وجود أحد.

- لا يوجد أحد هنا. أولاً تعتقد أنه لو كان يوجد أحد لكان قد نزل إلينا؟

- ربما هم خائفون.

- سأخبرهم بأننا لن نصيبهم بأذى.

- ربما يكونون في عداد الموتى.

- عندها لن يمانعوا إن نحن حصلنا على أشياء قليلة. انظر، مهما يكن من

أمر في الدور العلوي فإنه خير لنا أن نعلم عنه من ألا نعلم.

— لماذا؟

— لماذا؟ حسنا، لأننا لا نحب المفاجآت فالمفاجآت مخيفة ونحن لا نريد أن يتتابنا الذعر. من الجائز أيضا أن نجد أشياء في الدور العلوي نحن بحاجة إليها. ينبغي علينا أن نلقي نظرة.

— حسنا.

— حسنا؟ أهكذا فقط؟

— حسنا، أنت لا تتوي الاستماع إلي.

— أنا كنت مصغيا إليك.

— ليس على النحو الذي ينبغي.

— لا يوجد أحد هنا الآن ولم يكن أحد موجودا هنا لسنوات خلت. لا يوجد آثار فوق الرماد ولم يتم العبث بأي من الأشياء الموجودة هنا. لا يوجد أي شيء من الأثاث محترق في الموقد. كما أنه يوجد طعام هنا.

— الآثار لا تعمر ولا تصمد بالرماد. أنت نفسك من قلت هذا فالرياح تطمس الآثار.

— أنا ذاهب إلى الطابق العلوي.

مكثا في البيت أربعة أيام يأكلان وينامان. وجد في الدور العلوي المزيد من البطانيات. سحبا إلى داخل البيت أكداسا كبيرة من الحطب وكوماها في زاوية الغرفة؛ كي تجف. وجد منشار خشب قديما وسلكا فاستعملهما في نشر حطب الأشجار الميتة وجعلها بأطوال مناسبة. أسنان المنشار كانت صدئة ومتثلثة فجلس قبالة النار يشحذها بواسطة مبرد شحذا خفيفا؛ لأنه يريد استعمال المنشار لغرض بسيط ومحدد. يوجد جدول ماء في مكان

يبعد بضع مئات من الأمتار عن المنزل. جر كميات كبيرة من المياه معبأة في دلاء عبر الحقول الموحلة إلى المنزل. سخنا ماء واستحما في حوض قائم جانب غرفة النوم الخلفية في الطابق السفلي. قص شعر الصبي وشعره وحلق ذقته. أحضرا ملابس وبطانيات ووسائد من غرف الطابق العلوي. لبسا ملابس جديدة تلائم جسديهما وقص بسكينه بنطال الصبي، بحيث جعل طولُه مناسباً. هياً مستراحاً مقابل الموقد بأن قلب خزانة ملابس جاعلاً منها سريراً من ناحية وحاجزاً يحفظ الحرارة من ناحية أخرى. كان المطر يهطل طوال الوقت وبشكل مستمر. وزع دلاء وجعلها عند زوايا البيت تحت المزاريب؛ كي يجمع ماء عذبا من الذي يقطر من السقف المعدني. كان يسمع ليلاً صوت قطرات المطر المتساقطة فوق غرف الطابق العلوي وأصواتها، وهي تقطر سائلة عبر المنزل.

فتشا المباني الملحقة بالمنزل تفتيشاً دقيقاً وفحصها بدقة؛ بحثاً عن أي شيء يكون ذا نفع. عثر على عجلة يد، سحبها وأمالها. أدار العجلة برفق وأناة وفحص إطارها فوجد مطاطه معطوباً لكنه مال إلى الاعتقاد بأنه من الممكن أن يحجز الهواء وأن يحتفظ به. بحث في العلب القديمة وبين العدد المختلطة والمبعثرة بغير انتظام فوجد مضخة هواء خاصة بالعجلات الهوائية. ثبت نهاية الخرطوم فوق صمام إطار العجلة وبدأ يضحخ الهواء فتسرب الهواء من حول الصمام. قلب العجلة وطلب من الصبي أن يثبت العجلة بإحكام وضحخ فيها هواء. نزع الخرطوم عن الصمام ثم قلب العجلة وجعلها تستوي على الأرض. دحرجها إلى الأمام وجذبها إلى الخلف. بعد ذلك دفع بها إلى الخارج، موكلاً إلى المطر مهمة تنظيفها.

عندما رحلا عن البيت بعد يومين كان الجو صحوًا. سارا عبر الطريق الموحلة يدفعان العجلة أمامهما وقد تزودا ببطانيات جديدة وارتديا ثيابا إضافية وأخذوا زادا من الأطعمة المعلبة والمعبأة في مرطبات. كان قد عثر على حذاءين من أحذية العمل بينما كان الصبي ينتعل حذاء تنس أزرق اللون بعد أن لف طبقات من القماش حول أصابع قدميه. أحضرا من البيت قماشًا جديدًا اتخذوا منه لثامين لوجهيهما. عندما بلغا الطريق المسفلتة كان عليهما أن يسلكاها رجوعًا؛ كي يبحثا عن العربة إلا أن المسافة كانت دون الميل. سار الصبي على طول الطريق واضعًا إحدى يديه على العربة.

قال:

- لقد أبلينا بلاء حسنًا. ما رأيك يا أبي؟

- نعم، حسنًا فعلنا.

كانا يأكلان بشكل جيد، لكن المسافة التي تفصلهما عن الساحل مازالت طويلة. لقد أدرك أنه يمضي النفس بأمال ليس لها ما يبررها. كان يتمنى أن تصبح الأيام أكثر إشراقًا وهو مدرك أنها تسمى أشد ظلمة. وجد ذات مرة جهازًا لقياس شدة الضوء في مخزن لبيع كاميرات التصوير وأمل أن يستخدمه لقياس متوسط شدة الضوء عدة أشهر. احتفظ به زمنا طويلا على أمل أن يعثر على بعض البطاريات لتشغيله، لكنه لم يتمكن من ذلك أبدا. عندما أيقظته نوبة سعال انتابته ليلا ضغط بيده على رأسه وجلس مستقبلا العتمة كأنه رجل أفاق في مقبرة. مثله مثل الموتى الخارجين من قبورهم. منذ نعومة أظفاره أعيد تموضعه ليقيم على قارعة طريق سريعة. لقد أجهزت جائحة الكوليرا على الكثيرين، فدفنوا على عجل في

صناديق خشبية. تلك الصناديق كانت عفنة ففتحت. انكشف الموتى إلى الضوء فبانوا مضطجعين على جنوبهم وقد سحبت أرجلهم إلى أعلى وكان بعضهم ممددين على بطونهم. النحاس القديم الأخضر الباهت منسكب من محاجر عيونهم على أرضيات الأكفان العفنة والملطخة.

توقفا بمخزن للبقالة في بلدة صغيرة حيث كان رأس أيل معلقا على الجدار. وقف الصبي ينظر إليه زمنا طويلا. ثممة زجاج متكسر على الأرض. طلب الرجل من الصبي أن ينتظر عند الباب، بينما شق هو طريقه وسط النفايات وهو يبعدها بواسطة حذاء العمل الذي كان قد انتعله. بيد أنه لم يعثر على شيء. مضختا بنزين كانتا قائمتين في الخارج. جلسا على الغطاء الإسمنتي ودليا علبه صغيرة مقصدرة، كانا قد ربطاها بسلك، إلى قاع الخزان الموجود تحت الأرض ثم سحبها إلى الأعلى فإذا فيها ملء كوب من البنزين؛ فرغاه في وعاء بلاستيكي ثم دليا العلبه من جديد. ربطا قطعة صغيرة من ماسورة بالعلبة؛ كي تغرقها بالبنزين. جثما فوق الخزان قرابة ساعة من الزمن كأنهما قردان يصيدان بالعصي في كثيب تتشبه النمل عند حفر مساكن لها إلى أن امتلأ الوعاء بالبنزين. أغلقا الوعاء بسدادته ووضعا في قاع العربة ثم مضيا إلى سبيلهما.

أيام طويلة، ريف مفتوح وعواصف محملة بالرماد تهب على الطريق. جلس الصبي قرب النار ليلا وقد وضع أجزاء الخارطة الممزقة فوق ركبتيه. لقد حفظ أسماء البلدات الصغيرة وأسماء الأنهار عن ظهر قلب. كان يقيس التقدم الذي يحرزانه يوميا.

باتا يأكلان باقتصاد شديد فقد نفذ ما لديهما من طعام أو كاد. وقف الصبي في الطريق ممسكا الخارطة. ما انفك يرى أمامه ريفا مفتوحا

لجهة الشرق وقد أضحى الهواء مختلفا. أطلا على الريف فجأة من منعطف على الطريق فتوقفا وإذا بالرياح المألحة تعصف بشعرهما. تحرر كل منهما من القلنسوة التي تغطي رأسه ووقفا منصتين. شاهد الشاطئ الرمادي وموجات طويلة بطيئة ومتكسرة ولا بريق لها؛ موجات باهتة تثير الكآبة في النفس، وكان صوت الموج يتناهى إلى سمعها من مكانه البعيد. كبحر غريب منفر أصابه التوحد. أمواجه تتكسر على شواطئ في عالم لم يسمع باسمه أحد من قبل. على السطوح الشاسعة القائمة بين المد والجزر تقبع سفينة مائلة ونصف غارقة. وخلفها يمتد المحيط الفسيح واسع المدى باردا ومتناقلا كأنه وعاء ضخم مترع بمخلفات قذرة جاءت بها الرياح العاصفة المحملة بالثلوج والأمطار. أما في الأفق فقد ارتسم خط عريض بلون الرماد. استطاع أن يرصد الخيبة جلية على وجه الصبي. قال: أنا أسف. إنه ليس ذا لون أزرق.

قال الصبي: لا بأس.

بعد ساعة من الزمن كانا جالسين على الشاطئ يحدقان بجدار الدخان الضبابي الذي يسد الأفق. جلسا وقد غاصت أقدامهما في الرمال يشاهدان البحر الأجرد المكشوف والشديد البرودة، بينما كانت مياهه تغسل أقدامهما. بحر بارد مقفر هجرته الطيور. كان قد ترك العربة بين نباتات السرخس خلف كتبان رملية. أخذوا معهما البطانيات وجلسا ملتقين بها في ظل جذع شجرة ضخمة جرفته المياه إلى الشاطئ؛ اتخذوا منه صاداً للرياح حيث مكثا زمنا طويلا. على طول شاطئ الخليج الصغير الذي يمتد دونهما شاهدا عظاما صغيرة راكمتها الرياح فوق الأرض الخربة فجعلت منها أكواما. خلفها يوجد أضلاع وعظام على شكل أقفاص بيضتها مياه

البحر المالحة. ربما كانت يوما قطيع ماشية. قشرة من الملح رمادية اللون تكسو الصخور. الريح تعصف فتجفف الأخاديد المحفورة بين حبات الرمال. تتهادى، تتوقف ثم تستأنف هبوبها من جديد.

- هل تعتقد أن ثمة سفنا موجودة هناك؟

- لا أظن.

- لن يتمكنوا من الرؤية لمسافات بعيدة.

- كلا، لا يمكنهم ذلك.

- ماذا يوجد على الشاطئ الآخر؟

- لا يوجد شيء.

- لا بد أن يكون ثمة شيء.

- ربما يوجد شيء ما؛ أب وابنه الصغير وهما جالسان على الشاطئ.

- حبذا لو كان الأمر كذلك.

- نعم. هذا أمر مستحسن.

- ومن الممكن أن يكونا يحملان النار أيضا.

- هذا ممكن. نعم.

- لكننا لا ندري.

- نعم، نحن لا نعلم.

- لذا يجب أن نكون حذرين ويقظين.

- نعم. يجب أن نكون حذرين ويقظين.

- كم من الوقت نستطيع أن نمكث هنا؟

- لا أعرف. ليس لدينا الكثير من الطعام.

- أعرف.

- هل أحببت المكان؟

- نعم.

- وأنا أيضا.

- هل أستطيع أن أسبح؟

- تسبح!

- نعم.

- سوف تتجمد من البرد.

- أعرف.

- البرد قارس حقا. إن الحال أسوأ مما تظن.

- لا بأس في ذلك.

- لن يتعين علي أن أتبعك.

- إنك تعتقد أنه لا ينبغي لي أن أذهب.

- تستطيع الذهاب.

- لكنك تظن أنه لا ينبغي لي فعل ذلك.

- كلا. أعتقد أن عليك أن تذهب.

- أحقا ما تقول؟

- نعم، حقا.

- حسنا.

نهض وترك البطانية تسقط أرضاً على الرمال ثم خلع عنه معطفه وحذاءه وملابسه. وقف عارياً محاولاً أن يثبت نفسه وهو يرقص ثم أخذ يعدو باتجاه الشاطئ. بشرته ناصعة البياض. عظام عموده الفقري ناتئة ومستدقة الأطراف. العظام الكتفية كأنها شفرات موسى الحلاقة وقد غلفت بجلده الشاحب. كان يعدو عارياً ويثب منتقلاً، يصرخ ويقهقه مبهتجاً تلفه أمواج بطيئة سرعان ما تتكسر على الشاطئ.

حين خرج من مياه البحر كان قد أصابه البرد وأضحى أزرق اللون بينما بدأت أسنانه تصطك من شدة البرد. هرع إليه فوجده يرتعد برداً. لفه بالبطانية وضمه إلى صدره إلى أن توقف عن اللهاث. عندما نظر إليه كان الصبي يبكي. قال له:

- ما الذي يبكيك؟

- لا شيء.

- كلا، أخبرني ما الذي يبكيك؟

- لا شيء. لا شيء.

عندما هبط الظلام أضرما ناراً خلف جذع الشجرة وجلسا يأكلان أطباقاً من البامية والفاصوليا وآخر ما تبقى لديهما من البطاطس المعلبة. أما الحلوى فكانت قد نفذت منذ وقت بعيد. شربا شايًا وجلسا قرب النار ثم ناما وهما ينصتان إلى أصوات الأمواج القادمة من الخليج. صوت الموجة يهدر طويلاً ثم يتلاشى شيئاً فشيئاً. نهض ليلاً، سار باتجاه الشاطئ ثم وقف عنده ملتقاً بالبطنيات. العتمة حالكة لدرجة تمنع الرؤية. طعم الملح على شفثيه. انتظار يجتر انتظارا ثم يخبو هدير الأمواج البطيئة عندما

تتكسر على الشاطئ؛ تغسل رماله فيخفت صوتها المضطرب ثم تتسحب نحو البحر من جديد. دار في خلده أنه ربما يوجد سفن للموت حتى الآن في الأعماق. موتى بأثواب رثة بالية على متن سفينة تتلاعب بها الرياح والتيارات المائية، أو ثمة حياة في المحيط لحيوانات رخوية كالحبار تندفع في قاع البحر وسط البرد والظلام تروح وتغدو في رحلات مكوكية كأنها القطارات. عيونها بحجم صحون فناجين القهوة. أو ربما يوجد خلف هذه الأمواج الطويلة التي تحجب الرؤية رجل آخر مع صبي آخر يسيران فوق الرمال الرمادية الميتة. ربما يكونان نائمين ولكن على الجانب الآخر من شاطئ البحر وسط رماد العالم القاسي. أو ربما يكونان قد وقفنا تائهين تحت سماء الشمس ذاتها التي لا تأبه ولا تكثرث.

تذكر أنه كان ذات مرة ساهرا في ليلة كهذه، وكان يوجد مجموعة من السلاطعين تحدث جلبة في مقلاة حيث كان قد ترك فيها عظام شريحة لحم من الليلة السابقة. أشعل في الحطب الذي ركمته الرياح نارا ثم أضحى النار جمرا ضعيفا الاتقاد لكن الحياة مازالت تدب فيه بفعل الرياح التي تهب على الشاطئ. كان مضطجعا تحت سماء مسكونة بكم لا يعد ولا يحصى من النجوم. أفق البحر المظلم. نهض ومشى ثم توقف فوق الرمال حافي القدمين وتأمل بالأموج المتكسرة والشاحبة كيف كانت تظهر عند الشاطئ، تتموج وتتكسر ثم تخبو من جديد. بينما كان عائدا نحو النار جتا على ركبتيه وملس شعرها، بينما كانت هي نائمة وقال: لو كان إلهما إذاً لكان قد صنع العالم على هذه الشاكلة تماما وليس على نحو مختلف.

عندما قفل عائدا كان الصبي مستيقظا وخائفا. كان قد ناداه بصوت عالٍ، ولكن ليس إلى الحد الذي يمكنه سماعه. طوقه الرجل بذراعيه وقال

له: لم أستطع أن أسمعك. لم أستطع سماع صوتك بسبب أصوات الأمواج. وضع حطبا فوق النار ونفخ فيها إلى أن دبت الحياة فيها من جديد. جلسا ملتحفين بالبطنيات يشاهدان ألسنة اللهب وهي تتمايل وتتلوى مع حركة الرياح ثم ناما.

أضرم النار من جديد صباحا. تناولا طعامهما وجلسا ينظران إلى الشاطئ. المشهد الماطر والجو البارد ليسا شديدي الاختلاف عما هو الحال عليه في عالم الشمال. لا يوجد طيور نورس ولا طيور شاطئية. أشياء متفحمة لا معنى لها ولا فائدة منها ملقاة على طول الشاطئ أو محمولة على الأمواج. جمعا حطبا مما ركمت الرياح، كوماه وغطياه بالغطاء البلاستيكي ثم شرعا بالسير على الشاطئ. قال:

- نحن متسكعان من متسكعي الشواطئ.

- ماذا تعني؟

- متسكعو الشواطئ هم أناس يسيرون على طول الشاطئ؛ بحثا عن أشياء لها قيمة.

- أشياء. من أي نوع؟

- أشياء من كل الأنواع؛ أي شيء يمكنك استعماله.

- هل تظن أننا سنجد شيئا؟

- لا أعرف. سوف نلقي نظرة.

قال الصبي:

- ألقى نظرة.

وقفا عند حاجز مياه صخري، ونظرا جهة الجنوب. زيد مالح متموج يتوانى موجه ويضعف تدريجيا في طريقه نحو المياه الهادئة.

الشاطئ ينعطف خلفهما انعطافة طويلة. الرمال رمادية اللون كأنها حمم قذفتها البراكين. الرياح التي تهب من البحر مشبعة برائحة اليود لدرجة تكاد معها تصيب المرء بالإغماء أين منها رائحة البحر المعهودة. يوجد على الصخور بقايا من بعض الطحالب داكنة اللون. هذا كل ما في الأمر. مرا واستمرا بالمسير. عند نهاية الشاطئ كان الطريق مسدودا بنتوء أرضي داخل في البحر. تحولا عن طريق الشاطئ إلى طريق قديمة سلكها صعدوا بين الخرائب وبين نباتات الشوفان الميتة إلى أن وصلا إلى نتوء جبلي داخل البحر. دونهما كانت الأرض محجوبة بهبات من الرياح ومن الضباب الخفيف المعتم الذي كان مهيمنا على الشاطئ. تراءى لهما خلف الضباب هيكل سفينة إبحار نصفها مرتفع إلى أعلى. شقا طريقهما عبر الأعشاب الجافة والميتة وهما ينظران حولهما. قال الصبي:

- ماذا علينا أن نعمل؟

- دعنا نراقب المكان برهة من الزمن. هذا كل شيء.

- إنني أشعر بالبرد.

- أعرف. دعنا ننزل قليلا إلى الأسفل؛ كي نتجنب الرياح.

جلس، وضع الصبي أمامه وضمه. العشب الميت يهتز اهتزازا خفيفا. الأراضي خربة، مقفورة، مهجورة ويطغى عليها اللون الرمادي. وبحر خضم لا حدود له. قال الصبي:

- كم من الوقت يتعين علينا أن نمكث هنا؟

- لن يكون وقتنا طويلا .

- هل تظن أن ثمة أناسا في السفينة؟

- لا أعتقد ذلك .

- من الجائز أن يكونوا قد قضاوا في معركة مائية .

- هذا ممكن .

- هل ترى آثارا تدل على وجود أحد هناك؟

- دعنا ننتظر برهة من الزمن .

- أشعر بالبرد .

شقا طريقهما ببطء ومشقة فوق المخلفات المتراكمة على الشاطئ، محاولين السير على الرمال الأكثر تماسكا ورسوخا عند خط انكسار المد البحري. توقفوا. ثيابهما تصطفق اصطفاقا خفيفا. زجاج عائم مغطى بطبقة رمادية من التراب، عظام طيور بحرية. عند خط المد البحري امتد بساط منسوج من الطحالب البحرية وهياكل من حسك الأسماك وعظامها الدقيقة. إنها تعد بالملايين وتمتد على طول الشاطئ وعلى مدى البصر كأنها مطية الموت المحدبة التي يشبه بعضها بعضا. قبر واحد كبير فسيح ومالح. غير معقول. غير معقول!

تقدر المسافة الفاصلة بين نهاية اللسان الأرضي والسفينة بنحو مئة قدم من المياه المفتوحة. وقفا ينظران إليها. يبلغ طولها نحو ستين قدما. يفترض أن تكون هذه السفينة ثنائية الصواري. بيد أن صواريتها الآن مكسورة ومرمية على متنها. أما الشيء الوحيد المتبقي في الأعلى فهو بعض مرابط ومقابض حبال السفينة النحاسية وقليل من دعائمها العمودية

التي تشكل حاجزا عند حافة السفينة. هذا إضافة إلى طوق فولاذي لإطار مثبت قرب مؤخرها. التفت وتفحص الشاطئ والخرائب الموجودة خلفه، ثم ناول الصبي المسدس وجلس فوق الرمال يفك رباط حذائه.

- ماذا أنت فاعل يا أبي؟

- سألقي نظرة.

- هل أستطيع أن أذهب معك؟

- كلا، أريدك أن تبقى هنا.

- أريد أن أذهب معك.

- يجب أن تقف هنا؛ كي تتولى شؤون الحراسة. علاوة على أن المياه عميقة.

- هل سأكون قادرا على رؤيتك؟

- نعم، سوف أبقى عيني عليك؛ كي أتأكد أن كل شيء يسير على ما يرام.

- أريد أن أذهب معك.

توقف وقال له:

- لن تتمكن من ذلك. سوف تذهب الرياح بألبستنا يجب أن يبقى أحد؛

كي يعتني بها.

طوى كل الأشياء وكومها. يا إلهي الجو بارد. انحنى وطبع قبلة على

جبهة الصبي وقال له: دع عنك القلق وكن حذرا. خاض في المياه عاريا ثم

نهض منها وقد بلل جسده. خرج من المياه بجهد، وقطرات الماء تتناثر منه

وتترشش حوله ثم غاص في البحر مبتدئا برأسه أولا.

سبح مسافة تساوي طول السفينة ثم التفت وهو يدفع الماء برجليه ويلهث تعباً وبردًا. عمود منتصف السفينة كان مغمورًا بالمياه. أمسك بالرافدة المستعرضة الموجودة وسطها وسحب جسده نحو الأعلى. كان لون الفولاذ رمادياً وممسوحاً بالماء المالح، لكنه استطاع أن يتبين الأحرف المذهبة المتآكلة:

Pajaro de Esperanza. Tenerife

ذراعاً تعليق قاربي نجاة فارغان. تشبث بالمسك المحيط بالسفينة ونهض معتلياً متنها وجثم على ظهرها الخشبي وهو يرتجف. قطع قليلة من الحبل المقتول منتزعة من مرابطها. هنالك ثقب وفجوات في خشب السفينة تدل على أن ثمة خردوات وأدوات قد انتزعت بعنف من أمكنتها. لا بد أنها قوة عاتية وعارمة تلك التي أزالته كل الأشياء عن ظهرها. لَوَّح للصبي بكلتا يديه إلا أن الصبي لم يلوح استجابة.

كانت قمرة القيادة منخفضة، يعلوها سقف مقنطر وهي مزودة بفتحات على طول جانبيها. انحنى، مسح الملح الرمادي، نظر إلى الداخل لكنه لم يستطع أن يرى شيئاً. حاول أن يفتح الباب السفلي المصنوع من خشب الساج إلا أنه كان مقفلاً. دفعه دفعة عنيفة بكتفه التي نتأت عظامها. نظر حوله؛ بحثاً عن أي شيء يخلع الباب بواسطته. كان جسمه يرتجف وأسنانه تصطك وقد تعذر عليه التحكم بجسده وضبطه. فكر بركل الباب بباطن قدمه إلا أنه أقلع عن الفكرة؛ لأنه وجدها غير صائبة. أمسك مرفقه بيده وضرب الباب بشدة من جديد فأحس بأن الباب قد تخلخل ولكن بقدر طفيف جداً. واطب على دفعه فإذا بعضادة الباب تتفلق من داخلها ثم دفع الباب ففتح ثم هبط الدرج المؤدي إلى قمرة القيادة.

مياه راكدة وآسنة متجمعة في جوف السفينة السفلي وقد امتلأ بالنفائيات والأوراق المبللة. رائحة نتنة وفسادة تبعث من الأشياء كلها. كل شيء بارد ودبق. ظن أنها كانت قد تعرضت للنهب والسرقه. لكن قد أصابها ما أصابها بسبب البحر. انتصبت في وسط الصالون طاولة من خشب الماهوغاني الصلب مع حواجز وأدوات مثبتة عليها، وذلك لوقاية الصحون من الانزلاق. أبواب الخزائن الموجودة في الغرفة مفتوحة. أما الأشغال النحاسية التي عليها فقد كانت ذات لون أخضر قاتم. سار متجها إلى القمرات الأمامية ومجتازا المطبخ.

يوجد في أرض السفينة دقيق وبن، إضافة إلى معلبات أطعمة نصف ممزقة وصدئة. كما يوجد في مقدمها حمام وحوض مغسلة مصنوعان من فولاذ مقاوم للصدأ. ضوء البحر الضعيف والباهت تسلل إليها عبر المناور المصممة لإضاءة أجزائها الداخلية. ملابس وعدد مبعثرة في كل مكان وردداء يستعمل طوقا للنجاة عائم في المياه المتسربة إلى السفينة. كان يتوقع - إلى حد ما - أن يصادف ما يثير الخوف، لكنه لم يجد شيئا من هذا القبيل. الوسائد الرقيقة والأدثرة التي تستعمل لتغطية الفراش كانت مرمية على الأرض أما البطانيات والملابس فقد كانت مكومة قرب الحائط. كان كل شيء مبللا. رأى بابا مفتوحا عند مقدم السفينة، لكن المكان كان شديد الظلام تتعذر فيه الرؤية. أخفض رأسه ودلف وهو يتحسس بيديه ما في الداخل؛ صناديق عميقة مغطاة بأغطية خشبية متمفصلة معها. ألبسة بحرية مكومة على الأرض. بدأ يسحب كل شيء من الداخل ويكومه على السرير المغطى: بطانيات وملابس خاصة بالأجواء القاسية. وجد سترة مبللة فوضعها فوق رأسه. عثر على حذاءين بحريين مصنوعين من المطاط

ولونهما أصفر كما وجد سترة مصنوعة من النايلون فلبسها وأغلق زمامها المنزلق وارتدى بنطالا أصفر اللون ووضع حمالتيه على كتفيه ثم انتعل الحذاء. صعد إلى ظهر السفينة. كان الصبي ما يزال جالسا على الحال التي تركه عليها وهو ينظر إلى السفينة. وقف وقد تملكه الرعب فأدرك الرجل أنه وبسبب من ملابسه الجديدة لم يكن الصبي متأكدا من أنه هو. صاح قائلاً: هذا أنا. لكن الصبي اكتفى بالوقوف في مكانه ولوح له بيديه، ثم جلس على الأرض من جديد.

في الحجرة الخاصة الثانية من السفينة يوجد أدراج تحت السرير. كانت ما تزال في مكانها. رفع الأدراج، حررها من مكانها ثم سحبها. كتيبات وأوراق مكتوبة باللغة الإسبانية. ألواح صابون. حقيبة مصنوعة من الجلد الطبيعي بلون أسود فيها شيء من العفن وبداخلها أوراق. وضع الصابون في جيبه وانتصب واقفا. يوجد كتب مكتوبة بالإسبانية مبعثرة على السرير، منتفخة بفعل الرطوبة ومشوهة. ثمة كتاب واحد فقط محشور على الرف المثبت على الحاجز الفاصل بين هذه الحجرة والتي تعقبها.

عثر على حقيبة بحرية مصنوعة من قماش القنب الممطط. طاف بحذائه في باقي أقسام السفينة متنقلا بين حجراتها ومجتازا الحواجز التي تفصل بينها. المعطف الأصفر الواقي من المياه يخشخش من شدة البرد. ملأ الحقيبة بنثرجات وبقايا ألبسة. وجد حذاء نسائيا خفيفا ذا نعل مطاطي وقماش خشن ربما يكون ملائما ومنطبقا على مقاس قدمي الصبي. كما وجد سكيناً قابلة للطي ذات مقبض خشبي، إضافة إلى نظارات شمسية. مازال العيب والنقص يعتريان بحثه وتنقيبه. من أضع

شيئا فعليه أن يفرغ كليا من البحث عنه في الأماكن التي يقل احتمال وجوده فيها أولا. أخيرا دلف إلى المطبخ. أضرم الموقد ثم أطفأه. حرر باب حجرة المحرك ثم رفعه. نصف المحرك طاف ونصفه الآخر غارق وهو ذو لون أدكن وقاتم. لا يوجد رائحة بنزين أو نפט.

أغلق المحرك من جديد. يوجد مقاعد طويلة على متن السفينة تحتوي على أدراج وجد فيها وسائد وأشربة مصنوعة من قماش القنب وعدة صيد. كما يوجد خزانة قائمة خلف عمود العجلة. لفات من خيوط النايلون وعبوات غاز معدنية وصندوق عدة مصنوع من زجاج مغزول ليفي الشكل. جلس على الأرض وشرع يفرز ويصنف محتويات صندوق العدة، نهض وتطلع إلى الصبي. كان جاثيا فوق الرمال، نائما وقد أسند رأسه إلى كومة الألبسة.

حمل صندوق العدة وإحدى عبوات الغاز إلى المطبخ ومضى إلى الأمام جائلا جولة أخيرة على الحجرات الخاصة. شرع يفحص بعناية محتويات الخزائن والأدراج الموجودة في الصالون وأخذ يدقق بالملفات والأوراق المحفوظة بعلب بلاستيكية. حاول أن يعثر على سجل السفينة الذي يدون فيه عادة تقدمها اليومي وسرعتها. وجد مجموعة من الأواني الخزفية الصينية الراقية. إنها غير مستعملة وموضوعة في صندوق خشبي مملوء بالنجارة؛ كان أكثر الأواني متكسرا. خدمة لثمانية، تحمل اسم السفينة. ظن أنها هدية. رفع كوب الشاي، وضعه على راحة يده، أداره ثم أعاده إلى حيث كان. آخر شيء وجدته كان صندوقا مربعا مصنوعا من خشب السنديان ذا زوايا متعاشقة وصحن نحاسي مثبت على الغطاء. ظنه صندوقا لحفظ السجائر رطبة لكنه لم يكن كذلك. عندما رفعه واستشعر

وزنه عرف ما هو. فك مزاليجه المتأكلة الصدئة وفتحته. كان في داخله آلة السدس المصنوعة من النحاس التي تستخدم في السفن عادة لقياس ارتفاع الأجرام السماوية. من المحتمل أن تكون قد صنعت من قبل نحو مئة عام. رفعها من مكانها ووضعها في يده. لقد فتته سحرها وجمالها. كان النحاس باهتا ومعتما وعليها آثار وبقع ليد كانت قد أمسكت بها ذات يوم، أما ما دون ذلك فقد كانت مثالا للكمال. مسح الصدأ عن الصحن الموجود في قاعدتها، فإذا هي مكتوب عليها هزانيث، لندن (Hezzaninth, London). قربه نحو عينه وأدار العجلة. إنه أول شيء يراه منذ أمد بعيد ويكون قادرا على تحريكه وإثارته. وضعه على يده ثم أعاده إلى مكانه في الصندوق، حيث وضعه فوق نسيج البيز الأزرق اللون وأغلق غطاء الصندوق والمزاليج. أعاده إلى الخزانة وأغلق الباب.

عندما اعتلى ظهر السفينة من جديد كي يتطلع إلى الصبي لم يره حيث تركه. مرت عليه لحظة ذعر تحبس الأنفاس قبل أن يراه وهو يسير على الشاطئ مطرقا والمسدس في يده. في تلك اللحظة أحس حيث كان واقفا ببدن السفينة يعلو ثم ينخفض ولكن بشكل طفيف. المد البحري يقترب ثم يُصنع على طول الصخور التي تشكل حاجزا مائيا عند الشاطئ. عاد ونزل إلى قمرة القيادة.

أحضر معه لفتي الخيوط من الخزانة وقاس قطريهما، مستخدما كف يده لهذه الغاية فكان القطر مساويا لثلاثة أشبار. ثم عد اللفات؛ خيوط تساوي خمسين قدما. علقهما على مربوط حبال السفينة الرمادي اللون المصنوع من خشب الساج المثبت على ظهرها، ثم قفل عائدًا إلى قمرة القيادة. جمع الأشياء كلها وكدها ورتبها فوق الطاولة. في الخزانة

الموجودة جانب المطبخ وجد بعضا من عبوات الماء البلاستيكية كلها فارغة باستثناء واحدة. التقط إحدى العبوات الفارغة، لاحظ وجود شقوق في البلاستيك مما أدى إلى تسرب الماء منها وخمن أن مياهها قد تكون متجمدة الآن في مكان ما، وأنه قد حدث ذلك في أثناء رحلات السفينة العبثية. ربما حدث ذلك مرات عديدة. أمسك العبوة الممتلئة حتى نصفها، وضعها على الطاولة، فك عطاءها، شم الماء الموجود بداخلها رفعها بكلتا يديه وشرب، ثم شرب ثانية.

يبدو أن العبوات الملقاة في أرض المطبخ غير صالحة للاستهلاك بأي شكل من الأشكال. حتى تلك الموجودة في الخزانة كانت صدئة إلى أبعد حد؛ بعضها منتفخ وشكلها ينذر بالسوء. جميع ملصقاتها منزوعة منها. أما محتوياتها فقد كتبت باللغة الإسبانية بقلم أسود. لا يعرف هو معاني كل الكلمات المكتوبة عليها. صنف كل المعلبات، رجها وعصرها في يده، كدسها على الطاولة فوق ثلاجة المطبخ الصغيرة. فكر أنه لا بد من وجود صناديق من المواد الغذائية مكدسة في مكان ما من المستودع، لكن لن يكون أي منها صالحا للأكل. على أي حال هنالك حد لما يستطيعان أن يأخذا بالعربة. جال في خاطره أن هذا الذي حصل عليه من السفينة كان نتيجة حظ غير مرتقب وهو كسب غير منتظر. لكنه مازال يردد ما كان قد قاله ذات يوم: وهو أن الحظ لا يمكن أن يكون شيئا مماثلا. فقد مر عليه بضع ليالٍ كان يضطجع فيها تحت جناح الظلام في حال لا يحسد معها الموتى.

وجد علبة زيت زيتون وبعض علب الحليب وشايا في علبة معدنية صدئة. وجد أيضا وعاء بلاستيكي فيه نوع من المعدن لم يستطع أن يميزه أو أن يدرك ماهيته. نصف علبة من القهوة. تفحص محتويات أرفف

الخرانة بشكل منهجي وأخذ يفصل بين ما يود أخذه وما يريد تركه. أخذ كل الأشياء التي جمعها وحملها ثم كدسها قبالة الدرج الذي يصل بين الحجرات وظهر السفينة. عاد إلى المطبخ ثانية وفتح صندوق العدة وشرع يفك أحد المضارم المثبتة على الموقد الصغير. فك الوصلة المفتولة من نقطة انثائها. نزع الرؤوس المصنوعة من الألمنيوم عن المضارم ووضع أحدها في جيب معطفه. حل التجهيزات النحاسية باستخدام مفتاح ربط وحرر المضارم في مواضعها ثم فكها ووصل الخرطوم بماسورة الوصل من طرف، بينما جعل طرفه الآخر متصلاً بأسطوانة الغاز ثم حمل الأسطوانة ووضعها في الصالون. أخيراً كَوَّم فوق الغطاء البلاستيكي بعض معلبات العصير والخضراوات والفواكه ثم ربطه بحبل بعد أن تعرى من ثيابه وجعلها فوق الأشياء التي كدسها. اعتلى ظهر السفينة عارياً ثم انزلق نحو الدرابزين ومعه الغطاء البلاستيكي. تمايل وتأرجح على جانب السفينة ثم ألقى بنفسه في البحر المتجمد الرمادي.

جر قدميه مجهداً عبر الشاطئ مستثيراً بأخر خيوط الضوء وترك الغطاء البلاستيكي يتدلى على الأرض. مسح المياه العالقة على ذراعيه وصدره براحتي كفيه وذهب ليرتدي ملابسَه والصبي يتبعه. ما انفك يسأله عما أصاب كتفه حيث رآها زرقاء اللون وممتقعة، جراء دفعه باب القمره دفعا عنيفا.

قال الرجل: لا بأس علي. إن هذا لا يؤلني. لقد حظينا بالكثير من الطعام. انتظر حتى ترى. أسرعاً بالسير على الشاطئ قبل أن يحل الظلام.
قال الصبي:

- ماذا لو أن المياه جرفت السفينة؟

- لن تجرف.

- من الممكن أن تجرف.

- كلا، لن يحصل ذلك. تعال، هل أنت جائع؟

- نعم.

- سوف نأكل الليلة طعاما جيدا. لكن يجب أن نحث الخطى.

- إنني أسرع في السير يا أبي.

- ومن المحتمل أن تهطل الأمطار.

- وما يدريك؟

- إنني أستطيع أن أشم رائحة المطر قبل أن ينهمر.

- وكيف تكون رائحته؟

- إنها تشبه رائحة الرماد الرطب. تعال.

ثم توقف وقال:

- أين المسدس؟

تسمر الصبي في مكانه وبدا مذعورا.

ناداه الرجل:

- فالتفت ونظر إلى الشاطئ. كانت قد حجبت السفينة ولم يعودا متمكنين

من رؤيتها. نظر إلى الصبي. كان الصبي قد وضع يديه فوق قمة رأسه

وأوشك أن يبكي. قال:

- أنا آسف. أنا آسف حقا.

أنزل الغطاء البلاستيكي إلى الأرض وكان فيه الأظعمة المعلبة وقال:

- علينا أن نرجع.

- أنا آسف يا أبي.

- لا بأس، سوف نجده حيث تركته.

توقف الصبي وقد هبطت كتفاه فجأة، ثم بدأ ينشج ويبكي متنهداً. جثا

الرجل على ركبتيه وحضنه ثم قال:

- سيكون كل شيء على ما يرام. كان يجب علي أن أتأكد من وجود

المسدس معنا بيد أني لم أفعل. لقد نسيت.

- أنا آسف يا أبي.

- هيا نحن بخير وكل شيء سيكون على ما يرام.

كان المسدس موجوداً بين الرمال حيث تركه. التقطه الرجل، هزه، سحب

دبوس الأمان من حجرة الطلقات، أعطاه للصبي وقال له: أمسك هذا.

- حسناً يا أبي.

- طبعاً حسناً.

فك حجرة الطلقات، وضعها في راحة يده، أفرغ منها الرمل وأعطاهما

للصبي. نفخ في أسطوانة المسدس ونفخ الرمال عن الإطار. أخذ أجزاء

المسدس من الصبي وأعاد تركيبها. لقم المسدس، أخفض الزناد ثم لقمه

من جديد. أدار حجرة الطلقات ورتبها بحيث جعل الرصاصة الحقيقية

جاهزة للإطلاق. أبقى الزناد منخفضاً، وضع المسدس في سترته ونهض،

ثم قال:

- نحن بخير. هيا.

- هل سيدركنا الظلام؟

- لا أعرف.

- سوف يفعل. أليس كذلك؟

- هيا. سوف نحث الخطى.

لقد أدركهما الظلام. عندما وصلا إلى ممر الرأس البحري كان قد حل الظلام وتمكن لدرجة لم يعد ممكنا معها رؤية أي شيء. وقفنا في مهب الريح على الشاطئ قرب مياه البحر. كانت الرياح تهب على الأعشاب اليابسة فيسمعان حفيفها من حولهما. تشبث الصبي بيد أبيه. قال الرجل:

- كل ما علينا القيام به هو أن نستمر بالسير، هيا.

- لا أستطيع أن أرى.

- أعرف. سوف نخطو في كل مرة خطوة واحدة.

- حسنا.

- يجب أن يبقى الذهن حاضرا.

- حسنا.

- مهما يكن من أمر.

- مهما يكن من أمر.

استمرا في السير يلفهما ظلام دامس ولا يريان شيئا كأنهما أعميان. مد ذراعه أمامه برغم أنه لا يوجد شيء فوق تلك الأرض الجرداء المقفرة يمكن أن يصطدم به المرء. كان صوت الأمواج المتكسرة على الشاطئ يوحي

بأن مكانها بعيد، مع ذلك كان يعتمد على الرياح في تحديد مكانه واتجاهه. استمررا يتخبطان ويتداعيان على الأرض قرابة ساعة من الزمن. بعد ذلك نهضا من بين الأعشاب البحرية ووقفا على أقدامهما من جديد فوق رمال الشاطئ الجافة. أمست الرياح أشد برودة. قرب الصبي منه وجعل جسده حاجبا بينه وبين الرياح. فجأة ظهر الشاطئ أمامهما كأنه يرتعد في غمرة ضوء ساطع ثم اختفى من جديد.

- ما هذا الذي حدث يا أبي؟

- لا عليك. إنه لمعان البرق. هيا.

حمل الغطاء المملوء بالمواد ووضعه على كتفه، ثم أمسك يد الصبي وتابعا مسيرهما يجران أقدامهما بين الرمال جرا فيتعثران ويتمايلان وتزل بهما أقدامهما كأنهما حصانان يستعرضان مهارتيهما فوق خشب طاف على سطح الماء أو فوق الأعشاب البحرية. سطع ضوء رمادي عجيب غريب فوق الشاطئ من جديد وسمعا هزيم الرعد يسعى إلى سمعهما من بعيد وصوت صاعقة ضعيفا، بينما كانت الدنيا تغرق في ظلام دامس. قال:

- أعتقد أنني قد رأيت آثارنا.

- إذا فتحنا سائرنا في الطريق الصحيح.

- نعم، في الطريق الصحيح.

- إنني أشعر بالبرد حقا يا أبي.

- أعرف. صل؛ كي يلمع البرق من جديد.

تابعا سيرهما. عندما سطع ضوء البرق من جديد رأى الصبي محنيا يهمس. بحث عن آثارهما على الشاطئ لكنه لم يرها. كانت الريح قد

اشتدت، أما هو فقد كان بانتظار انهمار المطر. إن هبت عليهما العاصفة المحملة بالأمطار وهما على الشاطئ ليلا فسوف يكونان في وضع صعب. أشاحا بوجهيهما عن الرياح متقلنسين بقلنسوتي سترتيهما. الرمال تصطدم بأرجلهما وتتابع هبوبها بسرعة فائقة تحت جنح الظلام. دوت صاعقة قرب الشاطئ، انهمر المطر غزيرا ومائلا بفعل الرياح، فإذا قطرات المطر تسع وجهيهما لسعا. سحب الصبي نحوه وضمه.

وقفا في غمرة المطر المنهمر عليهما غزيرا وشديدا. ترى كم من المسافة كانا قد قطعوا وإلى أي مدى أصبحا قريبين من المكان الذي يسعيان إليه. انتظر لمعان البرق، لكن ضوءه كان يتضاءل تدريجيا. عندما أضاء البرق مرة تلو الأخرى أيقن أن العاصفة كانت قد أتت على آثار أقدامهما فمحتها. شقا طريقيهما مجهدين عبر الرمال وبمحاذاة طرف الشاطئ العلوي، أملين أن يريا شبح جذع الشجرة الذي ضربا مخيمهما عنده. سرعان ما تلاشى البرق ثم هبت رياح خفيفة فسمع صوت طقطقة ضعيفا آتيا من مكان بعيد توقف وقال:

- أنصت.

- ماذا في الأمر؟

- أنصت.

- إنني لا أسمع شيئا.

- هيا.

- ما هذا يا أبي؟

- إنه الغطاء. هي الأمطار تهطل على الغطاء.

تابعا سيرهما يخبطان خبط عشواء، يتعثران وتزل بهما أقدامهما وسط الرمال والنفايات وبمحاذاة خط المد البحري. فجأة وخلال وقت قصير وجدا نفسيهما عند الغطاء. جثا على ركبتيه أسقط الحزمة عن كتفه وتلمس المكان حوله بيديه؛ بحثا عن الصخور التي كان قد وضعها فوق الغطاء البلاستيكي. دفعها عنه وحرره منها. رفع الغطاء إلى أعلى وجعله فوقهما ثم استعمل الصخور لتثبيتته من الداخل وذلك بوضعها على حوافه. نزع المعطف المبلل عن الصبي وغطاه معه بالبطانيات. كانت مياه الأمطار تتدفق عليهما من خلال البلاستيك دونما انقطاع. نزع عنه معطفه، أدنى الصبي منه وضمه وسرعان ما استغرقا في النوم.

توقف هطل المطر ليلا. استيقظ وتمدد منصتا. هدأت الرياح، خف اندفاع الموج واصطخابه كما تلاشت الأمواج التي كانت تتكسر على الشاطئ. نهض مع بزوغ أول خيط من خيوط ضوء الفجر الشحيح ثم مشى على الشاطئ. كانت العاصفة قد كست الشاطئ بأشياء بعثرتها في كل مكان. مشى محاذيا لخط المد البحري؛ بحثا عن أي شيء قد يكون ذا نفع. شاهد خلف الجدار الذي يقي الشاطئ من عزم المياه جثة كان قد مضى عليها زمن طويل. شاهدها تعلق وتهبط في المياه الضحلة وسط الأخشاب التي دفعت بها الأمواج نحو الشاطئ. ودَّ لو كان يستطيع أن يخفيها عن الصبي. لكن الصبي كان على حق؛ فما من مشهد إلا وكان قد رأى أفضع منه.

عندما قفل عائدا وجد الصبي مستيقظا وجالسا وسط الرمال ينظر إليه. كان ملتقا بالبطانيات بعد أن بسط ونشر معطفيهما المبللين فوق الأعشاب والطحالب البحرية اليابسة والميتة، وذلك بغية تجفيفهما من

الماء. سار إلى أن بلغ مكان الصبي فجلس مسترخيا بجانبه ينظر إلى البحر الرمادي الذي يثير منظره الكآبة في النفس. كان البحر يعلو ثم ينخفض خلف كاسرات الأمواج.

أمضيا وقت الصباح معظمه وهما يفرغان من سطح السفينة ما كان قد جمعه. أضرم نارا وأبقى عليها متقدة وهو يخوض في الوحل عاريا ومرتجفا من شدة البرد. أرخى حبل السحب ووقف يلتمس الدفء قرب لهب النار ووجهها. أما الصبي فقد أمسك حبلا مربوطا بكيس البحار وشده نحو الشاطئ عبر الأمواج الطويلة والبطيئة. فرغا الكيس من محتوياته ونشرا البطانيات والألبسة فوق الرمال الدافئة؛ كي تجف قرب النار. يوجد من الأشياء على ظهر السفينة ما يفوق قدرتهما على الحمل والنقل. جال في خاطره أن يمكثا بضعة أيام على الشاطئ؛ كي يأكلا أكبر قدر ممكن من الطعام إلا أن ذلك ينطوي على خطر. ناما ليلتهما تلك فوق رمال الشاطئ. كانت النار متقدة على مسافة منهما تدرأ عنهما البرد وأشياءهما مبعثرة حولهما.

أيقظته نوبة سعال انتابته فنهض وشرب من الماء ثم جر مزيدا من الحطب وألقى به فوق النار ومدها بجذوع أشجار كاملة مما جعل الشرر يتطاير من النار كثيفا ثم يتساقط غزيرا كأنه شلال ضخمة والحطب المالح يحترق مخلفا وسط النار لهبا ملونا باللونين البرتقالي والأزرق. جلس ينظر إلى اللهب زمنا طويلا. سار بعد ذلك على طول الشاطئ يسبقه ظله الطويل على الرمال أمامه ويتحرك حوله تبعا لتلاعب الرياح بألسنة اللهب. انتابه السعال؛ نوبة تلو أخرى. انحنى واضعا يديه فوق ركبتيه. أحس بطعم الدم في حلقه. الموج البطيء يزحف باتجاه الشاطئ ويتكسر

عنده مهتاجا فيرغي ويزبد تحت جنح الظلام. فكر في حياته لكن ليس ثمة حياة يفكر فيها. بعد برهة قفل عائدا.

التقط علبة دراق من الكيس، فتحها وجلس قبالة النار يأكل الدراق ببطء مستخدما ملعقته بينما كان الصبي نائما. توهجت النار فجأة بفعل الرياح فأطلقت ألوانا مبهرة وتطاير منها الشرر ثم تساقط بعيدا فوق الرمال. وضع علبة القصدير الفارغة بين قدميه وقال: كل يوم هو كذبة لكنك تحتضر وهذه ليست كذبة.

حملا مؤنهما الجديدة، وحزماها بالأغطية والبطانيات فوق رمال الشاطئ ثم وضعها كل الأشياء في العربة. حاول الصبي أن يحمل أشياء كثيرة جدا. عندما توقفا طلبا للراحة أخذ قسما منها ووضعها فوق حملة. تبدل مكان السفينة بشكل طفيف وذلك بفعل العاصفة. وقف ينظر إليها بينما كان الصبي يراقبه. قال له:

- هل أنت عازم على العودة إلى السفينة؟

- أعتقد ذلك. أريد أن ألقى نظرة واحدة وأخيرة.

- أنا خائف بعض الشيء.

- نحن على ما يرام. عليك أن تستمر بالمراقبة ليس إلا.

- صار لدينا حتى الآن ما لا طاقة لنا بحمله.

- أعرف. أريد فقط أن ألقى نظرة.

- حسنا.

اعتلى ظهر السفينة من مقدمها وصولا إلى مؤخرها من جديد. تَوَقَّفَ، فَكَّرَ. جلس في الصالون على الأرض. كان ينتعل حذاء مطاطيا. أسند

قدميه إلى عمود الطاولة. بدأ الظلام يرخي سدوله. حاول أن يستدعي من مخزون ذاكرته ما عرفه عن السفن. نهض واعتلى ظهر السفينة مجددا. الصبي جالس قرب النار ينتظره. نزل إلى السفينة وجلس على مقعد طويل في إحدى حجيراتهما وقد أسند ظهره إلى الحاجز الذي يفصلها عن الحجيرة الأخرى ورفع قدميه فجعلهما على مستوى نظره. لم يكن يرتدي إلا سترة قصيرة وأخرى بحرية طويلة مصنوعة من المشمع فوقها. لكن هذا اللباس لم يوفر له إلا القليل من الدفء. لذلك كان يرتجف من شدة البرد ولم يستطع أن يتمالك نفسه. أوشك أن ينهض من جديد عندما أدرك أنه ينظر إلى الطرف الآخر من الحجيرة حيث يوجد أربعة مرابط تثبيت مصنوعة من فولاذ غير قابل للصدأ. كانت المقاعد فيما مضى مزودة بوسائد مخففة للصدمات ولا تزال موجودة حتى الآن آثار من أربطتها على أطراف المقاعد وهو ما تبقى منها بعد أن مزقت وانتزعت من أمكنتها.

في الجزء السفلي من وسط الحجرة وفوق المقعد تماما هنالك شريط ناتئ من النايلون مطوي عند نهايته ومخيطن بقطب متصلبة. نظر إلى المرابط من جديد. بدت من النوع الذي يدور حول محور ومزودة بمقابض لوضع الإبهام فيها. نهض وجثا على ركبتيه فوق المقعد وأدار كلا من المرابط الأربعة المزودة بنوابض إلى الجهة اليسرى وفكها. أمسك الشريط الموجود في منتصف الغطاء وسحبه فانزلق الغطاء وتحرر من مكانه. وجد تحته فراغا فيه بعض الأشرعة المطوية وزورقا مطاطيا مطويا ومربوطا يتسع لشخصين، وفيه مجدافان صغيران مصنوعان من البلاستيك إضافة إلى علبة تحتوي على أجهزة إضاءة تحذيرية. يوجد في الخلف صندوق عدد متنوعة مغطى ومختوم بلاصق كهربائي أسود اللون. فك اللاصق وأزاله

عن أطراف الصندوق ثم فتح الأبازيم المصنوعة من مادة الكروم وفتح الغطاء. وجد في داخله مصباحا بلاستيكيًا أصفر اللون يصدر ضوءًا ومضيا متفاوت اللمعان وجهاز إشارة يعمل على البطارية الجافة، إضافة إلى جهاز بث لاسلكي أصفر اللون يستعمل في حالات الطوارئ. هنالك علبة بلاستيكية سوداء اللون بحجم كتاب تقريبا فك أبازيمها وفتحها فوجد فيها مسدس إشارة برونزيا قديما من عيار 37 مم؛ رفعه من العلبة بكلتا يديه، ثم أداره ونظر إليه. ضغط عليه وفتح قفله. كانت حجرة الطلقات فارغة لكنه وجد ثماني طلقات إشارة موضوعة في علبة بلاستيكية. الطلقات قصيرة وثخينة لكن تبدو جديدة. أعاد المسدس إلى علبته وأغلقها.

خاض في المياه وتقدم نحو الشاطئ بجهد وصعوبة. ارتجف بردا وانتابته نوبة سعال. التف ببطانية وجلس فوق الرمال الدافئة قبالة النار ووضع الصناديق والعلب جانبا. انحنى الصبي نحوه وحاول أن يلفه بذراعيه مما جعله يبتسم. قال له:

- ماذا وجدت يا أبي؟

- عدة إسعاف أولي ومسدس إشارة.

- وما هو؟

- سوف أريك. إنه يستعمل لإطلاق إشارات تنبيه.

- هل هذا ما كنت تبحث عنه؟

- نعم.

- وكيف عرفت أنه موجود هناك؟

- حسنا، كنت أرجو أن أجده هناك. إنها ضربة حظ بالمقام الأول.

فتح العلبة وأدارها نحو الصبي، حتى يرى.

- إنه مسدس.

- مسدس إشارة. يطلق شيئاً في الهواء يحدث ضوءاً كبيراً.

- هل أستطيع النظر إليه؟

- بكل تأكيد. لك ذلك.

- رفع الصبي المسدس من العلبة وأمسك به، وقال:

- هل تستطيع أن تطلق النار بواسطته على أحد؟

- تستطيع.

- وبذلك يقتلون؟

- كلا ولكن ربما يسبب هذا لهم احتراقاً.

- ألهذا السبب أحضرته؟

- نعم.

- لأنه لا يوجد أحد يمكن أن تطلق له طلقة إشارة. أليس كذلك؟

- كلا، لا يوجد أحد.

- أود أن أراه.

- تعني أنك تريد أن تستعمله لإطلاق طلقة؟

- نعم.

- نستطيع أن نطلق بواسطته.

- أحقاً؟

- بكل تأكيد.

- وقت الظلام.
- نعم. عندما يحل الظلام.
- ويكون ذلك بمنزلة احتفال.
- نعم. بمنزلة احتفال.
- هل نستطيع أن نطلق بواسطته الليلة؟
- لم لا؟
- هل هو ملقم؟
- كلا، لكننا نستطيع تلقيمه.
- وقف الصبي ممسكا بالمسدس، وجهه نحو البحر، وهو يصيح
مبتهجا: واو.
- ارتدى ثيابا وشرعا بالمشي على الشاطئ وهما يحملان آخر شيء تمكنا
من نهبه. قال له:
- إلى أين تعتقد أن الناس قد ذهبوا يا أبي؟
- الذين كانوا على متن السفينة؟
- نعم.
- لا أعرف.
- هل تعتقد أنهم قد ماتوا؟
- لا أعرف.
- لكن الظروف ليست في صالحهم.

ابتسم الرجل.

- الظروف ليست في صالحهم؟

- كلا. هل هي في صالحهم؟

- كلا. من المرجح أنها ليست كذلك.

- أعتقد أنهم قد ماتوا.

- من الممكن أن يكونوا قد ماتوا.

- أعتقد أن هذا ما حصل لهم.

قال الرجل:

- من الممكن أن يكونوا أحياء يسعون في مكان ما. هذا جائز.

لم يجب الصبي. استأنفا سيرهما. كانا قد لفا حول أقدامهما قماشاً

اقتطعاه من الأشرطة، ثم أحاطا القماش بشيء من البلاستيك الأزرق كانا

قد مزقاه من الغطاء. تبعا لذلك كانت الآثار التي خلفتها أقدامهما على

الشاطئ غريبة الشكل. كان يفكر في الصبي واهتماماته. قال له بعد برهة:

- من الممكن أن تكون محقا فيما ذهبت إليه. من الممكن أن يكونوا قد ماتوا.

- لأنهم لو كانوا أحياء، هذا يعني أننا استولينا على ممتلكاتهم.

- ونحن لم نستولِ على ممتلكاتهم.

- أعرف.

- حسنا.

- كم تعتقد عدد الناس الباقين على قيد الحياة؟

- في العالم؟

- في العالم. نعم.

- لا أعرف. دعنا نتوقف؛ كي نستريح.

- حسنا.

- إنك ترهقني.

- حسنا.

جلسا بين الحزم.

- كم سنمكث هنا يا أبي؟

- لقد سألتني عن ذلك.

- أعرف.

- سوف نرى.

- هذا يعني أننا لن نبقى هنا زمنا طويلا جدا.

- محتمل.

أحدث الصبي ثقبيا وفتحات في الرمال بواسطة أصابعه إلى أن شكلت
الثقوب دائرة. كان الرجل يراقبه ثم قال:

- لست أدري كم هو عدد البشر الموجودين. لا أعتقد أنه يوجد الكثير منهم.

- أعرف.

سحب البطانية نحو كتفيه ونظر نحو الشاطئ القاحل والرمادي.

قال الرجل:

- ما هذا؟

- لا شيء.

- كلا. أخبرني.

- من المحتمل وجود أناس أحياء في مكان آخر.

- أين ذاك المكان الآخر؟

- لست أدري في أي مكان.

- هل تعني على الأرض؟

- نعم.

- لا أعتقد ذلك. لا يستطيعون أن يعيشوا في مكان آخر.

- ولا حتى إن استطاعوا أن يذهبوا بعيداً؟

- كلا.

أشاح الصبي ببصره عنه.

قال الرجل:

- ماذا؟

هز رأسه. وقال: لست أدري ماذا نحن فاعلان.

هم الرجل بالإجابة لكنه لم يفعل. قال بعد برهة: يوجد بشر، وسوف

نلتقي بهم ولسوف ترى.

شرع في تهيئة العشاء، بينما كان الصبي يلعب بالرمل. كان معه قطعة

معدنية مبسطة أخذها من علبة طعام. بنى بواسطتها قرية صغيرة في

الرمل وجعل فيها شبكة من الطرق المتصالبة. اقترب الرجل منه، جلس

القرفصاء ونظر إليها. رفع الصبي بصره إلى أعلى وقال:

- سوف يأتي البحر عليها. أليس كذلك؟

- نعم.

- حسنا.

- هل تستطيع أن تكتب أحرف الأبجدية؟

- نعم. أستطيع كتابتها.

- لم نعد نشغل على دروسك.

- أعرف.

- هل تستطيع كتابة أي شيء على الرمال؟

- ربما نستطيع أن نكتب رسالة للناس الطيبين حتى إذا ما مروا من هنا،

فلسوف يعلمون أننا كنا في هذا المكان. نستطيع أن نكتبها هناك، بحيث

لا تصل إليها مياه البحر فتمحوها.

- وماذا لو رأتها عصابة الأشرار؟

- نعم.

- لم يكن ينبغي لي قول ذلك. باستطاعتنا أن نترك لهم رسالة. هز الصبي

رأسه وقال:

- هذا أمر مستحسن.

لقم مسدس الإشارة وما إن حل الظلام حتى شرعا بالمسير على

الشاطئ مبتعدين عن النار وسأل الصبي إن كان يرغب بإطلاق النار.

- أطلق الطلقة أنت يا أبي، فأنت تعرف كيف تفعل.

- حسنا.

جهاز المسدس استعدادا للرمي، وجهه نحو الخليج وضغط على الزند. انطلقت الرصاصة متخذة مسارا منحنيا، اخترقت الظلام محدثة دويا طويلا ثم انفجرت في مكان ما فوق المياه في ظل الضوء الملبد بالغيوم وتوقفت حين بلغت مداها. ذرات المغنسيوم الحارة والمتوهجة تطايرت في السماء ثم هبطت رويدا رويدا وابتلعها العتمة. خط المد البحري عند مقدم الشاطئ توهج فجأة بفعل نور يبهر الأبصار ثم تضاءل الضوء شيئا فشيئا إلى أن عاد وغاص في الظلام. أخفض بصره ونظر إلى وجه الصبي الذي تملكته الدهشة.

- لا يستطيعون أن يروه من مسافات بعيدة. هل يقدرّون على ذلك يا أبي؟

- من؟

- أي مكان.

- لا. ليس من مكان بعيد.

- إن أردت أن تشير إلى مكان وجودك.

- أتعني أن تشير إلى الناس الطيبين مثلا؟

- نعم. أو لنقل أي أناس ترغب في أن يروك ويحددوا مكانك.

- مثل من؟

- لا أعرف.

أضرم نارا في الصباح ومشى على الشاطئ، بينما كان الصبي نائما. لم يكن قد ذهب بعيدا عندما راوده شعور غريب مشوب بعدم الارتياح. قفل عائدا ليجد الصبي واقفا على الشاطئ، ملتقا بالبطنيات ينتظر، فأسرع في العودة. لدى وصوله كان الصبي قد جلس على الأرض.

قال له:

- ماذا في الأمر؟ ماذا في الأمر؟

- أشعر بعدم الارتياح يا أبي؟

مسس جبينه براحة كفه، فإذا به يكاد يحترق من شدة ارتفاع حرارته.

حملة وذهب به إلى مكان قريب من النار وقال:

- لا بأس عليك. سوف تكون على ما يرام.

- أعتقد أنني سوف أمرض.

- هون عليك.

جلس معه فوق الرمال ووضع يده على جبينه في حين كان الصبي يتقيأ

وهو ينحني. مسح بيده فم الصبي. قال الصبي:

- أنا آسف.

- اصمت. إنك لم ترتكب أي خطأ يوجب الاعتذار.

حملة وعاد به إلى الخيمة ثم غطاه بالبطانيات. حاول أن يحمله على

شرب شيء من الماء. مد النار بمزيد من الحطب. جثا على ركبتيه واضعا

يده على جبين الصبي، قال له:

- سوف تكون بخير.

كان مذعورا. قال الصبي:

- لا تذهب بعيدا.

- لن أذهب بعيدا، لا ريب في ذلك.

- ولا حتى لبرهة قصيرة.

- كلا. أنا هنا ولن أبرح هذا المكان.

- حسنا، حسنا يا أبي.

سهر عليه طوال الليل. كان ينام نوما خفيفا، ثم يستيقظ مذعورا فيتحسس قلب الصبي. لم يكن في الصباح أحسن حالا. حاول أن يحمله على شرب شيء من العصير لكنه أبقى. ضغط بيده على جبينه مناشدا البرد أن يحل محل الحرارة، لكن هيهات أن يكون له ما أراد.

مسح فمه الأبيض، بينما كان الصبي نائما وهمس: سوف أبقى بوعدى مهما كلف الأمر ولن أدعك تذهب إلى الظلام وحيدا.

فتح حقيبة الإسعافات الأولية التي أحضرها من السفينة وفتش فيها لكنه لم يعثر على الكثير مما يمكن استعماله. أسبرين، ضمادات، مواد مطهرة ومضادات حيوية لمقاومة الجراثيم لكنها ذات مدة صلاحية محدودة وقصيرة. كل ما استطاع عمله هو أنه أعان الصبي على الشرب ووضع إحدى الكبسولات على لسانه. تصبب عرقا. أزاح البطانيات عنه وخلع عنه معطفه وملابسه وحركه بعيدا عن النار. رفع الصبي بصره ونظر إليه قائلا:

- إنني أشعر ببرد شديد.

- أعرف. لكنك تعاني من ارتفاع حاد في الحرارة، وعلينا أن نجعل حرارة جسمك تنخفض.

- هل لي أن أحصل على بطانية أخرى؟

- نعم، طبعاً.

- لن تذهب بعيدا.

- لا، لن أذهب بعيدا.

حمل ثياب الصبي القذرة وشرع يغسلها بمياه البحر عند خط انكسار الموج. وقف وسط المياه المالحة والباردة عاريا من خصره حتى أخصص قدميه وجسمه يرتعد من شدة البرد. أخذ يغمر الثياب بالماء ثم يرفعها بقوة. فرد الثياب ونشرها فوق عصي ضربت في الرمال. كوّم مزيدا من الأخشاب ثم ذهب وجلس قرب الصبي من جديد وأخذ يلمس شعره الناعم. في المساء فتح علبة حساء ووضعها فوق الجمر. جلس يأكل مراقبا الظلام وهو يحتشد. استيقظ، كان مضطجعا فوق الرمال وهو يرتجف فانار خامدة وقد أمست رمادا وليل شديد الظلام. جلس مغضبا يتحسس الصبي وهمس: نعم. نعم.

أضرم النار من جديد. أحضر قطعة قماش، بللها ووضعها على جبين الصبي. أوشك الفجر الشتوي البارد أن يبرغ. عندما تجمع من الضوء ما يكفي للرؤية ذهب إلى الغابات المنتشرة خلف الخرائب وعاد يجرواها كماً ضخماً من الأغصان الكبيرة والصغيرة الميتة. كسرها وكدها قرب النار. سحق بعضاً من حبوب الأسبرين، وضعها في كوب، صب عليها ماء، ذوبها ووضع فوقها شيئاً من السكر. جلس، رفع رأس الصبي، أمسك له الكوب فشرب ما فيه.

مشى على الشاطئ بطيئاً مسترخياً وأخذ يسعل. وقف ينظر إلى أمواج البحر الطويلة والمعتمة. كان يتمايل من شدة التعب. رجع وجلس قرب

الصبي. طوى القماش ومسح وجهه ثم فرد القماش من جديد ووضعه على جبينه. قال: عليك أن تبقى قريبا وأن تكون سريعا، بحيث تستطيع أن تكون معه آخر يوم في الأرض.

نام الصبي طوال اليوم وواظب هو على إيقاظه؛ كي يشرب الماء المحلى بالسكر. كانت حجرة الصبي الجافة تهتز وتصدر أصواتا خافتة. قال له: عليك أن تشرب. قال الصبي: حسنا وهو يتنفس محدثا صوتا كالصفير. حرك الكوب بجانبه حركة دائرية فوق الرمال. وسد البطانية تحت رأسه الذي كان يتصبب عرقا وغطاه. قال له: هل تشعر بالبرد؟ بيد أن الصبي كان قد استغرق بالنوم.

حاول أن يبقى مستيقظا طوال الليل لكنه لم يستطع. استيقظ مرات كثيرة وجلس وصفح نفسه، أو أنه نهض ليمد النار بالمزيد من الحطب. ضم الصبي إليه وانحنى عليه؛ كي يستمع إلى صوت الهواء في أثناء تنفسه. وضع يده على أضلاعه المتدرجة والنحيلة. سار على الشاطئ إلى حيث نهاية الضوء الذي ترسله النار. توقف ووضع قبضتيه فوق جمجمته وسقط على ركبتيه وهو يبكي ويتنهد بأنفاس سريعة وقد تملكه غيظ عارم وغضب شديد.

هطلت الأمطار ليلا خفيفة واستمرت زمنا قصيرا وكانت تربت على الغطاء البلاستيكي ربتا خفيفا. سحب الغطاء فوقهما، استدار وعانق الصبي. شاهد أسنة اللهب الزرقاء عبر البلاستيك. غط في نوم عميق لا يعرف الحلم إليه سبيلا.

عندما استيقظ من جديد لم يكد يدرك أين هو موجود. النار أخدمت

وتوقف هطل المطر. أبعاد الغطاء وسحب نفسه متكئا على مرفقيه. ضوء النهار رمادي. راقبه الصبي، وقال:

- أبي.

- نعم، أنا هنا.

- هل أستطيع أن أشرب ماء؟

- نعم. نعم يمكنك ذلك بالتأكيد. كيف تشعر الآن؟

- أشعر أنني في وضع غير اعتيادي وغريب نوعا ما.

- هل أنت جائع؟

- أشعر بعطش شديد حقا.

- دعني أحضر لك الماء.

دفع عنه البطانيات ونهض ومشى مارا بجانب النار التي خمدت. أحضر كوب الصبي وملاه بالماء من عبوة بلاستيكية. عاد، جثا على ركبتيه، قدم له الكوب وقال: سوف تكون على ما يرام. شرب الصبي، هز رأسه ونظر إلى أبيه. شرب بقية الماء وقال: أريد المزيد.

أضرم نارا، علق ملابس الصبي المبللة على سناد وأحضر له علبة عصير تفاح وقال:

- هل تتذكر أي شيء؟

- حول ماذا؟

- فيما يتعلق بكونك مريضا.

- أتذكر إطلاق الرصاصة بمسدس الإشارة.

- هل تتذكر إحضار الأظعمة من السفينة؟

جلس يرشف العصير رشفاً. نظر إلى أعلى وقال:

- لست معوقاً.

- أعرف.

- حلمت أحلاماً عجيبة غريبة.

- حول ماذا؟

- لا أريد أن أخبرك.

- حسناً. أريدك أن تتظف أسنانك بفرشاة الأسنان.

- بفرشاة أسنان حقيقية.

- نعم.

- حسناً.

فحص كل معلبات الأظعمة، فلم يجد بينها شيئاً يمكن أن يشك بصلاحيته. لكنه رمى قليلاً منها كانت صدئة جداً. جلسا تلك الليلة قرب النار وشرب الصبي حساء ساخناً. أما الرجل فكان يقلب الألبسة التي يتصاعد منها البخار وجلس ينظر إلى الصبي إلى حد أربكه، فقال:

- كف عن النظر إلي يا أبي.

- حسناً.

لكنه لم يفعل.

في غضون يومين أصبحا يمشيان على الشاطئ وصولاً إلى الرأس

البحري ثم يعودان. كانا يسيران بحذاءيهما القصيرين المصنوعين من البلاستيك مجهدين.

أكلا وجبات مشبعة. نصب شرعا مائلا وربطه بحبال إلى أعمدة؛ كي يصد الرياح عنهما. خففا من أحمالهما لدرجة تصبح معها العربة طيبة سهلة الحركة وفكر في احتمال مغادرتهما خلال يومين. عندما عادا إلى المخيم في وقت متأخر من النهار رأى آثار حذاء فوق الرمال.

قال:

- ما الخطب يا أبي؟

سحب المسدس من الحزام وقال:

- تعال بسرعة.

لم يجد شيئا. كل شيء قد سرق؛ بطانياتهما، عبوة الماء ومخزونهما من الطعام الذي كان في المكان الذي خيما فيه. كان الشراع ممزقا ومبعثرا بين الخرائب ولم يجد حتى أحذيتهما. هرع مسرعا خائضا إلى حيث ترك العربة. حتى العربة سرقت. كل الأشياء. قال:

- إنك حمار أحمق. إنك حمار أحمق.

كان الصبي متمسرا في مكانه فاغر العينين مشدوها.

- ماذا حصل يا أبي؟

- لقد أخذوا كل شيء. تعال.

رفع الصبي بصره ونظر إليه. كان قد بدأ بالبكاء.

قال الرجل:

- ابق معي. ابق ملاصقا لي.

استطاع أن يلحظ آثار العربة، فحيث تدرجت كانت قد أبعدت التراب وأبقت تحته الرمال مهلهلة. آثار أحذية. كم عددها؟ لقد أضع الأثر الذي يقتفيه حين أصبحت الأرض أكثر صلابة وأحسن حالا ثم عاد ورأى الآثار من جديد. عندما وصلا إلى الطريق أمسك الصبي بيده وأوقفه. كان الطريق معرضا لهبوب الرياح من جهة البحر وقد كنست الريح الرماد عنه باستثناء مساحات صغيرة توزعت هنا وهناك. قال: لا تدس على الطريق وكف عن البكاء. يجب أن ننظف أقدامنا من الرمال تماما. اجلس.

فك الأربطة ونفض عنها الرمال ثم ربطها من جديد. قال: أريدك أن تمد لي يد العون. نحن نبحث عن الرمال؛ رمال على الطريق، حتى وإن كانت كمية ضئيلة. يجب أن نتبين أي طرق سلكوا. قال: هل هذا واضح؟
- نعم.

شرعا يمشيان باتجاهات متعاكسة انطلاقا من الطريق المغلقة. لم يكونا قد ذهبا بعيدا عندما رفع الصبي صوته قائلا: هي ذي يا أبي. لقد سلكوا هذه الطريق. عندما وصل حيث أشار له كان الصبي رابضا على الطريق وقال: إنها هنا تحديدا. ما رأيك يعادل ما حجمه نصف ملعقة شاي، تساقط من مكان ما أسفل العربة. وقف الرجل ونظر نحو أسفل الطريق، وقال: حسنا فعلت. دعنا نذهب.

انطلقا مهرولين بسرعة، ظن أنه قادر عليها لكنه لم يستطع. يجب عليه

أن يتوقف. توقف وانحنى وهو يسعل. رفع بصره ونظر إلى الصبي وهو يتنفس بصعوبة، وقال:

— علينا أن نمشي بهدوء فإنهم سيختبئون على جانب الطريق إن سمعوا صوتنا. هيا.

— كم عددهم يا أبي؟

— لا أعرف. ربما هو واحد فقط.

— أسوف نقتلهم؟

— لا أعرف.

استأنفا سيرهما، وذلك في ساعة متأخرة من النهار. إن هي إلا ساعة أخرى ويكون الليل قد أرخى سدوله واستحكمت العتمة قبل أن يلحقا باللص ويدركاه. كان اللص متكئا على العربة المحملة وهو يدرجها أمامهما. عندما التفت إلى الوراء حاول أن يفر هاربا بالعربة ولكن لم تكن محاولة الهروب مجدية. أخيرا توقف ووقف خلف العربة حاملا بيده سكين جزار. عندما رأى المسدس تراجع إلى الوراء، لكنه لم يلقِ السكين من يده. قال الرجل:

— ابتعد عن العربة.

نظر إليهما. نظر إلى الصبي. كان واحدا من عامة الناس، منبوذا ومشردا. أصابع يده اليمنى مقطوعة، فحاول أن يخفيها خلفه. العربة ممتلئة عن آخرها؛ لأنه أخذ كل شيء ولم يبق ولم يذر.

— ابتعد عن العربة وألقِ السكين.

تلفت حوله كما لو كان يوجد من يمد له يد العون في مكان ما. مهزول،

مقطب الجبين، متجهم الوجه، ملتج وقذر. يرتدي معطفا بلاستيكا قديما ممزقا وقد جمعت قطعه الممزقة بعضها إلى بعض بواسطة شريط لاصق. المسدس من النوع المزدوج الأداء لكنه لقمه على كل حال. أحدث تقييم المسدس صوتين عاليين. عدا عن ذلك كانت تلك الأرض المألحة غارقة في صمت لا تخترقه إلا أصوات أنفاسهما. استطاعا أن يشما الرائحة النتنة الكريهة المنبعثة من أسمائه البالية. قال الرجل:

- ما لم تلقِ السكين وتبتعد عن العربة، فسأفجر دماغك وأخرجه من رأسك.

وضع السكين فوق البطانيات، ابتعد إلى الوراء وتوقف.

- ارجع، أكثر.

رجع إلى الوراء.

قال الصبي:

- أبي.

- الزم الصمت.

أبقى عينيه على اللص يراقبه وقال: لعنك الله.

- أبي أرجوك لا تقتل الرجل.

دارت عينا اللص بطريقة وحشية. الصبي يبكي.

- هيا أيها الرجل. استمع إلى الصبي فقد فعلت ما طلبت مني.

- اخلع ملابسك.

- ماذا؟

- اخلع ملابسك كلها لعنها الله.

- لا تفعل هذا.

- سأقتلك حيث تقف.

- لا تفعل هذا أيها الرجل.

- لن أعيد ما قتلته.

- حسنا، حسنا. فقط هون عليك.

خلع ملابسه القذرة ببطء وكومها على الطريق.

- الحذاء.

- يا رجل.

- الحذاء.

نظر اللص إلى الصبي. أشاح الصبي بوجهه عنه ووضع يديه على أذنيه قال: حسنا. حسنا. جلس على الطريق عاريا وبدأ يفك قطع الجلد العفنة المربوطة على قدميه، ثم نهض واقفا وقد حملها بإحدى يديه.
- ضعها في العربة.

تقدم إلى الأمام ووضع الحذاء فوق البطانيات ثم رجع إلى الوراء حيث وقف عاريا قذرا وهو يتضور جوعا. غطى جسده بيده وبدأ يرتجف.
- ضع الألبسة في العربة.

انحنى، وضع أسماله البالية فوق ذراعيه وكومها فوق الحذاء. وقف حيث هو محاولا أن يتماسك.
- لا تفعل هذا يا رجل.

- أنت لم تكثرث عندما فعلت معنا ما فعلت.

- إني أتوسل إليك.

قال الصبي:

- أبي.

- هيا ، استمع للصبي.

- حاولت أن تقتلنا.

- إني أتصور جوعاً أيها الرجل ، وقد فعلت أنت الشيء عينه.

- لقد أخذت كل شيء.

- هيا أيها الرجل سوف أموت.

- سوف أتركك بالطريقة ذاتها التي تركتنا بها.

- هيا . إني أتوسل إليك .

سحب العربة إلى الخلف ثم أدارها ووضع المسدس فوقها . قال للصبي:

دعنا نذهب . سارا على الطريق متجهين جنوباً ، بينما كان الصبي مستمراً

بالبكاء وينظر إلى السوراء؛ إلى ذلك المخلوق العاري المسمر في مكانه كأنه

لوح خشبي . إنه يرتجف من شدة البرد وقد لزم مكانه على الطريق . صاح

الصبي: أبي ، وأجهش بالبكاء .

- كف عن هذا .

- لا أستطيع .

- ما تظن أنه سيحدث لنا لو لم نمسك به . كف عن البكاء وكفى .

- إني أحاول .

عندما وصلا إلى منعطف على الطريق كان الرجل ما يزال واقفا حيث كان. ليس ثمة من مكان يأوي إليه. واضب الصبي على النظر إلى الورااء وماً لم يعد يتمكن من رؤيته توقف ثم جلس على الأرض وأخذ يبكي ويتهد بأنفاس سريعة. كبح الرجل جماح نفسه ووقف ينظر إليه. سحب حذاءيهما من العربة. جلس وبدأ يفك الأربطة عن قدمي الصبي، وقال:

- عليك أن تكف عن البكاء.

- لا أستطيع.

انتعل الحذاء وأنعل الصبي حذاءه ثم نهض ومشى عائداً إلى أعلى الطريق لكنه لم يستطع أن يرى اللص. قفل عائداً ووقف إلى جانب الصبي وقال: لقد ذهب. هيا.

قال الصبي:

- لا، إنه لم يذهب. نظر إلى أعلى؛ كان وجهه ملطخا بالسخام. إنه لم يذهب.

- ماذا تريد أن تفعل؟

- ساعده فقط يا أبي. ساعده هذا كل ما في الأمر.

التفت الرجل ونظر إلى أعلى الطريق.

- إنه كان جائعا يا أبي، وقد أوشك أن يموت.

- سيموت على أي حال.

- إنه مصاب بذعر شديد يا أبي.

جلس الرجل القرفصاء ونظر إليه قائلاً:

- أنا خائف. هل تفهم؟ أنا مصاب بالذعر.

لم يجب الصبي، بل جلس في مكانه مطرقا وهو يبكي ويتهد.

- لست أنت من يجب أن يقلق حول كل شيء.

قال الصبي، شيئا لكنه لم يستطع أن يفهمه. قال له: ماذا؟

رفع بصره، كان وجهه مبتلا وملطخا بالسخام، وقال: بلى أنا هو.

دفع العربة المقلقلة راجعين نحو أعلى الطريق ووقفا هناك في جو من

البرد والظلام المحتشد يناديان، لكن لم يأت أحد.

- إنه لا يجيب؛ لأنه خائف يا أبي.

- هل هذا هو المكان الذي توقفتنا فيه؟

- لا أعرف، لكني أعتقد ذلك.

ذهبا باتجاه أعلى الطريق وهما يصيحان مع هبوط ظلمة أول الليل

في ذاك المكان الخاوي. ضاعت أصواتهما في طول الأراضي الساحلية

وعرضها. توقفا ووقفا وقد جعل كل منهما كلتا يديه على شكل كوب يحيط

بفمه وأخذ يصيح وينادي وسط الأراضي المقفرة كمن فقد صوابه. كؤم

أخيرا ثياب الرجل وحذاءه على الطريق ووضع فوقها صخرة وقال:

- علينا أن نذهب. علينا أن نذهب.

نصبا مخيما جافا دون أن يضرما نارا. اختار بعض المعلبات من أجل

العشاء وسخنها على مضرم الغاز. أكلا ولم ينبس الصبي ببنت شفة. حاول

الرجل أن يرى وجهه في ظل ضوء اللهب الأزرق المنبعث من المضرم، وقال:

لم أكن عازما على قتله لكن الصبي لم يجب. لذا جسديهما بالبطنيات

واضطجعا في مكانهما في كنف الظلام. ظن أنه تمكن من سماع صوت

البحر لكن ربما ما سمعه هو صوت الرياح ليس إلا. استطاع أن يقدر أن الصبي لما ينم بعد، وذلك من خلال استماعه إلى صوت أنفاسه. قال الصبي بعد برهة: لكننا قد قتلناه.

تناولا طعامهما صباحا وشرعا بالمسير. العربة محملة بأكثر مما تستوعب، صار دفعها شاقا ومجهدا علاوة على أن أحد إطاراتها قد تقلقل. كان الطريق ينعطف على طول الساحل. حزم من الأعشاب المملحة تتدلى على الطريق. البحر المصطبغ بلون الرصاص يبدو من مسافة بعيدة بتشكيل متغير ومتبدل. الصمت. استيقظ ليلا في ظل الضوء الكربوني الشحيح للقمر الذي كان يعبر خلف الظلام ملقيا ظللالا للأشجار تمكن رؤيتها. أدار وجهه وبدأ يسعل. هناك رائحة مطر تبعث من بعيد. كان الصبي مستيقظا. قال له:

- عليك أن تتحدث معي.

- أنا أحاول.

- أنا آسف. فقد كنت سبب استيقاظك.

- لا عليك.

نهض ومشى نحو الطريق. الظل الأسود يعدو من عتمة إلى عتمة. سمع هزيم الرعد؛ كان ضعيفا وبعيدا ولم يكن بحجم الصاعقة. تستطيع أن تستشعره تحت قدميك. صوت لا شبيه له ومن ثم لا يمكن وصفه. شيء غير قابل للوزن والتحديد الدقيقين يتقل في كنف الظلام. الأرض نفسها أبرمت عقدا مع البرد. لم تأت من جديد. ترى أي وقت من السنة هو ذا؟ كم بلغ الصبي من العمر؟ مشى نحو الطريق ثم توقف. الصمت. الملح يتجفف في الأرض. أشباح المدن المغمورة والمطخة بالوحل محترقة حتى خط الماء. عند تقاطعات الطرق ثمة أرض عليها حجارة أضرحة تنتمي

لحقبة ما قبل التاريخ، حيث عظام الكهنة مرمية ومتفسخة. لا صوت إلا صوت هزيز الرياح. ماذا سيقول؟ هل هو إنسان حي من نطق بهذه السطور؟ شحذ يراعا بسكينه الصغيرة؛ كي ينقش هذه الأشياء على نبات برقوق شائك أو على سخام الفوانيس في لحظة يحسب لها حساب. إنه أت؛ كي يسرق عيني ولكي يسد فمي بالأقدار سدا محكما.

فحص المعلبات من جديد واحدة فواحدة. كان يمسكها بيده ثم يعصرها كرجل يختبر نضج فاكهة معروضة في مكان عرض. رمى معلبتين مشكوكا بصلاحيتهما. أعاد الباقي إلى العربة وحزمها ثم استأنفا سيرهما على الطريق من جديد. وصلا بعد نحو ثلاثة أيام إلى بلدة مرفئية صغيرة. أخفيا العربة في مرآب خلف بيت وكوما فوقها علبا كرتونية قديمة ثم جلسا بعد ذلك في البيت يراقبان؛ كي يتيقنا من أن أحدا لن يأتي. لم يأت أحد. فتش في الخزائن فلم يعثر على شيء. إنه بحاجة إلى فيتامين - د من أجل الصبي، وما لم يحصل عليه فإنه سيصاب بمرض كساح الأطفال. وقف عند المغسلة ونظر إلى الخارج؛ إلى الدرب الذي يصل ما بين البيت والطريق العامة. مياه الغسيل المتخثرة على ألواح النوافذ الزجاجية القذرة لونها فاتح. جلس الصبي إلى الطاولة متهالكا وقد دفن رأسه بين ذراعيه.

سارا عبر البلدة ومنها إلى مكان أحواض السفن. لم يريا أحدا. كان قد وضع المسدس في جيب معطفه وأبقى في يده مسدس الإشارة. تابعا سيرهما على رصيف أحواض السفن. الألواح الغليظة مغطاة بالقطران وقائمة اللون وهي مثبتة على قاعدة من الخشب موجودة تحتها بواسطة مسامير ضخمة. ثمة مرابط مصنوعة من الخشب تشد إليها حبال المراكب. رائحة الملح وسائل الكرييوسيت الزيتي المستخرج من القطران تسببان دوارا وتبعثان على الإغماء. هناك؛ على جانب الشاطئ البعيد

يوجد مستودعات وهيكل ناقلة نפט أكسبها الصدأ لونا أحمر. يوجد رافعة متقلة جسرها عالٍ ومنتصب في الهواء تحت السماء المكفهرة والكئيبة. قال: لا يوجد أحد هنا. لم يجب الصبي.

دفعا العربة عبر الشوارع الخلفية واجتازا قضبان السكك الحديدية. وصلا إلى الشارع الرئيس الموجود عند طرف البلدة البعيد. بينما كانا يمران بجانب آخر الأبنية الخشبية الحزينة. مر شيء صافر بمحاذاة رأسه، تحرك على الأرض بسرعة فائقة محدثا قعقعة ثم ارتطم بجدار البناء على الجانب الآخر. أمسك الصبي وسقط فوقه وأمسك العربة؛ كي يسحبها نحوهما. مالت العربة وانقلبت مبعثرة الغطاء والبطانيات في الشارع. تمكن من رؤية رجل يطل من نافذة البيت العلوية. كان الرجل قد لوى قوسا يستخدم في إطلاق السهام ووضوه نحوهما. دفع رأس الصبي نحو الأسفل وحاول أن يغطيه بجسده. سمع الصوت الكئيب لوتر القوس وشعر بألم حار وحاد في رجله. قال: أنت ابن حرام. ابن حرام. أزاح البطانيات، أمسك بمسدس الإشارة بقوة، لقمه وأراح ذراعه على جانب العربة. كان الصبي يمسكه ويتشبث به. عندما عاد الرجل إلى الوراء؛ ليلقي سهمًا آخر عبر إطار النافذة أطلق النار. انطلق سهم ناري نحو النافذة مخلفا وراءه خطا طويلا أبيض اللون على شكل قوس. بعد ذلك تمكن من سماع صوت الرجل وهو يصرخ. أمسك بالصبي ودفع به إلى أسفل. سحب البطانيات ووضعها فوقه وقال له: لا تتحرك. لا تتحرك ولا تنظر. نبش البطانيات وبعثرها على الطريق وهو يبحث عن علبة مسدس الإشارة. أخيرا انزلقت العلبة من العربة. انتزعها على عجل، فتحها وأخرج منها الطلقات، وضع ما تبقى من طلقات في جيبه. أجلس الصبي بين البطانيات ورتب له المكان بحركات خفيفة ولطيفة وركض عبر الطريق وهو يعرج.

دخل البيت من بابه الخلفي. مسدس الإشارة في يده على مستوى الخصر منه وقد صوبه إلى الأمام. البيت مجرد من كل شيء حتى الألواح الخشبية التي عادة ما تغطي الجدران. دخل إلى حجرة الجلوس ووقف عند منبسط السلم. أنصت ليستمع إن كان ثمة حركة في غرف الدور العلوي. نظر عبر النافذة إلى حيث تقف العربة من الشارع ثم اعتلى درجات السلم.

رأى امرأة جالسة عند الزاوية وهي تضم إليها رجلا. كانت قد خلعت عنها معطفها؛ لتغطيه به. ما إن رآته حتى بدأت تصب عليه اللعنات. كانت الطلقة قد احترقت على أرض الغرفة مخلقة بقعة من الرماد الأبيض. في الغرفة رائحة خشب محروق خانقة تبعث على الإغماء. مشى متجها نحو النافذة ونظر عبرها. عينا المرأة كانتا تتبعانه. امرأة مهزولة ذات شعر رمادي سبط أملس.

- من يوجد هنا؟ لم تجب. مر بجانبها وذهب كي يفتش الغرف. كانت رجله تتزف على نحو خطير. لقد أحس ببنتاله ملتصقا على جلده. عاد فدخل إلى الغرفة الأمامية، وقال:

- أين القوس؟

- إنه ليس بحوزتي.

- أين هو؟

- لا أعرف.

- لقد تركوك هنا. أليس كذلك؟

- تركت نفسي هنا.

استدار وهبط درجات السلم وهو يعرج. فتح الباب الأمامي وخرج

يمشي بشكل ارتجاعي وعيناه على البيت يراقبه. عندما بلغ مكان العربية سحبها وسواها على عجلاتها وأعاد وضع الأشياء فيها وهمس: ابقْ ملاصقا لي. ابقْ ملاصقا.

نزلا في بناء فيه مستودع عند نهاية البلدة. دفع العربية على عجلاتها وأدخلها إلى غرفة خلفية. أغلق الباب وسده بوضع العربية خلفه بشكل جانبي. أخرج خزان الوقود والمضرم وأضرم النار فيه ووضعها على الأرض. فك حزامه وخلع عنه بنطاله الملطخ بالدماء. كان الصبي يراقبه. السهم الذي أصابه خلف جرحا بالغا فوق ركبته تماما بطول يبلغ ثلاثة إنشات. كان ما يزال ينزف وقد امتقع القسم العلوي من رجله كاملا. كان الجرح غائرا وعميقا وقد استطاع أن يرى ذلك. ملعقة قديمة. الله يعلم ما هي نظر إلى الصبي، وقال:

- حاول أن تجد لي حقيبة الإسعاف الأولى.

لم يتحرك الصبي.

- أحضر حقيبة الإسعاف الأولى، عليها اللعنة. لا تجلس حيث أنت هكذا.

قفز، ذهب نحو الباب وبدأ ينبش تحت الغطاء وبين البطانيات المكومة في العربية. عاد وقد أحضر الحقيبة. مررها للرجل الذي تناولها منه دونما تعليق. وضعها على الأرض الخرسانية أمامه. فك أقفالها بحركة خاطفة وفتحها. مد يده وأضرم النار في المضرم؛ كي يستضيء بضوئه. قال: أحضر لي عبوة الماء. أحضر الصبي العبوة. فك غطاءها وصب فوق الجرح ماء. ضم أطراف الجرح بعضها إلى بعض وأغلقه، بينما كان يمسح عنه الدم. مسح الجرح، نظفه وعقمه بمادة مطهرة ومبيدة للجراثيم. فتح مغلفا بلاستيكيًا مستخدما أسنانه لهذا الغرض. أخرج إبرة معقوفة ولفة من خيوط الحرير التي تستخدم في خياطة الجراح. قرب خيط الحرير

من الضوء وأدخل طرفه عبر ثقب الإبرة. الجرح. عمل بسرعة ولم يعانٍ من آلام مبرحة جراء ذلك. كان الصبي جاثيا على الأرض. نظر إليه ثم انحنى لينظر ثانية إلى مكان الجرح، وهو يخيطة قال له:

- لا ينبغي لك أن تشاهد.

- هل تجري الأمور بشكل مناسب؟

- نعم.

- ألا يؤلمك هذا؟

- بلى يؤلمني.

لف الخيط على شكل عقدة أدخل طرفه فيها، شده شدا محكما وقصه بمقص ونظر إلى الصبي. كان الصبي ينظر إلى كل ما كان يفعله.

- أنا آسف. لقد صرخت في وجهك.

رفع بصره ونظر إليه قائلاً:

- لا عليك يا أبي.

- دعنا نبدأ بداية جديدة.

- حسناً.

كان المطر ينهمر في الصباح والرياح العاتية ترتطم بالزجاج خلف البناء فيشتد هزيمها. وقف ينظر إلى الخارج. صقالة مصنوعة من الفولاذ وتستخدم في إصلاح السفن مائلة وعلى وشك الانهيار وجزء منها مغمور بمياه الخليج. حجرات إرشاد سفن صيد الأسماك الغارقة منتصبة بعيدا عن الأمواج الرمادية المتلاطمة. لا شيء يتحرك هناك. فأى شيء قابل للحركة لا بد أن تكون الرياح قد عصفت به ورمته بعيدا منذ وقت بعيد. ما انفكت رجله تنبض. فك عنها الضماد، عقم الجرح ونظر إليها.

مكان الجرح منتفخ ومتورم وممتقع اللون. إنه يعاني من ألم موضعي حاد. ضمّد الجرح ولبس بنطاله الذي جف عليه الدم وتيبس.

أمضيا يومهما هناك جالسين وسط العلب والصناديق. قال:

- عليك أن تتحدث معي.

- أنا أتكلم.

- هل أنت أكيد، من هذا؟

- إني أتكلم الآن.

- هل تريدني أن أقص عليك قصة؟

- كلا.

- لم لا؟

نظر الصبي إليه وأشاح بوجهه عنه.

- لم لا؟

- تلك القصص ليست حقيقية.

- لا ينبغي أن تكون حقيقية. إنها مجرد قصص.

- نعم. لكننا في القصص نمد يد العون للناس دائماً، بينما نحن في الواقع لا نفعل ذلك.

- لماذا لا تقص علي أنت قصة؟

- لا أريد أن أفعل.

- حسناً.

- ليس لدي قصص أقصها.

- تستطيع أن تخبرني بقصة عنك أنت.

- أنت تعرف كل القصص عني، فأنت معي دائما.

- يوجد قصص في داخلك لا أعرف شيئا عنها.

- هل تعني قصصا كالأحلام؟

- كالأحلام أو أي أمور أخرى تفكر فيها.

- نعم ولكن من المفترض أن تكون قصصا سعيدة.

- لا. لا ينبغي أن تكون كذلك.

- أنت دائما تتص قصصا سعيدة.

- إنها أقرب ما تكون إلى الحياة الواقعية.

- لكن قصصي ليست كذلك.

- قصصك ليست كذلك. كلا.

نظر الرجل إليه.

- وهل الحياة الواقعية بالغة السوء؟

- ما اعتقادك أنت؟

- حسنا، أعتقد أننا ما نزال موجودين هنا. لقد وقعت أحداث سيئة، لكننا

مازلنا موجودين هنا.

- نعم.

- ألا تعتقد أن هذا أمر رائع جدا؟

- حسنا.

سحبا طاولة عمل نحو النافذة ونشرا عليها البطانيات. تمدد الصبي

على بطنه ينظر عبر الخليج، بينما جلس الرجل مادا رجله أمامه. يوجد

بينهما بطانية وعليها المسدسان وعلبة الطلقات. قال الرجل بعد برهة:

— أعتقد أنها جيدة جدا. إنها قصة جيدة جدا، ويمكن أن يستخلص منها عبرة.

— حسنا يا أبي. كل ما أريده هو أن أحظى بوقت فيه شيء من الهدوء.

— ماذا عن الأحلام؟ لقد اعتدت أن تحدثني عن الأحلام أحيانا.

— لا أريد أن أتحدث عن أي شيء.

— حسنا.

— على أي حال، ليس لدي أحلام سعيدة. إن أحلامي تدور دائما حول حدث

سيئ. لقد قلت: إن هذا أمر جيد؛ لأن الأحلام السعيدة لا تبشر بخير.

— ربما. لست أدري.

— عندما تستيقظ وقد انتابك السعال وتخرج متجها إلى الطريق أو إلى أي

مكان آخر كنت أسمع صوت سعالك.

— أنا آسف.

— سمعتك مرة تبكي.

— أعرف.

— لذلك، إن لم يكن ينبغي لي أن أبكي، فلا ينبغي لك أيضا.

— حسنا.

— هل سيتحسن جرح رجلك؟

— نعم.

— هذا ليس مجرد كلام تقوله؟

— لا.

— لأنه يبدو أن الجرح بالغ حقا.

- إنه ليس سيئاً إلى هذا الحد.
- حاول الرجل أن يقتلنا. أليس كذلك؟
- نعم لقد فعل.
- هل قتلته؟
- كلا.
- هل ما تقوله هو الحقيقة؟
- نعم.
- حسناً.
- هل هذا يرضيك؟
- نعم.
- ظننت أنك لا تريد أن تتحدث؟
- لا أريد.

غادرا بعد يومين. كان الرجل خلف العربة يعرج على طول الطريق. بينما الصبي يمشي بجانبه ملازماً له إلى أن اجتازا ضواحي البلدة وأصبعا خارجها. يمتد الطريق على طول الساحل الرمادي المنبسط. ثمة أكوام من الرمال كانت الريح قد حملتها وألقت بها هناك، الأمر الذي جعل المسير عليه صعباً أحياناً. وقد كانا يضطران إلى تمهيد الطريق باستخدام لوح خشبي أحضراه معهما ووضعاه على المنصب السفلي للعربة. خرجا عن الطريق واتجها نزولاً نحو الساحل. أويأ إلى مكان بين الخرائب وجلسا فيه ينظران إلى الخارطة. كانا قد أحضرا المضمم معهما. سخنا شيئاً من الماء وحضراً شايًا. جلسا ضد الرياح متلفعين بالبطانيات. تحت الشاطئ ثمة أخشاب سفينة قديمة تغير لونها بسبب تعرضها لعوامل الجو. عوارض

خشبية رمارية اللون هبت عليها الرمال وعلقت بها. كتل خشبية قديمة مقطعة يدويا بشكل عمودي. خردوات وأدوات مصنوعة من الحديد، مجوفة ويغلب عليها اللون الأرجواني الأدكن. أدوات تم صهرها في أحد مصانع الحديد في مدينة قادس الإسبانية أو مدينة بريستول البريطانية وشكلت على سندان أسود؛ أدوات قادرة على الصمود في البحر مدة ثلاث مئة عام. في اليوم اللاحق مرا عبر منتجع قائم بجانب البحر تحول إلى خرائب ثم سلكا طريقا داخلية تمر عبر غابة صنوبر. الطريق الطويلة المستقيمة المزففة مغطاة بوريقات الصنوبر الشديدة النحول والإبرية الشكل التي كانت الرياح قد ساققتها إليها وركمتها عليها. الريح تهب على الأشجار الدكناء.

جلس على الطريق وقت الظهيرة، حيث يكون الضوء في أحسن أحواله. قص الخيوط بضربات سريعة متتالية من المقص. أعاد المقص إلى حقيبة العدة وأخرج منها ملزما. بدأ ينزع الخيوط الصغيرة السوداء من الجلد، وذلك بالضغط عليه بواسطة إبهامه. جلس الصبي على الطريق يشاهده. شد الرجل الملزم على نهاية الخيوط وأطبقه عليها ثم سحبها خيطا خيطا. قطرات صغيرة جدا من الدم. عندما انتهى وضع الملزم جانبا، وضع شيئا من الشاش على الجرح وثبته. نهض، رفع بنطاله وأعطى العدة للصبي؛ كي يضعها بعيدا.

قال الصبي:

- هذا مؤلم. أليس كذلك؟

- نعم. إنه يؤلم.

- هل أنت شجاع حقيقي؟

- بل أنا بين بين.

- ما هو الأمر الأكثر مدعاة للشجاعة الذي أقدمت عليه في حياتك؟

بصق على الأرض بلغما ممزوجا بدم، وقال:

- النهوض من النوم هذا الصباح.

- أحقا ما تقول؟

- كلا لا تصغ إلي. هيا، دعنا نذهب.

لاحت في المساء ظلال مظلمة لمدينة ساحلية أخرى. مجموعة من الأبنية الشاهقة منحرفة لأسباب غامضة. فكر بأن التشكيلات الحديدية قد لانت بفعل الحرارة، ثم تشكلت من جديد مما جعل الأبنية تأخذ شكلا مغايرا لما ينبغي أن تكون عليه. زجاج النوافذ المذوب معلق على الجدران كأنه المزيج الذي تزين به قوالب الحلوى.

استمرا في المسير. مؤخرا، صار يصحو من نومه أحيانا في عالم مقفر مظلم متجمد على وقع أحلام ملونة براقعة؛ أحلام عن عوالم من الحب الإنساني و تفريد الطيور والشمس.

أسند جبينه إلى ذراعيه المتصالبتين واستند إلى مقود العربة وبدأ يسعل. بصق لعابا ممزوجا بالدم. أصبح مضطرا للتوقف بشكل متزايد؛ طلبا للراحة. كان الصبي ينظر إليه. لكن ليس للصبي خيار كما أن ليس له حياة أخرى. إنه يدرك أن الصبي يصحو دائما في أثناء الليل وينصت؛ كي يستمع ويتأكد أن أنفاسه لم تقطع.

تمضي الأيام كأنها تسليخ العمر سلخا ولا سبيل لعدّها أو لاستيائها من خلال تقويم. على طول الطرق السريعة التي تصل بين الولايات المتحدة يوجد أرتال طويلة من السيارات المحترقة، المتفحمة والصدئة. إطارات السيارات المجردة من عجلاتها قابعة على الطريق تحيط بها الوحول

والرواسب الطينية ومطاط العجلات الذائب والمتصلب الذي يكسوه الرماد. حول الإطارات يوجد لفات من الأسلاك المتفحمة. الجثث المحترقة والمتفحمة منكمشة ومتضائلة لدرجة تجعل من يراها يخالها جثث أطفال؛ تلك الجثث مسمرة على مقاعد السيارات المجردة من كل شيء إلا من نوابضها. عشرة آلاف حلم دفنت في القلوب المحطمة لأصحاب الجثث. تابعا سيرهما. يظأن العالم الميت من تحتها، كما تدوس العجلة على الفئران. ما تزال الليالي مسكونة بالموت حالكة الظلمة وشديدة البرد. نادرا ما كانا يتكلمان. كان دائم السعال وكان الصبي يراه دائما وهو يبصق دما. يسقط فجأة ويمشي متهالكا على طول الطريق. قدر، رث الثياب، يائس وفاقد الأمل. أصبح يتوقف عن المسير ويتكى على العربة، في حين أن الصبي كان يتقدمه ثم يقف وينظر إلى الورااء رافعا عينيه الدامعتين الباكيتين؛ كي يراه والرجل ينظر إليه من مكانه حيث يقف من خلال مستقبل لا يمكن تخيله أو تصوره فيراه متوهجا وسط الخراب والدمار وكأن الروح متجسدة فيه.

مر الطريق بأماكن مستنقعية موحلة وجافة انتصب فيها الجليد على شكل مواسير متجمدة ناتئة من الوحل كأنها تشكيلات داخل كهف. ثمة مخلفات نار قديمة على جانب الطريق، يمتد خلفها ممر إسمنتي معبد. أرض مستنقعية ميتة، أشجار ميتة منتصبية ومصطفة وسط المياه الرمادية والطحالب. رقاقت من الرماد حريرية الملمس عالقة على الحاجز الحجري القائم عند حافة الطريق. وقف متكئا على الحجر الإسمنتي الرملي. ربما يتيح لك تدمير العالم أن ترى في النهاية كيف تشكل؛ محيطات وجبال. مشهد ممل غير اعتيادي وثقيل الوطأة لأشياء زالت من الوجود وانتهت. أراضٍ مترامية الأطراف مقفرة وخربة يلفها البرد. السكون.

مرا على الطريق بأوراق ميتة أسقطتها الرياح من أشجار الصنوبر وحملتها وطرحتها على الأرض. دمار وخراب وانهيارات رهيبة عبر الأرياف. حطام الأبنية مبعثر فوق الأراضي الريفية. أسلاك الأعمدة الكهربائية مقطعة ومتشابكة ومرمية على الطريق المغطاة بالأنقاض والحطام والمخلفات مما جعل دفع العربة فوقها عملاً شاقاً. أخيراً جلسا على جانب الطريق وأخذوا يحدقان بما هو موجود أمامهما؛ أسطح بيوت وجذوع أشجار وقارب. سماء مفتوحة دونها بحر متجهم كئيب يموج بطيئاً ومتوانياً.



نشأ بين الحطام المتراكم على طول الطريق وعثر أخيراً على حقيبة مصنوعة من قماش القنب يمكنه حملها على كتفه وحقيبة أخرى صغيرة للصبى. حزما البطانية والغطاء البلاستيكي وما تبقى لديهما من أطعمة معلبة. شرعاً بالمسير مجدداً محمليين بالحقائب وقد خلفا العربة وراءهما. يتقدمان ببطء وجهد ومشقة عبر الركاب وبين الخرائب. كان عليه أن يتوقف؛ كي يستريح. جلس على مقعد جانب الطريق عليه وسائد منتفخة بفعل الرطوبة. انحنى وبدأ يسعل. أزاح اللثام المغطى بالدماء من على وجهه. نهض وغسله بماء متجمع في حفرة، عصره من المياه ووقف على الطريق. تلون نفسه بلون أبيض مائل للزرقة. لقد أدركهما الشتاء. نظر إلى الصبى؛ كان واقفاً يحمل حقيبته كأنه يتيم ينتظر حافلة.

في غضون يومين وصلا إلى مكان فيه نهر كبير عريض فوقه جسر انهار واستقر في المياه الجارية جريانا بطيئاً. جلسا على كتف الطريق؛ في المكان الذي كان يصل بينهما وبين الجسر المنهار، ينظران إلى النهر وهو يلتف حول التعريشة الحديدية المتشابكة. نظر عبر مياه النهر إلى

الريف الممتد خلفه.

قال للصبي:

- ماذا سنفعل بابا؟

قال الصبي:

- حسنا ماذا سنفعل يا أبي؟

سارا على طول لسان أرضي موحل محاذٍ للبحر. ثمّة قارب صغير نصفه مدفون في الرمال. وقفا ينظران إليه؛ مهجور ومهمل. الرياح محملة بالأمطار. شقا طريقيهما بصعوبة مبتعدين عن الشاطئ ومثقلين بالحقائب؛ بحثا عن مأوى يأويان إليه لكن عبثا كانا يفعلان.

جر شيئا من الحطب ذي اللون العاجي والمتوافر على طول الشاطئ. كومه وأضرم النار فيه. جلسا بين الخرائب وقد جعلنا الغطاء فوقهما ينظران إلى المطر البارد الذي يقترب نحوهما من جهة الشمال. اشتد هطل المطر وتساقط على الرمال محدثا فيها نُقْرًا تشبه الغمازات. أطلقت النار بخارا ونفثت دخانا التف فوقها متشكلا في حلقات. اندس الصبي تحت الغطاء وسرعان ما استغرق في النوم. رفع الرجل الغطاء البلاستيكي ولفه حول ظهره وفوق رأسه وجلس ينظر إلى البحر الرمادي وهو يحتجب خلف الأمطار ويرى كيف يتكسر الموج على طول الشاطئ ثم ينسحب من جديد مختبئا خلف ستار العتمة منحسرا عن رمال خُلف عليها نقوشا.

في اليوم اللاحق ابتعدا عن الساحل متجهين نحو الداخل. أراضٍ فسيحة مستتعية مغطاة بنباتات السرخس والسلحبيات. كان تقدمهما في المسير عذابا محضا. وصلا بعد يومين إلى طريق. وضع الحقيبة على الطريق وجلس فوقها محنيا. شابك يديه، وضعهما على صدره وبدأ يسعل إلى أن

أنهك ولم يعد قادرا على السعال. سارا مدة يومين إضافيين. ربما يكونان قد قطعوا مسافة عشرة أميال. عبرا النهر وبعد مسافة قصيرة وصلا إلى مكان تتقاطع عنده الطرقتان. كانت قد هبت على الريف عواصف فارتفعت الأشجار المتفحمة والميتة من الشرق إلى الغرب وسوتها بالأرض كأنها أعشاب ضارة وطحالب غارقة في قاع جدول ماء. هنا نصبنا لنفسيهما خيمة. عندما اضطجع على الأرض أدرك أنه لن يقوى على المضي أبعد من ذلك، وأيقن أنه سيلقى حتفه في هذا المكان. جلس الصبي ينظر إليه وعيناه مغرورتان بالدموع وقال: أوه يا أبي.

كان يشاهده قادمًا عبر الأعشاب. جثا على ركبتيه وبيده كوب من الماء أتى به. توجد هالة من الضوء تحيط به. تناول الكوب، شرب ثم استلقى على ظهره. كان طعامهما علبة من الدراق إلا أنه جعل الصبي يأكلها، أما هو فلم يأكل شيئًا. قال:

- لا أستطيع. هكذا أفضل.

- سوف أحتفظ لك بنصف العلبة؛ نصيبك منها.

- حسنا، احتفظ به حتى يوم الغد.

أخذ الكوب ومشى بعيدا فإذا بهالة الضوء تمشي معه. أراد أن يجعل الغطاء خيمة، لكن الرجل لم يتركه يفعل. قال: إنه لا يريد أن يكون فوقه أي غطاء. اضطجع ينظر إلى الصبي عند النار. ودَّ أن يكون قادرا على الرؤية. قال: انظر حولك. لا يوجد نبي عبر تاريخ الأرض وعمرها المديد إلا وقد بلغ مراتب الشرف هنا اليوم. كل ما يشكلك ويتكلم عنك هو على حق.

ظن الصبي أنه شم رائحة رماد رطب تحملها الريح. ذهب نحو الطريق وعاد منه يجر لوحا خشبيا أخرجه من بين النفايات المتراكمة على جانبه

ويدحرج دفعا بقدمه بعض القضبان وصخرة صغيرة على الأرض. صنع منها جميعا كوخا منحدر السطح متداعيا ومخلع الأوصال لكن في النهاية لم يهطل المطر. ترك مسدس الإشارة وأخذ معه المسدس الآخر وطاف بالريف؛ بحثا عن أي شيء يؤكل، لكنه عاد صفر اليدين. أمسك بيده وقال بصوت متقطع ومتعب بسبب صعوبة التنفس:

— يجب عليك أن تستمر. أنا لا أستطيع أن أذهب معك. عليك أن تتابع المسير. إنك لا تعرف ماذا يمكن أن يكون في أدنى الطريق. لقد كنا دائما محظوظين. سوف يبقى الحظ إلى جانبك وسوف ترى. ما هو مطلوب منك هو أن تستمر وكل الأمور ستكون على ما يرام.
— لا أستطيع.

— حسنا. لقد أمضينا وقتا طويلا في مسيرتنا وها نحن الآن قد وصلنا إلى هنا. استمر في الذهاب جنوبا. أفعّل كل شيء على النحو الذي فعلناه معا.

— سوف تكون بخير يا أبي. يجب عليك أن تكون كذلك.

— كلا لن يكون هذا. احتفظ بالمسدس معك دائما. عليك أن تجد الناس الطيبين، ولكن ليس لديك فرصة للمخاطرة. يجب ألا تخاطر. هل تسمع؟
— أريد أن أكون معك.

— لا تستطيع.

— أرجوك؟

— لا تستطيع. عليك أن تحمل النار.

— لا أعرف كيف أفعّل.

— بل أنت تعرف.

- هل هي حقيقة؟ النار؟

- نعم إنها حقيقة.

- أين هي؟

- لا أعرف أين هي.

- بل تعرف.

- إنها في داخلك. كانت دائما هناك. أستطيع أن أراها.

- فقط خذني معك. أرجوك.

- لا أستطيع.

- أرجوك يا أبي.

- لا أستطيع. لا أستطيع أن أحضن ولدي بين ذراعي ميتا. كنت أظن أنني

أقدر، لكني لا أستطيع.

- قلت: إنك لن تتركني أبدا.

- أعرف. أنا آسف، لك قلبي؛ كل قلبي. دائما كان قلبي لك. أنت خير

صديق، وقد كنت دائما كذلك. حتى إن لم أكن موجودا بإمكانك أن

تحدثني. تستطيع أن تكلمني وأنا سوف أكلمك. سوف ترى.

- وهل أستطيع أن أسمعك؟

- نعم سوف تتمكن من ذلك. عليك أن تفعل هذا تبعا للمحادثة التي تتخيلها،

وسوف تسمعي. يجب أن تتمرن. المهم ألا تستسلم. ما رأيك؟

- حسنا.

- حسنا.

- أنا خائف حقا يا أبي.

- أعرف لكنك سوف تكون بخير. سيحالفك الحظ، فأنا على يقين أنك
محظوظ. يجب أن أكف عن الكلام، فقد انتابني السعال.
- حسنا يا أبي. لا ينبغي أن تتكلم. حسنا.

سار على الطريق نزولا ما أسعفته الجراءة أن يفعل ثم قفل عائدا. كان
أبوه نائما. جلس تحت اللوح الخشبي ينظر إليه. أغمض عينيه وتحدث
إليه. أبقى عينيه مغمضتين وأنصت ثم كرر المحاولة.

استيقظ في كنف الظلام وبدأ يسعل بهدوء. اضطجع منصتا.
جلس الصبي قرب النار متلفعا ببطانية يراقبه. صوت ماء يقطر وضوء
شحيح أخذ بالتلاشي وأحلام قديمة تتسلل خلسة إلى عالم اليقظة. أما
الماء الذي كان يقطر فقد كان في الكهف، وأما الضوء فقد كان القنديل
الذي حمله الصبي بواسطة عصا منتهية بحلقة من النحاس المستطرق.
تساقط الشمع على الأحجار على شكل قطرات. في الرواسب الطينية آثار
أقدام لمخلوقات مجهولة. وصلا في الرواق البارد إلى نقطة اللاعودة؛ تلك
النقطة التي قيست اعتبارا من أثر القدم الأول، وذلك بواسطة الضوء
الذي كانا يحملان.

- هل تتذكر الصبي الصغير يا أبي؟
- نعم. أتذكره.

- هل تظن أن ذاك الصبي الصغير هو بخير الآن؟
- أوه. نعم أعتقد أنه بخير.

- هل تعتقد أنه ضائع؟

- كلا، لا أعتقد أنه ضاع.

- أخشى أن يكون قد ضاع.

- أعتقد أنه بخير.

- ولكن من سيجده إن كان ضائعا؟ من سيجد الصبي الصغير؟

- الخير سوف يجد الصبي الصغير. كان الخير يفعل ذلك دائما. ولسوف يستمر.

نام تلك الليلة ملاصقا لأبيه وعانقه. عندما استيقظ في الصباح كان أبوه باردا ومتيبسا. جلس في مكانه وقتا طويلا يبكي ويدرف الدمع ثم نهض وسار عبر الغابات وصولا إلى الطريق. عندما عاد جثا على ركبتيه بجانب أبيه، أمسك يده الباردة ونطق باسمه مرارا وتكرارا.

مكث في مكانه أياما ثلاثة، ثم مشى إلى أن بلغ الطريق. نظر إلى حيث ينحدر الطريق ثم استدار ونظر إلى الجهة الثانية من حيث كانا قد أتيا. شخص ما كان يتقدم منه. هم بالالتفات، كي يعود إلى الغابات إلا أنه لم يفعل. اكتفى بالوقوف والانتظار على الطريق والمسدس في يده. الرجل الذي أصبح فجأة في مرمى البصر ووقف مكانه ينظر إليه. كان يلبس سترة تزلج مقلنسة باللونين الرمادي والأصفر ويحمل على كتفه بندقية رشاشة مقلوبة رأسا على عقب وهي مزودة بحبل قصير مجدول ومصنوع من الجلد الطبيعي. كان الرجل متمنطقا بنطاق عريض مصنوع من النايلون فيه جيوب صغيرة ممتلئة بطلقات خاصة بالبندقية. محارب قديم ملتج، على خده ندوب وتحتة العظم مكسور جراء تعرضه لضربة ما، وفي إحدى عينيه خلل وعندما يتكلم أو يبتسم يتخذ فمه شكلا غير سوي.

- أين الرجل الذي كنت معه؟

- لقد مات.

- هل هو أبوك؟

- نعم هو أبي.

- أنا آسف.

- لا أعرف ماذا أفعل.

- أعتقد أنه ينبغي عليك أن تأتي معي.

- هل أنت واحد من الناس الطيبين؟

أزاح الرجل القلنسوة عن رأسه ووجهه. شعره طويل ومجدول. نظر إلى

السماء كما لو أن فيها شيئاً يرى. نظر إلى الصبي، وقال:

- نعم أنا واحد من الناس الطيبين. لماذا لا تبعد المسدس؟

- لا يفترض بي أن أمكن أحداً من أخذ المسدس مهما كلف الأمر.

- لا أريد مسدسك. كل ما أريده منك ألا تصوبه نحوي.

- حسناً.

- أين أمتعتك؟

- ليس لدينا الكثير من الأمتعة.

- هل لديك كيس للنوم؟

- كلا.

- ماذا لديك؟ بعض البطانيات؟

- أبي ملتف ومغطى بها.

- أرني.

لم يتحرك الصبي، بينما كان الرجل يراقبه. جثا على إحدى ركبتيه.

أنزل البندقية عن كتفه ووضعها على الأرض واتكأ عليها. طلقات البندقية

الموجودة في النطاق معبأة يدويا ومختومة بالشمع. تفوح منه رائحة دخان

ناتجة عن حطب مشتعل. قال: لديك خياران هنا. لقد دار بعض النقاش حول فكرة مجيئي إليك أساسا. تستطيع أن تبقى هنا إلى جانب أبيك وتموت أو تأتي معي. إن قررت البقاء هنا فعليك أن تبتعد عن الطريق. لا أعرف كيف جعلت مكان وجودك بعيدا إلى هذا الحد، لكن عليك أن تأتي معي وسوف تكون بخير.

- كيف لي أن أعرف أنك واحد من الناس الطيبين؟

- لن تعرف. عليك أن تحتفظ بقلقة.

- هل أنتم تحملون النار؟

- نحن ماذا؟

- تحملون النار؟

- أنت غريب بعض الشيء. أليس كذلك؟

- كلا.

- إلى حد ما.

- نعم.

- حسنا.

- إذاً. هل أنتم؟

- ماذا، تحملون النار؟

- نعم.

- نعم، نحن نفعّل.

- هل عندكم أولاد؟

- نعم.

- هل عندك صبي صغير؟
- لدينا صبي صغير وفتاة صغيرة.
- كم عمره؟
- قريب من عمرك. ربما أكبر منك سنا ولكن الفرق بينكما قليل.
- ألم تأكلهما؟
- لا.
- ألا تأكلون بشرا؟
- لا ، لا نأكل بشرا.
- وهل أستطيع أن أذهب معك؟
- نعم تستطيع.
- حسنا إذاً.
- حسنا.
- دخلا إلى الغابات. جثا الرجل على ركبتيه ونظر إلى هيئة هذا الكائن البشري ذي اللون الرمادي المسجى تحت لوح خشبي مائل.
- هل هذه هي كل البطانيات التي لديك؟
- نعم.
- وهل هذه حقيبتك؟
- نعم.
- وقف ونظر إلى الصبي، وقال:
- لماذا لا تعود إلى الطريق وتنتظرنى هناك. سوف أحضر البطانيات، وكل شيء.

- وماذا عن أبي؟

- ماذا عنه؟

- لا نستطيع أن نتركه هكذا.

- بل نستطيع.

- لا أريد أن يراه الناس.

- لا يوجد أحد يراه.

- هل أستطيع أن أغطيه بالأغصان؟

- سوف تعصف الريح بها.

- هل نستطيع تغطيته بإحدى البطانيات؟

- سوف أفعل ذلك. اذهب الآن.

- حسنا.

انتظر على الطريق، وعندما ظهر الرجل خارجا من الغابات كان يحمل الحقيبة بيده ويضع البطانيات فوق كتفه. اختار واحدة منها وناولها للصبي وقال:

- خذ. تلفع بها، فأنت تعاني من البرد.

حاول الصبي أن يعطيه المسدس لكنه أبى أن يأخذه وقال:

- احتفظ به.

- حسنا

- هل تعرف أن تطلق النار بواسطته؟

- نعم.

- حسنا.

- ماذا عن أبي؟

- لا يمكننا أن نفعل أي شيء آخر من أجله.

- أعتقد أنني أود أن أقول له: وداعا.

- هل ستكون على ما يرام؟

- نعم.

- إذا فلتذهب. وأنا سأكون بانتظارك.

عاد إلى الغابات. جثا على ركبتيه قرب أبيه. كان مغطى بالبطانية كما وعده الرجل ولم يكشف الصبي الغطاء عنه، بل جلس إلى جانبه. أخذ يبكي ولم يستطع أن يكف عن البكاء. بكى زمنا طويلا وهمس: سوف أتحدث إليك كل يوم ولن أنسى مهما كلف الأمر، ثم نهض. استدار وعاد إلى الطريق.

عندما رآته المرأة عانقته وضمته إلى صدرها وقالت:

- أوه. رؤيتك جعلتني بمنتهى السعادة. كانت تحدثه أحيانا عن الإله. حاول أن يتحدث إلى الإله، لكن أفضل شيء كان هو التحدث إلى أبيه، فواظب على الحديث معه ولم ينسَ.

كان يوجد ذات يوم في الجداول المائية المنتشرة بين الجبال طوائف من أسماك السلمون المرقطة. تستطيع رؤيتها. منتصبه وسط التيارات المائية المتدفقة ذات اللون الكهرماني؛ ذاك اللون الأصفر الضارب إلى الحمرة، حيث النهايات البيضاء لزعانفها تموج برفق وسط الماء. تقوح من يدك رائحة الطحالب. تنفتل و تتلوى لامعة وقوية. على ظهورها خطوط ملتوية دودية الشكل؛ تلكم هي خرائط العالم فيما سيؤول إليه. خرائط و متاهات لشيء لا يمكن أن يعود إلى سابق عهده، كما لا يمكن أن يصلح حاله من

جديد. في الوديان الصغيرة العميقة والمنعزلة حيث عاشت الأسماك، كل الأشياء أكثر تجذرا وأقدم عهدا من الإنسان، وهي تترنم وتهمهم حول لغز، بيد أنها لا تفصح عنه.



obeyikandi.com